

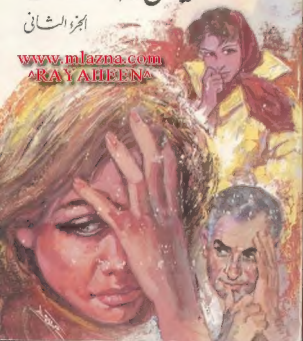
يوسف السباعي

ليلة آخرة

الجزء الثاني

www.mlazna.com

RAYAHEEN



www.mlazna.com-RAYAHEEN

سَهرة

نق جرس الطيفون يوم الخميس بعد الظهر وسمعت صوتك يتسائل
في رقة :

— سهر ! !!

وكانت قد وضعت الطيفون على مفرجة منى بعد أن تناولت الغذاء ،
وخلفتني السعادة بضع مرات قبل أن أسبح صوتك .

وعندما وصل صوتك إلى سمعي .. أحسست بقلبي تتألق ..
واحتجت لأبضع تولى أهدىء ذلك الشيء المصطب من خنباى ..
والذى منح نفسه حرية الطرب من صوتك والانشاء بهنالك .

ولم تكن أحاول أن أكبح جماح نفسي من نشوة انتظار لقلبك ..
والاستمتاع بذلك الشعور الذى يغمرنى بالسعادة من كل ثنية ،
ويملأنى بالفرحة بأى شيء .. حتى ولو لم يكن له بك علاقة .. ويمسح
بالتأويل فكبرى حتى ولو كنت بعيدا من نظائه .. وكان بشحنة
السعادة المستعدة من فرحة انتظري لك قد استقرت في نفسي وأضفى
لها القدرة على أن تمنحنى السعادة من غير حاجة إلى وجوبك .
فأنا سعيدة لأنى أنتظر لفاطك .. وأشغل من انتظرك .. بشئون حياتي
وبمن حولي .. فلا يتجدد إحساسي بالسعادة ، بل أشعر إلى سعيدة
بكون أن أعرف له !

سعيدة عندما أذكر فبك .. وسعيدة عندما أخيب عن تفكيرى .

لم أر مثلك في الحياة .. يمسك ظله على الذهن .. حتى ولو غاب عنه .
 فإثرك .. لبقى في نفسي .. حتى منك .. من وجودك .. من كعبتك .
 أعتاك أدل على ذلك .. من كل هذا التناول الذي اشعر به وأنا أكتب إليك في رقتي هذه ؟ !
 من كل هذا اليقين بطلع النجر .. برغم كل هذه الحلقة التي تصب بنا .
 من كل هذا الإيمان .. بأخر ليل .. لا يكاد يبدو له آخر ؟ !
 وأمسكت بالساعة في غرعة امتعت إلى صوتك ينطق بأسى .. ولم أكن أظن لأسمى مثل هذا الرنين الحلو .. الذي انبعث من ثبرائك .
 ولجبتك هاتئة في غرعة :
 — جدي ؟
 — مساء الخير .
 ولم أجد وقتاً لأرد التحية .. وسألتك في لهفة :
 — أين أنت ؟
 — في البيت .
 — متى ستحضر ؟
 — متى تريدان أن أحضر .
 — الآن ؟
 — وضعت وقتاً في رقة :
 — أنت دائماً لطيفة .
 — لم أقصد أن أكون لطيفة .. ولكني فعلاً أحبك أن تحضر الآن .
 — الآن .. الآن ؟
 — ولهم ! ! أهناك ما يشغلك ؟
 — وردعت في لهجة رقيقة :

— أبداً .. لقد أثبت لأراك .. وليس هناك ما يشغلني عنك .
 ومنحنى قولك إحساساً عجيباً بالثقة والإيمان بالله .. الثقة في نفسي وفي الحياة ، والإيمان بالله ، ومقدرته على أن يحقق كل أملي .
 كانت كلماتك القليلة البسيطة .. التي حملتها الساعة إلى أذني .. على غير توقع ولا انتظار .. أبلغ من كل أحاديث المناجاة .. ومولتي الحب .
 ووبست برعة صبت .. بنحت الفرصة لذلك الشيء المصق في صدري أن ينعم بالكلمات الرقيقة التي انسابت من الساعة إلى أذني .
 وعدت أسأل قللة :
 — لماذا لا تأتي الآن إذا ؟
 — لقد وصلت في التو .. سأبدل ملابس ، وأجلس من ألى برعة حتى تعود نادية .. وتحضر إليك سوياً .
 وعندما فكرت نادية .. أحسست لأول مرة .. أنني أنصرف تصرفاً غير سليم .
 كان المغرور أن تتحدث نادية إلينا وتتفق معنا على الزيارة .. ولكن مشاعرنا فرضت انصر السبل للاتصال ، وعبرت ببسطة عن لهفة كل منا إلى لقاء الآخر .
 ولم تكن هناك من وسيلة لكي نبرر لأنفسنا ما نتعلمنا إليه مشاعرنا من تصرفات قد تبدو للعمل المجرد عدم سلامتها ، إلا الإمتذار بأن ثمة صداقة بتينة تربط بين أحدهما والآخر منذ لقائنا في لندن .. نبرر لنا كل هذه التصرفات ، ونصفيها بصيغة .. لا نهار عليها ، ولا حرج منها .
 فإك كان مغرراً لأنفسنا .. رغم يقيننا بأن شيئاً أكبر كثيراً من هذه الصداقة .. قد ثبت بيننا .. وأنه هو وحده الدافع إلى كل هذه التصرفات .. المتدعة .. التلهي .
 وعندما يتفصح لنا طريق السعادة ، نحس دائماً في أنفسنا الرغبة في تغطية الحواجز التي تحول دونها ، والخلاص من القيود التي تشدنا

منه .. ونصبح وحدنا أصحاب الحق في تصديق ما يجب ، وتبرير ما لا يجب .

ولم أحس في نثرة من حياتي .. بوشوح الطريق أبهى ، كما تحسست حينذاك .. فبحثت لتفسي حق البصر فيه .

ولست أظنني جثيت الصواب كثيرا .. في تحديد ما يجب لتفسي وتبرير ما لا يجب ، بما حاولت أن أسوغه لها .

كنت دائما عاقلة !

الم تشهد لي أنت بذلك .. برغم أن شهادتك غير جائزة لأنك كنت طرما في المخالفة ؟

زرتنا ليلتذاك مع « نادية » .

وكانت زيارتك لإحدى خطواتي الطويلة في طريق سعادتي .

عملت خلالها كل ما دعتني مشاعري إلى فعله .. ووضعت أنا لنفسى مقاييس ما يجب وما لا يجب .

ويعلم الله مدى ما تجاوزت الأصول في استيقاض بلهتي تلك ..

كانت الشمس قد أوشكت على المغيب .. وقرصها الأرجواني يتوارى وراء ثياب المدينة وأطراف حورها .. برسلا خطوطه الصبر لتطرز حواشي السحب بالثور الأحمر ، وكثتها وراء كل سحابة شمس تغرب .

وتدتك إلى الشرفة لأجلس وإليك على الأريكة الأرجوحة ، وموكب المسحاب الأرجواني في السماء يشبع الشمس الغائرة في مظاهرة حافلة من الثور الأحمر .

ورجعت ترهب المنظر مأخوذا .. واخذت أتدل البصر بين وجبك وموكب السماء الأرجواني .. وسألتك في إعجاب كئسي سامعة الموكب : — ما رايك ؟

ونظرت إلى وجهي ورجعت تتألم عيني وقلت في إيمان :

— جميل .

وانتظرت أن تحول بصرك إلى الأفق الأخير ، ولكتك استمررت تحديق في عيني .. وعدت تهمس :

— جميل جدا .

وأصابتني رجة .. غيرتني بسعادة عجبية .

وفي غمرة نشوتي واضطرابي .. حولت بصرى إلى الأفق ، وسألتك وابتناسية مرتبكة تملو شفتي :

— ما هو هذا الجميل ؟

وعدتك ابتسامتي فارتسيت على شفتيك ابتسامة أوسع وقلت ونظراتك ما زالت معلقة بعيني :

— كل شيء .

وتطخ علينا الحديث صوت « أمي » وقد أقبلت من المطبخ تجفف يديها .. وقد علت وجهها إشراقة ترحيب .. وهي تهتف بنادية التي جلست في البهو تقلب بعض الكتب مع حسان :

— أهلا وسهلا .

وصاحت « نادية » ثم أقبلت على الشرفة لتصانحك بمسألة :

— أين بابا ؟

واكتشفت أننا بسؤالها تقصيرا من واجب شغلتي لاهتي عليك من ادائه ، ورجعت الأفق « أمي » بالسؤال :

— أجل .. لماذا لم تحضر ؟

والجبت تائلا :

— متعبة قليلا .

وسألتك « أمي » في لهفة :

— كيف .. ماذا بها ؟

— لا جديد .. أكثر من مرض السكر الذي تعاقبه .

وبدا الأسف الصافي على وجه « أمي » واجابت :

— يا ميب الشوم .. نجلس هنا ونتركها وحدها .. سلمحتها في التليفون .. وأرسل الأسطى على إحضارها .

وردت نادية :

— لقد حاولت أن أحضرها .. ولكنها لم تزل أن ترتاح .. لأن خروج الليل يرهتها .

ولم تنتفع « أبى » وزهبت لتطلب أمك فى التلفزيون وتلح عليها فى الحضور .

كان يجب على " أبى " أن لنعل هذا .

ولكنى شغلنى يلتذك .. مما يجب .

مخالفة من مخالفت الليلة الممتعة .. الحائلة بالمخالفات .

وجلست وإليك على الأرجوحة ، وأنا أصبح بنادية :

— لماذا لا نأتين للاستمتاع بالفارجح أبل أجمل لوحات الطبيعة ؟

ورد حسن ضاحكا :

— الأستاذة لا تتأرجح يا سهر .. الفارجح للتلاميذ فقط .

وصمت أنت ضاحكا والأرجوحة تهتز بنا :

— أحتاج بشدة .

ورد عليك حسن :

— لا داعى للاحتجاج .. اعتبر نفسك قائد عوم المراجيح ..

بالجمهورية العربية المتحدة .

وعاد « حسن » ليتشغل بالحديث مع نادية ..

وعندنا نهدى سويا فى الإفق ، وكنت الشمس قد غابت وموكب

النور قد انقضى .

وهبت علينا نسمة خفيفة حملت أريج الياسينة المتسلقة على حافة

الشرقة .

وملأت صدرك بالنسمة الطوة ، وهنت مضافلا :

— رائحة عجيبة .. من أين ؟

وأجبك وأنا أترك الأريكة متجهة إلى الياسينة :

— من شجرة الياسمين المتسلقة على الشرقة .

وأردفت وأنا أمد يدي لأجمع الياسمين :

— سأجمع لك بعضها .

وقفزت من الأريكة وأنت تقول :

— سأجمعه لك أنا .

وأخذت تجمع الزهور البيض .

ولم يلف يدعى من قبل أن جميع الياسمين يمكن أن يكون متما

إلى هذا الحد .

ورفعت يدك بكوم من الزهور تشبه فى نشوة .. ثم مدهتها

إلى " فتلا " :

— انعمين كيف تصنعين منها مقدا ؟

— لست فى حاجة إلى المقد .. سأعمل لك منها مسبعة .

— مسبعة بقياسين ؟

— ولهم " لا " ! ! أهلك أجمل من الياسمين وسيلة للتصبح بحمد

له !

وأجبت بلسا :

— وسيلة جميلة ، ولكنها سريعة اللبول .

وعدت تنظر إلى عيني وتستمر فى لهجك الرقيقة :

— وأنا أتعلم أنه قد ينحنى ما يستحق التصحيح بحمد إلى آخر

المر .

ومن جديد عدت تلعب أمامى .. وتلغنى إيمانا .. وشوح

طريقي .. وبأن النهاية المبهة .. لم تعد بعد مبهة وأنها باتت أشد

من البداية إثرائنا وأكثر وشوها .

وسمعت صوت عريتنا تقف بالباب .. ووصل إلى " صوت " أبى »

يتحدث مع الناس .. وملأنى صوته بمزيد من التثنية والتناقل وتضيت

لو استطعت أن أنقل إليه مشاعرى وأحدثه من إثرائة بدت فى طريق

حياتى .

كنت أدرك مدى اتعكس مشاعرى على مشاعره . ومدى انعكاسه

بإفعالى .. وسعافته بسماعتى .

ونفيت أن أخيرة بأن تلوح اليأس المتركة في نفسى ، والتي سدت
الطريق أمام آمالي الطبيعية .. قد ذابت .. واتى بت الشجر بحرية
الشمس وانطلاقة الأمل .. دون أن اشع للنفس قيودا من خشية أو حواجز
من قلق وخوف .

ولكنى لم اكن انصور كيف يمكن أن أخيرة ؟

أو حتى ماذا أخيرة ؟ . وليس ثمة شيء يمكن أن يقال . ليس أكثر
من أحاسيس في أعماق الأمل .. قد انزلتها كلمة .. أو نظرة .
وفاقدنا الشرفة لتستقبل « أبى » وكوم الياسمين ما زال فى
يدى .

ونمتت الباب قبل أن يدق الجرس .

والتل « أبى » ومن وراءه بعض الأقارب .. خالى حبيطة ..
وزوجها عبد الله ، وأخوه عبد الحميد وزير المالية السابق .. وزوجته
كوتل وابنتهما حافلة .

والخذت بمجموعة الأقارب التي صحبت « أبى » ، ولم يكن لدى « أبى »
فكرة من أية دعوة سابقة لهم ، وبدوا أن يوعاين القيد على خريفي التصرف
مك .. وعاد يسألونى الإحساس بأنى أرتكب مك فتبا .. يجب
ألا يكشف أمره للناس .. وإذا استطاع أولئك الأقربون إلى .. والذين
قد يجدون فى سلفنا القديمة ما يبرر طريقة تصرفنا معا أن ينهوا ..
ويتقربوا .. ويتسلخوا .. فلا أظن بقية الأقارب يسبقون بسهولة تلك
الطريقة .. مما يجعلنى إما أن أتعطف إليهم فى تصرفاتى مك ..
أو أثير دسائلكم وأنسب فى عدم رضائكم على .

وانتهت شجة الترحيب والتعارف واستقر بنا المقام فى مجموعات
فى البهو المنقى إلى الشرفة وإلى حجرة المقعدة .

وكان على « أبى » أن ارتكك نتحدث مع الرجال ، وتشافلت منك بالإقبال
على « حافلة » وأبما وغالنى « حبيطة » .

ولم يحاول « حسان » أن يشع أى قيد على تصرفاته فلم يتسل

نفسه بغير « نادية » ، ولكيل عليها بغير تحفظ وبلا أى اعتبار ..
سوى أنها شىء خاص به .. لا يهيه سواء .

واقبلت « أبى » من المبلخ تبدى الترحيب واك أعلم بما أكثره
منظر الضيوف الذين احتشدوا فى البهو من إزعاج .. وكيف حاولت أن
تدير مسألة العشاء لهؤلاء جميعا .

وأخذ أبى بفسر لأمى — فى شبه اعتذار — كيف اتى بئلة الأقارب
قللا :

— التفتنا فى نادى الشرق وتأخر السائق عليهم .. غرخت أن
أوصلهم .. وأمر « عبد الحميد » أن يسعد لتعصك .

وربت أمى مرحبة :

— أهلا .. وسهلا .. البيت نور .

وأردف أبى قللا :

— وجدتها غرصة طيبة لتتصرفوا بضيوفنا .

ورحت أنت و « نادية » تتبادلان عبارات الترحيب مع انلربى .

وقال عبد الحميد بك :

— أهلا وسهلا .. غرصة طيبة .

وصمت برهة ثم استرسل يقول :

— كيف وجدت بلدنا ؟ !

ولجبت فى رقة :

— وجدتها بلدى .

وحز عبد الحميد رأسه مؤلما وقال :

— أجل .. أجل .. نحن بلد واحد .

وبدا كأنه يريد أن يقول شيئا يتردد فى قوله .. وبعد بضعة عزات

من رأسه أكمل قللا :

— ولكننا كنا نريد من الوحدة .. لشياء كثيرة .

وساد صمت محير لم يقطع سوى تسأل « حسان » مستكمرا :

— كيف ؟

ورفع عبد الحميد رأسه وأجاب قائلا :

— كل شيء يبدو لي كما كان قبل الوحدة .. لا يوجد هنا من يحسم في أمرنا .. كل شيء يبدو مبعثلا .

وأردفت خالتي حفيظة تقول ببساطة :

— بلد بلا حاكم .

ورفعت أنت حاجبك في شيء من الدهشة .. ولكنك لم تجسر على التساؤل .. وتساءلت أنا منك قائلا :

— كيف ؟ وماذا يفعل الحكم هنا ؟

ورد عبد الحميد قائلا :

— يحكمون لحسابهم .. لا لحساب الناس .

وأردف عبد الله بكل حفيظة بقوله :

— وحكم القاهرة يمدون عنا .

ولقد أبى قوله مرددا :

— وبشكلنا هنا نحتاج لحسم سريع عاجل .

وقال عبد الحميد :

— لقد وصل المشير إلى هنا منذ بضعة أيام .. لماذا لا يمشي معنا ..

حتى يخلص الناس من كل هذه المشكلات والقضايا .

ورد عبد الله قائلا :

— سيعنا أنه سيبحث بيننا فعلا .

وهتلت خالتي حفيظة داعية :

— يا ليت .

واستمرت المناقشات ملأها التبرم بالحكم والشييق بالحكم .. وتلا حسن في شيء من السفيرة :

— لا يجبكم العجب ولا الصيام في رجب .

وأجابت خالتي حفيظة :

— لا يجبنا العمل المثل .

وقلت أنت مملنا على الحديث كله :

— كل شيء سينصلح إن شاء الله .. لم يكن من السهل تحقيق الوحدة بالسرعة التي تمت بها .. وهي تجربة جديدة لابد أن نحاول حل مشكلاتها بالصبر .

وردت خالتي حفيظة قائلا :

— لعمل الصبر لا يتقدم قبل أن نحل .

وأجبت أمي تعلن إعداد العشاء .

لم نحاول أن نتحفظ في دعوتك للمعدة أو الجلوس بجوارك ..

فقد أحسست أن هذا واجب لا يمكن أن ألام عليه ..

وقد كنت إليك « غنة الجدوس » وأنا أثول ضلكتي :

— لعلك لم تنس اسمها ؟

— غنة الجدوسة .

— الجدوس .

واتجهنا من الطعم .. واحسست أن « لي » قد مضت للجزء

الأكبر من أعضائها .. لمست أذني .. لأنها أفلتت الوليمة من أجلك ..

أم لأنها أحسست أنك بت تعني شيئا لدى .. وأنتك بت من أسسلب

سعاتي .

وتركتنا المائدة وعدنا إلى مقاعدنا في البهو .

ونظرت إليك بمسألة :

— أتريد أن تسمع للتسجيلات التي حدثت معنا .

وألقيت نظرة على الساعة في بنك ، وعلى الضيوف من حولك ..

ثم قلت في تردد :

— أظن أن الوقت قد حان للإعتراف .

واحسست بما تشعر من كثرة وسط هذا الجمع من الأترياء .. ولم

أعرف كيف أرفع منك ثيود الكلفة .. وتنبئت لو أتصرفوا حتى نستطيع

أن نجلس بغير إحساس بالحرج .

وأجبتك في دهشة من رعبك في الإعتراف :

— الساعة لم تتجاوز المائتة بعد ؟

وقبل حسن سلفرا :

— لقد تعود على النوم المبكر في التكتلات .

وأجبت أنا ضاحكة :

— سنطيه السر .. إنه لم يعد بعد صغيرا .

وانجهت إلى جهاز التسجيل وأنا أتناول قفلة :

— ماذا تريد أن تسمع ؟

— قلت لى إن لديك تسجيلا لأغنية عبد الوهاب بصوت « فيروز » .

ومعذت يدى انهمى الاشرطة .. وعدت أتناول :

— يا جارة الوادى ؟

واثرت براسك مجيها :

— أجل .

وقبل أن أضع التسجيل في الجهاز قلت لك بخفية :

— سأسمعك آخر تسجيل لفيروز .. بن تلمين عبد الوهاب

أيضا .

— شيئا غير يا جارى الوادى ؟

— أجل .

ورفعت التسجيل وبدأ الموسيقى .. واكثرت منك وجمعت

باسية :

— شيئا يفيذك .

وبدأت فيروز تغنى « أسهار بعد أسهار » .

وملت شعيتك ابتسامة مريضة .. وأنت ترفف سمعك للأغنية

.. وجلست على مقعدة صغير بجوارك .. أشرح لك ما أعنى عليك بن

كلامها .

وسرى صوت فيروز ناعيا حالما يردد :

« أسهار بعد أسهار »

« تلحز المشوار »

وجمعت في أنفك قفلة :

« أسهر حتى يستحق المشوار » .

واستمرت فيروز تغنى .

« كتارها الزوار »

« تنوى ويبلو » .

وعدت أحمس :

« بعد قليل سينصرفون » .

واستمرت الأغنية ولم أجد بها ما يحتاج إلى شرح وهى تقول :

« بيتك بعيد .. وليل .. بخليك يا بخليك ترجع .. أحق الناس

إحنا بيك » .

ولنت بالصمت واخفت تنظري إلى وأنت ترفف السمع إلى

الأغنية .

وجمعت بخسلة :

— فاهم ؟

واثرت براسك مجيها في إبطاق فون أن تنبس بكلمة .

وانتهى التسجيل وصوت فيروز ما زال يردد في آذاننا :

— يس أسهار .. أسهار !

وجمعت وأنا أوجه إلى جهاز التسجيل :

— أما زلت تريد الاعتراض ؟

وهزرت راسك بالنى .. ورجعت تنظر في عيني باسما .

واسمعت « يا جارة الوادى » .. و « خاليد الفول الللى فى الثلى »

.. وانصت إليهما في طرب وإعجاب .

ورحنا نسمع ونحدث .. وأقبلت عليك ببسالة وبغدير تحفظ

ولا إحساس بالحرج .. حتى انتصف الليل .

ونظرت إلى الساعة وجمعت لى قفلا :

— الآن الوقت قد حان للرحيل ؟

وصمت لحظة ثم استرسلت نهمس .

— كتارها الزوار .. لكن ما بيلو .

والثقت نادبة وقد سمعت هيساك وقلت ضاحكة :

— نفل نحن .

ثم نهضت وهي تردد ثقلة :

— هيا بنا .. لقد تأخرنا .

ونهض أبى وهو يراكبا تستعدان للرحيل ثقلا :

— ولهم هذه المجلة !

وقلت أنت محترفا :

— اتصفت الليل .

— وبدأ السهر يحلو .

وردت نادبة ضاحكة :

— سيحتاج كل منا إلى غرائش .. إن هذا أقصى ما نستطيعه من

سهر .

— وإن دعى الأسطى على يوصلكما .

ونهض عبد الحيد ثقلا :

— لا داعى للأسطى « على » .. سأوصلهما بهرمتنا .. لقد

وصلت أخيرا .. أين تستكان ؟

وردت نادبة ثقلة :

— فى حى المزرعة .

— ستصلكما فى طريقنا .. هيا بنا .

وقال أبى لعبد الله وهو يراه يهم بالقيام :

— ابقى معنا .. سأدع هرمتى توصلكم .

ونظر عبد الله إلى « خالتي حفيظة » متسائلا من رأيها فأجابته :

— لتبقى قليلا :

وودعكم أبى وأبى عند الباب .. وثبتت لو استطعت أن أهبط

معه حتى العربة وأن ألتصق بنفسى حق الحديث إليك على حدة .. كما

منح « حسان » لنفسه مع نادبة .

كنت أريد أن أسلك متى سنلتقى ثقتة .

تقد أحسست أن لغاضا .. قد بلغت حقا طبعيا لنا .. لا يصح

أن نتساهل فيه .. أو نفرقه للظروف .. تديره حيث تشاء .

وأمسكت يدي تشد عليها شدة الوداع وفى مهبك السؤال الذى

تسأله ميناي .. « متى سنلتقى » .

وكان على أحدا أن يقول شيئا .

وكتت أشعر أبى أكثر منك قدرة على التصرف .. فقلت اتسائل

ببساطة :

— سنصل بك نشارك قبل أن نرحل !

— طبعاً .. إذا لم أتسبب فى إغلائكم .

— أبدا .. نحن نستيقظ مبكرين .. واتصل بنا فى أى وقت تشاء .

وأحسست بشيء من الطيقينة وأنا أراك تتصرف إلى لقاء آت .

وأويت ليلئلك إلى غرائشى .. وأنا ألتصق لنفسى كل ما حدث

بيننا .. وفى مسمعى صوت نيروز تردد .. أحق الناس أحنا بك ؟

ونظرا لك فى عيني .. تنفذ إلى قلبى .. وترسب فى أعمالي .

www.mlazna.com

^RAYAHEEN^

الشجر ، وخرير المياه يصل خفتنا إلى مساهمتنا من المجرى المتدفق بجوار السور على طول طريق برملة .

واسترسلت خالتي تتحدث من مشروع قرى الحدود التكنولوجية التي تعملون الجمعية الجديدة التي تعمل بها على إتاحة قفلة :

— لقد أوشك المشروع أن يتم ، وبعد بضعة أسابيع ستصبح القرى الجديدة صالحة للسكنى ، وستخلو القرى القديمة من سكانها .

وقال زوجها « عيد العيد » وقد بدا عليك الشك :

— لست أدري ما الذي يدخلنا إلى إثابة قرى جديدة على قيد خطوط من إسرائيل .. تكون عرضة للتفويض من أول هجوم لهم .

ورد « حسان » على أبيه في حيلسة :

— كيف تضيق ؟ إن أهلها سيوزعون بالسلاح وسيكون منهم مقاومة شعبية تستبسل في الدفاع عن كل شبر من الأرض .. سيدافعون آخر

قطرة من دماءهم لئلا عن بيوتهم وأسرانهم ، وكيتهم .

وقالت خالتي :

— إنها ستكون قرى دفاعية تحمل محل القرى القديمة بحيث تصبح صالحة للسكنى المسحية ، والدفاع عن أرض الوطن ..

وخر « عيد العيد » رأسه وقال في غير اقتناع :

— تقاطيع . المفروض أن تفلو القرى من أهلها هناك وتصبح مراكز دفاعية .. يهبطها الجيش .

وردت أنا بدافعة :

— إن اليهود ينشئون المستعمرات على الحدود . فلماذا لا نجعل قرانا هناك .. ونشارك أهلها في الدفاع عنها ؟ إن كل فرد منا

مسؤول عن الدفاع عن هذا الوطن ، وأهل القرى هناك أهل الناس بالدفاع عنها ويجب أن يهبطوا لخدمة الدفاع .

إنه مشروع ممتاز ، ويجب أن نسهم فيه كلها .

وقالت « خالتي » في غيرة الصبابة التي أثيرتها :

قلق

احسست من تلك السهرة بأن وثاقا جديدا قد شطنا سويلا وبكث الأرض تحت أقدامنا أشد صلابة والطريق أكثر وضوحا .

وببساطة سلمنا لأنفسنا بهتانا في اللقاء كلما حشرت إلى ميسق ، بل سلمنا بأنه واجب علينا .

وبدئت الصداقة بيننا لكل من حولنا أمرا طبيعيا سلميا ، واستطعت برقتك الطبيعية وصفاء ذهنك وخفة نيك .. أن تكسب محبة الجميع

وأن تجعل من زيارتك أمرا مرغوبا فيه .. حتى من خالتي « حفيظة » .

نعم .. حتى من خالتي .. لأنني أراها خصما لك .. فلا شك أنها أدركت بذكائها الخارق ، أنك تشكل عنصرا جديدا من عناصر الخطر على مشروعها المزمع .. الذي ثابى التسليم ببلخاتته .

ويبدو أن سهرتنا تلك .. قد خلعت في نفسها إحساسا بارديدا الخطر على مشروعها .. فحزمت أن تتخذ خطوة إيجابية تحسم بها الأمر .

ولست أدري أكانت دعوة الغداء التي دعمتنا إليها في بيوتهم قد دبرت من أجل المناقشة التي أثارها .. أم أن المسألة قد أثرت فعوا بعد الغداء .

كنا نجلس في البهو الزجاجي المشرف على الحديقة ، والأبواب الزجاجية المريضة تعجب عنا نسمة باردة قد أخذت تغلعب بأوراق

— سأخذك معي إلى الجبهة في أول رحلة .. لترى ما استطاع
أن نعلم في إنجاز هذا المشروع .
ورثت لكبة الجبهة في مسمى .. ربينا عبدا ، ووجدت ذهني يجمع
اليك ، وتدفقت ذكريات لتلك في خلالي ، وغفك بجوارى ألم الوادي
الأخضر السليب .. وكنت في تلك تصاعدني على تسليق الربوة ..
والغداء سويا .. ومعرض الفلكية .. وكلمتك الخطوة التي استقرت
في أملي « أحبك كما أنت » .
ووجدتني أحلف بمسألة بغير وهي :
— أسيدهيون إلى الجبهة ؟
وردت خلتي :
— طمعا .. لقد سامعنا بمسألة فعلة في المشروع .. وسنعملون
في إغلاء الثرى القديمة ، وانتقل الالهلى إلى الثرى الجديدة .. لابد
أن نكمل لهم حياة طيبة .
— سلاذهب معكم .
وقلت ألى تنهزني :
— ألم تذهبى مرة في مهرجان الشعر ؟
وقلت بمسألة :
— ومن أجل ذلك أريد أن أذهب مرة ثانية وثالثة ، لقد كتبت زيارة
بمهمة .
ولم أفرغ على أى محل أخذ قولى .. ولكنى وجدت الشرود
يعوم على شمسك « خلتي » ، ولم ينبس .. ما إذا كان طيفك الذى
يعوم فى ذهني وأنا أبحث بحسنة من الجبهة .. قد نمت عليه
حياسنى .. لم كان « شرود » خلتي في لير لا علاقة له بك .
وكان يمكن أن تد المسألة .. لما أفرغ أن « خلتي » أنكى من
أن تترك انفعالها يسيطر على أسلوبها في الحديث ، وأفرغ لها تصبى
وتعثر من كل ما يضلها .
ولكن حسان نظر في الساعة ، ونهض ممرعا وهو يقول :

— الساعة الثالثة إلا عشر دقائق .. وموعدى مع نخبية في الثالثة
.. من إنقيم .
وبدا الضيق على وجه « خلتي » .. ولم استطع أن تسع نفسها
من لوم « حسان » بقولها :
— عندما يدعو الرجل المذهب شيوعا للتداه .. لا يتركهم ويذهب .
ورد « حسان » ضاحكا :
— ماذا تقولين ؟ لتسين هؤلاء شيوعا ؟
واسترسلت « خلتي » في لومها :
— لم يكن هناك ما يدعو لال ترتبط بوعدي في هذه الساعة ..
وأجلب « حسان » مستعرا في مزاحه :
— يتأسف جدا .. في المرة القادمة إن استطاع .
ومعاجة ، وبغير — لبق إنذار ، أطلقت « خلتي » كلبتها ثقلة :
— كنت أوشك أن أبحث في موضوع علم .. بفصك أنت .
وصال « حسان » في دهشة .. دون أن تكون لديه أبهى فكرة
ما توشك « خلتي » أن تقول :
— بضغنى أنا ؟
— أجل .
— بخصوص ؟
— زواجك .
— زواجى أنا ؟
— أجل .
ونظر « حسان » إلينا في دهشة وعاد يستل أبه ثقلا :
— أنتكلمين جادة ؟
— طبعما جادة .. أذا موضوع يحتل الزواج ؟
ورد حسان :
— إته موضوعك الدائم للزواج .. طول صبرك لنزحين به .. لقد
زوجتى مثلت المرات .. لصاحبة العصبة الجالسة بجوارك .

وغضبت أنا .

ولكن « خالتي » لم تضحك .. بل ازدادت توجها وردت عليه ثقلة :

— إذا كنت قد أخذت قولي ميبا مضي مأخذ المزاح ، فقد حل الوقت لتأخذه مأخذ الجد .

واستمر حسان في عبثه ثقلا :

— ولماذا ؟ !

— لاني أريدك أن تتزوج سهرير .. إنها لنية عبري .

وعلمت علامات الفسيق وجه « حسان » وهو يرى أنه مستورة في جدتها ، ولحس بالكثير من الحرج وهو يرى المناقشة تتطور إلى مثل هذا الوضع .

وتعذت أبوه ثقلا في هفوه :

— هذه أمور لا تؤخذ بهذه الطريقة .. كل شيء مرهون بوقته .

وقالت خالتي :

— إنه لم يعد صغيرا .. ولنا غير راضية من تصرفاته .

وتسائل « حسان » في تحد :

— من أية ناحية ؟

— من ناحية ناعية .

— إلى تصرف بمعا التصرف الطبيعي .

وقبل أن تجيب « خالتي » التي « حسان » تنبته سائلة ثقلا :

— لقد قررت أن أخطبها .

وأصر وجه « خالتي » وربع زوجها حاجبيه في شيء من الدهشة وقال « أبي » في إفلاص :

— نادية مخلوقة مبتذلة .. كل شيء فيها يدعو إلى الإعجاب .

وعقدت « خالتي » تدريتها على التحكم في أمصها وصرحت في « أبي » ثقلة :

— يا هذا الذي تتوله يا عبد الهادي .. إنكم تساعدونه على الخطأ

.. بدل أن ترشدوه إلى الصواب .. من يقرن ملحية بسهرير .. سهرير

وكرحت أسلوب « خالتي » في التفكير .. وصرم أن ما كانت توشك أن تتوله أن يتجاوز الدحيح للشخصي فقد وحفظني أتلطمها ثقلة :

— من لا نكره على الزواج يا خالتي .. إن لحصل الحق في أن يحتار من يشاء .. ولنا أيضا امتدد أتى أملك هذا الحق .. إننا محبك .. ونشقي رضاك .

وقلطنني « حسان » ثقلا :

— ولكن ليس مفرغوش لأوصاع ، ترفض مشارعنا التسليم بها .

وردت « خالتي » وقد انقلب غضبها إلى حزن يائس :

— أنا أدرى منك كل هذه الأمور .. أدرى منك بنروات الشجب .. كنت أتمنى أن تعجز بهتكيا .

وغضبت « أبي » ثقلا :

— جهري يمين .. بدلا من بيت واحد .

ولجأت « خالتي » وهي ثوى مُنعها :

— أن أخطو بقدمي إلى بيته .

وابدل « حسان » يسأل في استعطاف :

— لماذا ؟ ! إن ناعبة طيبة ، وهي تحبك جدا .

واتنريت من « خالتي » أربت فراغها ، وتساوت حاسكة :

— وستفطن إلى بيني أنا ؟

وردت خالتي :

— ولا أنت .. إنك لا تدرين حاسكتيا .

وقال « حسان » مؤكدا :

— أنا أمره بشاعري .

ونظر إلى أبيه واسترسل يقول في لهجة حازمة :

— وس أجل هذا سأخطب ناعية .

وردت « أمي » تؤكد ما قلته أبي :

— إنها فتاة طيبة .. وأصلبة .

وجه « حسن » الحديث إلى « أمه » قائلا في لهجة مترددة :

— أيمكن أن تذهبى إلى أبيها ؟

ورفعت « خالتي » حاجبها في دهشة وتساوت :

— من أجل ؟

— خطبتها .

— كنا ؟ ! تتلعق قصبى ولا خطر هناك .

وقالت « أمي » لها ناعمة :

— ما هذا العناد يا حنيطة .. إنه لا يرتكب منكرا .

لم نظرت إلى حسن ثقلة :

— سأخذها إلى هناك .. سأحصل بهم في التليفون .. ونحدد موعدا

لزيارتهم .

وتهللت أسارير حسن ..

لم يكن يتوقع أن تنتهى الزويمة بمثل هذه السرعة .. ويتم الأمر في مثل هذه السهولة .

وأقبل على « أمه » يغسها بين فراخيه قائلا :

— ستذهبين مع خالتي .. إن أبيها طيبة جدا .. وهم يحسنونا .

وضحك أبوه قائلا :

— يحبونك أنت يا جعش .. أنت الذى ستزوجهم ؟

ورد حسن في حياء :

— بل يحبوننا جميعا .

ونظرت إلى السامة فلما بها قد جلورت الثلاثة .. نلت لسان :

— موعدك قد ضاع .

وانفتح حسن إلى الباب غرها وهو يقول لأمي ولأبيه :

— سأفبرها لكنها ستزورناهم .

وقال أبوك وهو بهز رأسه :

— هذه أشياء لا يمكن التخطيط لها .. لو التوبة مها ، الأمر فيها مفروق للفر .

ورد أبي قائلا :

— ونفقه أنه إنه إنسان طيب .

وهكذا وضعت المناقشة العاصفة في بوسع دقائق .. خاتمة مشروع الزواج الذى ظلت « خالتي » تعد له السنين الطوال .

وكان عليها أن تسلم أمرها فى وهى ترى الراى العام المثلث مع ابنتها .. بل وهى ترائى اتخذ موقفا حازما واضحا ينهى عن زعدي في المشروع زعدا تليا .

وبرغم أنى لم أذكر مرة واحدة في جدية الموضوع .. وبرغم أنه لم يسمح لى أبدا أى إحساس بالطلاق اللهم إلا في تلك اللحظات متحما كذبت « خالتي » تتحدث عنه كائنية من أماتها .

وبرغم ذلك كله .. فقد أحسست بعد ذلك القرار السريع الحسم بالموافقة على خطبة حسن إلى نادية .. بأن عينا قد اتزاح عن كاهلى .. وأنها قد وضعت حدا حتى لجرد المزاح فيها .

واسمعنى أكثر من هذا إحساسى بأن شمة (ربطنا) واضحا قد باتت بشدنا ويتررب بيننا وبيننا فرصة أكثر للقاء .. ويبرر ما قد تدفعنا إليه بشاشرنا من مظاهر المودة التى قد لا يبررها للفس مجرد الصداقة العائدية .

وبرت الأيام .. ولما انتظر لداك بإحساسى جديد .. إحساسى بهريد من الطمأنينة والثقة .. وزيد من الأمل الحلوة والأمل الطيبة .. وطريق الحياة أسمى يزداد إشراقا والنهية تبدو أكثر دلا . وبخس الأسبوع الأول ولم تلت .

وطيت من نادية أنك نوبجى .. بعد أن مرت بي الساعات وقلق الانتظار يشيق الدنيا الواسعة من حولي .. ويشير أصابعى . ولم ترك في الأسبوع الثلثى ولم أعرف له .. وشجيت أن أسأل .

وذهبت إلى بيروت خلال الأسبوع الثالث ، وعند عودتي عرفت
أنك أنيت لبضع ساعات ثم عدت إلى الحبيبة في اليوم نفسه .

والحسنت بشيق شفيق .. وتبيت لو لم أذهب إلى بيروت ..
وبدا لي أن القدر يمتدني ، وأنه بلعد بيد ما يسمح بقلبي الأخرى . ول
الإحساس الجليل الذي يمنحني بالتقريب بيننا ، بشروع « حمل » في
غطية « ناعية » .. لي تتاح لي فرصة استراثة والاستمتاع به ..
وأنا أجد لقلبي قد استعصى علي .

وبلاني شعور بالحرر ، وأنا أحد نفسي ماجرة من الاتصال بك
.. ماجرة من الاستفسار هناك .. دون أن أحد من العزاة ما يمكنني
من الإنصاح حتى من مجرد إحساسي بالشيق .

ومدت لي قصور ألبني .. قصورا من ورق .. تصف بها ربح
القلق والشك .. ولم أجد ألبني سوى « سلمى » .. أبنا ما نسفي
من شيق وأفسس مما بي من تلق .

كنت أجلس في شرمها ، وقد شردت معي في الساحة المردحة
ملفاني والعريات .. دون أن أيسر شيئا .

وربيت سلمى ركبتي برقي قفلة :

— ما بك يا سهير ؟

وهزيت رأسي دون أن أبس بكلمة .

وعلمت سلمى تسأل :

— تدين شاردة هذه الأيام .. وكان هناك ما يثقلك ؟

ولم أعرف كيف أجيب .

لقد كان هناك فعلا ما يثقلني ، ولكن هل أجسر على الإنصاح به ؟
هل أجسر أن أقول .. إن غيلبك أثقلني ؟

كيف !! وما تكون أنت بالنسبة إلى .. وأي حق لي من أن ألق
لغيبك ؟

إني لم أستطع أن أحدد — حتى لنفسى — ما تكون بالنسبة إلى ..
لذا أبخك نفسي حق انتظارك ؟

إذا كنت لبرر فرحي بك ، وإتيالي عليك .. مالك صديق قديم ؟
وصاحب فطك على سابق .

أي شيء إذن ، يبرر لهنلي على لقلبك وقلتي لغيبك ؟

أي شيء .. فقال للناس ، أو حتى لنفسى .

إني كل ما بيننا أشباه راسية في الأيمان .. لم نجسر حتى على
تحديد وصلنا ، ولا على تسجيها ، أو الإنصاح منها .

أهي حب ؟

حتى وتذك لك لم أكن أدري .

لم أكن أدري أنك تترك في نفسي إحساسا مائتة وإيمانا بالحب ..
وأنت تسمح لطريتي بإشراقة تذهب من نفسي الخوف منه والشك فيه .

لقد منحتني إحساسا ملاعول ، والإتياع والطمانية ، وتركتني
تنتظر شيئا جيلا ، لسمي في حياتي لأخذه .. وهو أجمل ما يمكن أن
مستعنا في حياتنا .

ومن حديد أفسال :

أهو الحب ؟

كيف أقول إنه للحب .

وأنا لا أعرف بعد ما هو الحب .

ولو كل الحب .. غيا أفرني إلى قول الشاعر يقول :

مندی الهوى موصونه لا صفته إذا سالوني ما الهوى قلت ما بيا
ولم أكن قد حدثت أجدا « عا بيا » سوى نفسي .

وترددت لماذا أقول لنسلى .

ولم يكن ترددي لأني لم أعرف لماذا أقول .

كيف أصف لها ما بيننا ؟

وكيف أحدد لها موقعك من نفسي ؟

وعلمت سلمى تسأل في رفق :

— كليني يا سهير .. حدثيني عما بك ؟

وتتمت بكلمات بتردة وجلة :

— لا أعرف يا سلمي .

— ألا تعرفين ما بك ؟

— بل لا أعرف كيف أحدثك عنه .

— حدثيني ببساطة كما تحدثين نفسك .. شعبي لتكلمك في كلمات

.. بلا جهد ولا تضييق .. فولى أى شيء .. أنا لست قريبة منك .

— أعرف يا سلمي .. أعرف أنك كئيب .. ولكنى لا أعرف كيف

أقول ما بى .. حتى لنفسى .

قالت سلمي وهي تقترب ببعدها منى :

— إذن أحدثك أنا .

— عمن ؟

— من نفسك .

واطلقت زهرة حذرة ، وفلت لها :

— تحدثينى من نفسى ؟ !

— أجل .. إن مررت قريب منك وإحسلى بك .. يجعلنى لرى ..

حتى ذلك الذى الرأسب فى أمانك .

— ماذا ترين ؟

وصمت سلمي برهة وبدأ كأنها تستجيب شجاعتها ثم قالت من

صوت خافت :

— أهو حذى الذى يظنك ؟

ونظرت من مينها وأطرفت .

وعابت سلمي تسأل :

— بلأا يظنك بته ؟

— غيبه .

— بعد ؟ !

ووجدتى أسأل نفسى .. أهو غيبك وحده الذى ألتفتى .. ولم

استطع أن أجد الإجابة المقتمة .

كان شيئاً أكثر من غيبك .. وحاولت أن أفسره لاسمى :

— لا أظن غيبه وحده .. بل هو حيرتى فى موقع كل منا من

الآخر .. أين ما يربط بيننا حتى كائن فى الأملقى .. لا يمكن أن ينفصنا

حقاً واحداً .. لحس أن ما بيننا شيء كبير .. ولكنى لا أجد له معلوم

محددة .. حتى لنفسى .

وصمت سلمي برهة ثم قالت هليمة :

— حدثينى .. ماذا قلت له .. وماذا قال لك ؟ !

وحاولت أن أسترجع لنفسى ماذا قلت لى وماذا قلت لك .. ولم

استطع أن أنكر شيئاً .

لا شيء أكثر من بضع كلمات .. لو ذكرتها مجردة لبعدت ماثرة

للمسك .

وحسبت ثقالة :

— هذه الأشياء لا تقال يا سلمي .. ولكنها تحس .

وبعد برهة صمت قالت « سلمي » لتسأل من صوت خافت :

— أهو يحبك ؟

وشردت من الأملق البعيد .. من يلتقى بردى بالجبل .. وقلت وكنتى

أحدث نفسى :

— لم أحاول أن أسأل نفسى هذا السؤال .. لم أجد نفسى من

حليمة إليه .. لقد بنعتى أشياء أكثر كثيراً من مجرد كلمة .

ولطفت تهيدة بريحة وأنا أستعيد لنفسى ما بنعته لى ، وأصبحت

لن حدثى مع « سلمي » قد حلف كثيراً من شعور الحب الذى حبلته .

ورحت أسترجع لى الحديث .. برودة ذكرىاتى الحلوة ، وأنا

أسترجع لأهوى زيارة بلودلى ، والجبهة ، والسيرة الأخيرة .

وأغدت أردد قولك وأنت تتنظر من عينى نظراتك الرقيقة المعجبة

عندما مرخت عليك أن أصنع لك بسبكة من الهلسين :

— إنها سريعة الذبول .. وسيكون لدى ما أجد الله عليه طول

المر .

وابتسمت سلمى وبدأ عليها الرضا والسعادة وهي تقول :
— بهذا يظنك إذا يا مسهر ؟
وثبت لها بأسية :

— لا نستطيع أن نمش على ذكريتنا إلى الأبد يا سلمى ؟
— بضعة أسابيع .. ليست طويلة .. ليست إلى الأبد ..
وعدت إلى البيت ولنا أكثر طمأنينة ، وأقل قلقا .
لقد استطاع إضائي إلى « سلمى » أن ينعني الصبر والسكينة .
ولم أكد أصل إلى البيت حتى وجدت « حلاتي حنيظة » نوشك أن
تغادر البيت ، وهيئة قاتلة :

— سأذهب غدا إلى الجمعية مع الجمعية .. أتريدن الذهاب معنا ؟
ولم أستطيع أن أكنم فرحتي ، وأنا أجيبها :
— طعنا .. لقد قلت لك أنني أود أن أسهم في الجمعية بكل ما أملك .
— سأسر عليك صباح الغد .
وصاحبت أمي من الداخل :
— والكلية ؟

ورددت عليها في إصرار :
— لن أذهب إلى الكلية .. ليس لدينا شيء علم .
ولأول مرة منذ بضعة أسابيع .. نمت سميحة هائلة .

عودة خائبة

استيقظت في اليوم التالي يملا منى إحساس بالناؤل . ولم أكد
أتناول الإفطار حتى سمعت صوت مربة حباتي تنف بالباب .
وحطت الدرج ثلاثين تحذيرات أبي وتوصيحتها بأن آخذ بالي
في نفسي .. ولاهتفتي من الشرفة تواصل توصيحتي لأختي بالانتظار
في العودة ، وقدفت من الشرفة مشال من الصوف مرة إياي بلهجتها
المذمومة :

— لني راسك وعنك بالمشال .. وأهزري البرد .
ووقفت أنظف المشال وأنا أزد عليها في غيظ :
— إنني أرتدى الفاتلة الصوف والبلوزر والباليو .. لماذا أنتل أكثر
من ذلك ؟
وقدلت إلى المربة وقدفت بالمشال إلى جوارى وأنا أهيي غلتي
مثلة :

— صباح الخير .
ولم حد في العربة مواها غصا طت قاتلة :
— ألي ياني حسن ؟
وحزت رأسها بالفتى ثم قالت :
— سنلتقي سنية أعضاء الجمعية في ميدان السبح محرات ثم نذهب
إلى الجمعية رأسا .. إن موعدنا في القيادة الساعة العاشرة .

— نسيتمظرنا هناك أحد ؟

— طبعاً . لقد اتفقا على الزيارة منذ أول أمس .. وكان المفروض أن تتم بالأمس .. لولا انشغالهم ببعض التمركت .. فنفصل فقد الجبهة أن تم اليوم حتى يستطيع أن يرسل بعض الضباط للاقنا والطواب معنا بالقرى الجديدة .

وماد ذهني بجمع بي إليك .

والأسئلة تتلاقى في رأسي دون أن تجد مجيباً .

أترى تعلم نيتاً هذه الزيارة ؟

أعرف من سيكون بها ؟

أمكن أن يخطر ببالك أنني سيكون بينهم ؟

غير محتمل .. ماذا يدموك إلى التفكير في كل هذا ؟

وليم ؟ ؟ ؟

لو كنت مكثك لفعلت .

إني أكاد أراك في كل حلة عسكرية تمر الطريق .. وانتزع مجيئك وراء كل نيا من الجبهة .

محتمل جداً أن تعرف أن أعضاء الجمعية سيوزعون ترى الجبهة اليوم .. وحقق جداً أن تعرف أنهم سيمضون إلى قيادة الجبهة في العشرة .

وليس من المستبعد أن تعرف من الذي سيحضر .. وتبر من بينهم اسم خائى .. وقد يخطر ببالك أنني سأحاول أن أصطحبها لأراك .. ولا أظن حضورك للاقنا .. والطواب بنا .. أمر بتعلم عليك تدبيره .

لو كنت مكثك لفعلت هذا .

بل لقد فعلت ما هو أكثر منه .

قدمت إليك حتى يترك .

خطوات إليك معظم المسافة .. وليس أملك إلا بسع خطوات لكي نتلقى .

لو كان بك نفس لهنى إلى لعلك .

فلا أظن لاقنا بمستجمع ما هنا اليوم .

ولكن .. أباك نفس اللهه ؟

لقد ملأتني في كل لقاء لنا إحساساً بهذا .

ولكن .. لماذا لم تنضمك هذه اللاهفة إلى محاولة لقاء خائى تلك الفترة الطويلة بعد سهرتها الأخيرة بدارنا ؟

أهي مملكات القدر ؟

جائزاً ؟

ولكن أيمكن أن تنف مملكات القدر ، أيلم إرادتنا ؟

لماذا لم استسلم أنا إذا .. وقدمت إليك لأراك ؟

ولذلك أيضاً قد أنيت .. لنجفني في بيروت .

لماذا لم تلت نقية .. وفالقة ؟

ألا يحتمل أن تكون مشغولاً ؟

طوال هذه المدة ؟ ؟

وليم ؟ ؟

إذا كتب .

وهل تستطيع ؟ ؟

استسمح لك غربت حساباتك أن تمنعني في خرج تسلم رسائلنا واحتيل وقومها في أيدي الخير ؟

استسمح لنا علاقتنا الشكية أمام الناس .. ما نكتب ؟

مطبع ؟ ؟

أي خرج يمكن أن أوضح فيه أيلم أبي ولى ، عندما تصلني رسالة منك ؟

إذا تحدث بالقليون ؟ ؟

غير محتمل .

لماذا يقول أهل البيت عندما يطلبون من الجبهة ؟

أي شيء عاجل هام .. يدفعك إلى الحديث إلى ؟

إذا قل لنادية أحبك أن تخبرني بأي شيء ؟

أو تعرف نادية أن بيننا شيئا .. لو هل هناك بيننا ما يمكن أن يسمى ليل الخير ؟

هل بيننا ما يبيع لنا الليلة على الخفاء .. أو الاعتذار عن الغياب ؟
الحسية .. كما قلت لسلوى :

إن الوثائق الذي يشحن .. وثائق حنى .. يربط الأعناق بالاعتناق ..
فون أن يبدو له أثر على السطح ،

فون أن يبدو له أثر ظاهر حتى لنا نحن ،

وهكذا رحت طوال الطريق أسالك وأجيب عنك .

أنهك .. ولرد منك القصة .

وجدتني خالتي برحة ، واجبت عليها بما يتم على شرودى ..
لمأخذت إلى الصمت حتى صيرنا بوابة الأسلاك الشائكة .. ووقفنا أيلم
ببنى قيادة الجبهة .

وكنا في الأيام الأولى من نوفمبر وريح الشتاء قد بدأ عصفها ..
والشمس قد توارت وراء السحب .

ولم أحس من حولي بذلك الإشراف الذي أحسنت به أول مرة ،
ووجدتني في حاجة إلى بعض الجهد لأحفظ بلمسلس الضلوع ..
ليلم قتالية الجو وحصف الريح :

وبعد خالتي يدها بالثقل فتلة :

— لى راسك يا سوبر فالريح شديدة ماردة .

ولفتت الشغل حول عناقى وحقت الخطأ وراء الجميع المزعج من
العربات إلى داخل المبنى .

وتركتنا « خالتي » في قاعة الانتظار ثم فعلت مع إحدى رباتها
في حجرة مواجهة ، وبعد برهة خرجت إلينا ومعهما ذلك الضابط الرفيق
الذى لقينا أول مرة في زيارة الشعراء ، يتعمه ضابط شلب .

وحينما .. متسللا في رقة :

— نثربون التوبة .. ثم نذهب للزور مغفري .

واجبات خالتي :

— لا داعي للتوبة الآن .. تفعل الذهاب راسا .

ولكن قولها بثقة عصفوات الصميمة وأحسائها .. فرد الضابط
قتلا :

— حسن .. نذهب الآن .. ثم نعود لتناول الخداء سويا .

وامتدرت خالتي بإسفة :

— إنهم في عجلة .. وهم يريدون العودة في التسرب وقت قبل
انتهاء مواعيد العمل في مكاتبهم .

وعتب البعض بأنهم قد أجلوا مواعيدهم حتى العودة .

وتلى الضابط محتجا :

— هذا غير مقبول .. المفروض أن نتناولوا الخداء معنا .. أم
تري طحالنا العسكري لا يوجبكم ؟

ورددت أنا ضلعة :

— على العكس .. لقد تناولنا مع الشعراء طعاما ممتازا .

وانقسم الضابط قطلا :

— هذه شهادة نعتي بها ، ونصر من أهلها على دعوتكم للخداء ..
وتكرر الاعتذار .

وخرجنا إلى العربات يتبعنا الضابط الكبير والضابط الشاب ..

وكنت خلال وفئتي إلى المبنى انفلتت حولي في قلق .. وأنا أتوقع
مناجاة ظهورك بين لحظة وأخرى .

وأحسست بالغبى وأنا أجد الزيارة توشك أن تختلط اختطافا ،
وغثيت لو قبلنا دعوة الخداء .. حتى نتاح لنا فرصة أطول لليلة ..

ولكن الجميع بدوا في عجلة من أروهم .

وتلكت قبل أن أدخل إلى العربة ، أهاول أن أجدها هنا أو هناك ..
وتثبتت لو استطعت الاقتراب من أحد الضباطين لأسأله عنك ، ولكني

وجدتها تقزلى إلى عربتها العسكرية وكثارت أكبرها قطلا :

شعلت عنى متبوع لحد الصلطين والاستماع إلى حديثه ومناقشة
العمل الذى جاءت من أجله .

ووصلنا إلى لحد الأبنية الخالية المشيدة بقوالب الأسمنت الكبيرة ،
وكانت على بساطها تحوى كل ما يحتاجه سلكتها إلى جانب الاستحكامات
التي يسكن بها أى موقع دفامى ليتحول المسكن إلى حصص صغير
للمقاربة .

وولنا نستبع إلى شرح الضباط ، والريح نصف من غلحة فى
الجدار لم تترك نافذتها بعد .. حتى ظم حديثه قليلا :

— سيتم تشطيب عمليات البناء خلال الأسبوع القادم ، وسننقل إليها
أهالى قرية التوافيق .

وبدانا نغادر الحصص الصغير الذى يمكن داخل كل بيت من بيوت
القرية الصغيرة الجديدة ، ووقفنا على العراء نواجه معركة الريح مع
الجسافنا .. واسترسل القائد يشير تجاه الحدود وراء القرية :

— نهى نفك على مخربة من ملحقى الحدود السورية الأردنية
الإسرائيلية ، وقرية التوافيق كثيرها من قرى الحدود السورية الصعبة
على الحدود الإسرائيلية تشرف على الأرض المنزومة السلاح ، وهى
تعرض من أجل هذا لأعمال استنزائية مما دعانا إلى تسليح أهلها وتكوين
مقاومة شعبية تكون على أهبة دائمة للذود عنها .. وهذه القرى
للقامية الجديدة ستمنع لهم الفرصة لفق العدو إذا ساورته نفسه
للقيام بأعماله الاستنزائية التي تعود عليها .

واتجهنا إلى العريات .. وبدانا الاستعداد لركوبها واردد القائد
بقول قبل أن نهم بالركوب :

— هذه القرية نموذج لبقية القرى .. وهى لكثرتها استكمالا ..
إذا كنتم تريحون المرور ببقية القرى ...
وإنفقت معظم الأصوات بمدية اكتشافهم بها وأوا مؤكدين رغبتهم
فى العودة .

وتلكنى إحساسى بخيبة الأمل .. وذهبت رمع الريح العاصفة والجو

— سنذهب أولا إلى قرية ناصر الجديدة .
وقالت « خاتنى » تستحلى على ركوب العربة وهى تحدى انف
مظنة حولي :

— اركبى يا سهر .
وعندما جلست بجوارها استرسلت تقول ضاحكة :
— لم تريدين أن تسابى بالبرد ، وتشتتين هنا أمك ؟
— ليس الجو شديد البرد .
— ولكن الريح عاصفة .

وانطلقت العريات فى طريق غير مهد .. وأنا أحدى من خلال
النفاذة على أراك فى أحد المواقف التى نمر بها أو فى إحدى العريات
التي تطلق بجوارنا .

ولم يطل بنا السير حتى وقفنا أمام القرية الجديدة . وهمت خاتنى
بالهبوط من العربة قلقة :

— الريح شديدة يا سهر .. ولا داعى لتزولك .
وكانت الريح فعلا قد ازدادت مصعنا .. حتى بدت كثافتها تصارع
ما يقف فى طريقها وتصر على اقتلاعها .

ولكن الدافع لتزولى .. كان أقوى من نفسى من مصف الريح .
لم أكن من الضماعة بحيث أتنى إلى ذلك المكان لأربط من العربة ..
لأننى فرسة لفتك .

ألم يكن هناك احتمال .. لوجودك فى القرية الجديدة ؟
احتمال ولو واحد من المائة ..

وعلمت من العربة وأنا أحكم الشمال حول منقلى . ولم تكن الأرض
قد مهدت بعد بين الأبنية الواطئة الماثرة حولنا ، وكلى ملينا أن ننتقل
بين الحصى والمجارى ولكوام البقيا المخفلة من عمليات البناء .

ولم أجد السير سهلا .. وانفقت بذلك التى كنت استند إليها خلال
زيارتي الأولى ، وحاولت خاتنى أن تسندنى أحييتا ولكنها لم تثبت أن

القام ان نمر بكل الثرى وكل المواع ٤ ويكل مكان يحتمل ان تسنح فيه
فرصة لتفك .
ولم اك املك السيطرة على موعد الزيارة .
كل كل ما املكه هو ان احكم الشال حول منقلى واتجه فى هدوء
إلى العربة .
ولكنى قبل ان اتمل اغتبيت فرصة مرور الضابط الشلب فى مكتريت
منه أسأله فى غير اكثراث ؟
— اتعرف التقيبه حيدى عبد الفتاح ؟
وابتسم الضابط قائلا :
— طبعا .. إنه لقد بطلىنى .
— واين هو ؟
— فى مؤنبر مع قائد الجبهة .
وارفرفت ريتى وأنا احس ببرارة الخذلان وقلت له وأنا اجدده
ينتظر تعليقاً على رده :
— بلغه تحيتى .. قل له سهر .
ورسبت انشابة على شغنى ثم اتجهت إلى العربة بعد ان سمعت
صوت خالنى ينادى .
ومدت إلى دمشق .
عودة خائبة .. ياقسة .
قد لا تكون انت مسئولا عما لاصلنى بها من برارة الضيبة والم
الپاس .
لما اظنك قد طاف بدهتك قط احتمال مجيئى مع امضاء الجمعية
لزيارة الثرى الجديدة .. حتى تذهب للقاتلى .
ولكنى رحت احبك لوسى .. خلال العودة ٤ واحزم فى مناد بأكك
مطلب فى كل ما وجهته إليك من ثم .
من جديد مدت ايميك واتيك .
غير معمول الا تحرف ان امضاء الجمعية باتون إلى الجبهة .

وكنتى — بمحولة — قد افترضت ان واجبك فى الضيبة ليس الدفاع
عن الوطن .. وإنما استقبال الزوار .
ورحت ابنى على القرائن عليك بالريارة .. القرائن عليك باسماء
الزوار .
ولو كل بك لهنة على لقاتى ، لرحت تسال عن كل قائم من دمشق .
فإذا عرفت ان حافنى حفيظة ستانى ضمن القائمين .. لماذا لا يخطر
ببالك انها قد تصطحبى ؟
ولماذا لا تعبر ابر لقاء الزوار لطفك واجدى معهم .
لو كنت تشمر كبا لشمر .. لفعلت هذا .
ولكنك لم تفعل .. فلنت إذا لا تشمر بها اشمر وكل ما لوحت نفسى
به من لبتى .. كان وهما فى وهم .
وكل ما لاح فى طريقي .. لم يكن سوى طريق سراب .
والضوء الذى لاح فى آخره .. كان فجرا كلبا .
وإلى هذه النتيجة المرة سمتت نفسى .. ورحت لحرها كاس المرارة
حتى تملته .
ما افترنا على ان نمن فى الأوهام ؟ !
ليس فى لوهنا .. قيود .. من عقل ولا منطق .. تمد من حركنا
فيها .
نسرى فيها بالجنحة الطير .. نحلق ونحلق .. حتى نصل إلى
الأدرا دون ان نوتنا حوائل ، ولا نعرضنا سدود .
ثم نبسط نجاة .. إلى انسى ترار .
المنطق الاحق الذى رفمنا إلى دروة الآلاتى بنتهى السهولة ..
لبنعذر بما على السبح بنس السهولة او سهولة اكثر .
حتى نجد انفسنا فى قاع الپاس .
ووصلت إلى البيت ، وأنا احمر نفسى من القاع الذى استغرقت فيها
طوال الطريق .. بعد ان اضممتها بأن حياقتى قد دفعتنى إلى ان اشيد
تصور آمالى .. على هواء جليلالك .

أجل .. لم أعصرك أكثر من مجلد .

والحسنت بنفسى لمهاد كبيرة .

ولم يفلح ما رايت من مشاكسة أبى وحسن استتيلاله لى .. لى
إزالة أحزاني .. لقد أقبل على- يمينى فى شوق .. وقد استخذه طرب
لم أدر مبعته .

ويبدو أن قسمت وجهى قد نيت على خيى .. فقد سألنى
فى دهشة :

— ماذا بك ؟

وهزئت رأسى وأنا أحاول السيطرة على نفسى .. ورسيت إبهامى
واسمعة على شفتى وقلت متفاحكة :

— لا شيء .

— تبدين وكثلك اثبتت مع إسرائيل ؟

— الرحلة متعبة ، ولم تسترح هناك .

— وبماذا رايت ؟

— مثل ممتاز .

— كيف ؟

ورددت عليه بلا تفكير :

— رايت بيوت الفلاحين على الحدود .. قد أصبحت محافل ، وفى
الوقت نفسه تهوى سكنا صالحا من كل ناحية .

— شيء عظيم .. عظيم .

ولم يبد على أبى أنه كان ينكر كثيرا فيما قلت ، ولم أشك لى إعجابه
كأن لقى أبعد من قرى الحدود .

واتبعت لى من المطيح ونظرت إلى- لى لهفة مشوبة بالظلم وكان
أول ما نطقت به سؤالها لى :

— بردت ؟

— لا .

— كل غدة الرياح .. والبرد ، ونذهين فى الخلاء .. أكتكت

هناك ضرورة لهذا المشوار المزمع ؟

وتلت بنفسى ببرارة :

« أبدا .. لم تكن هناك أية ضرورة » .

وقلت لها فى حنن :

— طبعاً .

— ربنا يستر .

والفتت إلى أبى وارتدت تتسائل :

— تريفون الطعام ؟

— طبعاً .

وأمسك يداها ورمت كتفها برفق .. وهو يسترسل ثقلاً :

— فكى عقدة وجهك .. كل شيء على ما يرام .

ثم صبت ثقبلاً وثقل فى الغبط واضح :

— أخذت العدالة مجراها .

وهزت لى رأسها وسألته :

— كيف ؟

— البركة فى لجنة التحكيم التى وضعت لكى تضمن عدالة تطبيق
قانون الإصلاح .

وأطلق تنهيدة راحة ثم ارتف يقول :

— لم يضايقنى أن تؤخذ على الأرض بقدر ما ضايقتنى أن يخرق
القانون من أجل أن يشفى بعضهم حقد ، يلتكيز بالأناس .. لقد قلب
معنى القانون .. وجعل للنار الخاص .. بدلاً من العدالة العلية ..
لن هذا يؤخر حضور الناس على القانون وعلى مطبئيه .

ولم يكن « أبى » وحده الذى ألهس بالارتياح لأن المسئولين من
وضع القانون مصرون على خيلته من العائنين به ليا كانوا .

لم يكن وحده الذى ألهس بالارتياح .

لقد سرت فى البلد كله موجة طمأنينة والغبطة بعد أن منح المشير

سلطات رئيس الجمهورية في سوريا .. ولم يعد يحس الناس ان الحكم يمارس من اجل فئة دون فئة .. وان هناك من يستطيع ان يحسم في مشكلاتهم في القو ويؤكد العدالة والمساواة وتكفي القمص بين الجميع .

والى جانب هذا الإحساس العام بالارتياح .. كل هناك إحساس خالص بالضييق .

والحكام البعثيون الذين حاولوا ان يخدوا من اداة الحكم وسيلة للسيطرة وفرض النفوذ على جهاز الحكم والتكفل بالخصوم قد احسوا بان تيدا قد وضع على حرية السيطرة ، واستغلال النفوذ .

ووجدوا الشيوعيون نعمة لثارة الخواطر ، وإثارة التبلية .

ولم اكن احس بشيء من هذا حتى ذلك الحين .

كنت انت وحدك شاغلي الشاغل .. بكل ما منعتني من آمل ، وسببته من آلام .

حتى نرحلة « أرى » بمذاق لم تلح .. كما قلت لك .. في انتشلي من حوة اهزاني عقب مودتي من الجبهة مخفولة التمس حافية الرجاء .

ودعيت في اليوم التالي إلى الكلية .. بعد ليلة مسعدة حاولت خلالها ان احدد لنفسى موقفى منك .. وان أبرر ذلك التناقص بين ابتلاك على " وغيبك عنى . التمس لك المصائب تارة ، والتي عليك بالقول تارة اخرى .

وقبل الظهر ذهبت إلى المدرج الرئيسى لاستماع محاضرة علمية لاحد الاساتذة من « الاشتراكية العربية » .

وبنى الطريق إلى المدرج سرت و « سلس » وحولنا الطلبة زرافات وقد علت صوامعهم واشتد غضبهم .. واحسست ان « سلس » صدق النظر إلى " بطرف عينها ، ونحن سائرون ، وكأنا نود ان نتول شيئاً .

وكنت احس لى المشاعر المصطنعة في باطني تحتاج إلى شيء من التنفيس ، ولم يكن هناك صمام أمن لكبرى خيراً من « سلس » ..

ولكنى لم اجد الوقت ملائماً للحديث ، ولم يكن هناك من شك في انها كانت بحساسيتها المفرطة تدرك كل ذلك ، ولكن يبدو ان قلقها على قلب قدرتها على الصبر .. وعندما يلمست من ان لكول لها شيئاً سألنى وحي تنص ذراعها في ذراعى :

— شيء جديد ؟

وبكل وسال الرد ولتندعها اختصاراً .. بيزة من رلى .. اجبتها :

— لا ..

ومعنت تسأل :

— ملام التجهيز إذا ؟

وبنفس الاختصار اجبت :

— ابدا .

— التجهيز ليس ؟

— لا .

— وكنت تلبين لغاه ؟

— طبعاً .

— ولماذا لم تنقيه ؟

— وكيف امرت ؟ .. ببساطة لم اجد .

— ألم تسأل ؟

— سألت .

— وماذا قيل لك ؟

— في مؤخر .

— لا بد وانته لم يطم بقدمك .

— ربما .

— لماذا يحزنك إذا ؟

— كل شيء .

— عدت إلى التساؤل ثانية ؟

— لم يكن هناك من سبب للتساؤل .

— لماذا تصيئين الظن به ؟
— الأصح هو « لماذا أفسدت الظن به » ؟
— أنت غافلة .
— أنا ؟
— أجل .
— بعد كل ما حدث .. أكون أنا الظالمة ؟
— ماذا حدث ؟

وأهسست برغبة جارئة في أن أعود لأرشد لها كل ما قلت لنفسى
في نيلنى المسهدة .

أهسست برغبة في أن أحول تضيقك إليها .. أو استأنفها عندها ..
عليها فاضحك .. لغرض طيب .

لقد حكمت عليك بالإدانة ، وخرجت من المحاكمة .. وكنتى أنا
المسافة إلى العتلب .

كنت أنظف على من يبرئك .

كنت أهر سلسي من نراعيها وأذهب بها بعيداً من المدرج لأحدثها
عن كل شيء ، ولكنى أبصرت « حسان » مبتلا مع « نائية » ولم يك
يرانى حتى عطف بى :

— سهر .. صباح الخير .

ورفعت تعينته بمحاولة الابتسام .

— أهلا .

— ادعيت إلى الجبهة أمس ؟

— أجل .

وحدثت نافية بتسائلة :

— ولقيت حمدي ؟

— لا .

— محببة !! ذهبتين إلى الجبهة ، ولا تلقينه ؟

— لم أجدته هناك .

— ولماذا لم تسألني عنه ، وتطلبه أو تذهبي إليه ؟
— قبل لى إته في مؤخر .
— لقد أصبح غير معتول .. منذ أن سهرنا عنفكم .. لم يحضر
سوى مرة واحدة ليشرح ساعلت .
ورفعت حاجبى في دهشة ، وكنتى أعرف لأول مرة .. وقتلت أعلق على
نولها بشر أكثرث :

— محببة !

وقلت حسان :

— معتول .

وسألته نافية في فيظ وكنتها تعبر عنى :

— معتول ألا يرى أنه طوال تلك المدة سوى مرة واحدة ؟

— إنهم على أهبة الاستعداد دائماً .. لأن الإجازات بوقوة .. لأن
اليهود يتحذرون لشيء .. إنهم يحسبون نفضنا بين آونة وأخرى .. ولا يعلم
إلا أنه ماذا يريثون .. أمو مجرد استغزاز .. أم وراءه شيء أعين ..
سأية حال المفروض أن تكون قواتنا دائماً على استعداد حتى لا نؤخذ
على قرة .

وأراهنى حسان من حيث لا يدرى .

لقد قدم منك اعتذاراً .. بت في أشد الحاجة إليه .. لتبرئك .

وكنا قد دخل المدرج ، وانفدنا أياكنا بين الحشد الذى امتلات
به مخاض المدرج ، ولحمت شكيب بقبل علينا بلساً .

وحينما وانتهى إلى مقعده بجوارنا .

وسعد دقائق هذا الحاضر حديثه .

ولم أصبح مالمطع شيئاً .. لقد كان من العسير على أن أسيطر
على ذهني الذى أبى إلا أن يستدعيك مرة أخرى ليعيد مهادنتك على
جربة الخيال الكبرى التى ارتكبتها .

ونى شوء البيئات الجديدة عمت استجوبك .

ولم يك ما قاله حسان بالشيء الجديد ، لقد كان هذا هو علك

— والعمال المصريون ينفذون إلينا بالبحر محنفة ليحطوا محل العمال السوريين وينشروا البطالة بينهم .

ومد « حسان » يده فقبض على كتف « شكيب » بعنف قائلا :

— أنت كاتب وممثل .. أنت تعرف أنه لم يأت إلينا عمال من مصر .. وأؤكد لك أن مصانعنا ما زالت تعمل بمالها السوريين كما هي ، ومدينا أقول ذلك أقول من يقين ، لأن لدينا مصانع ، ولأني أعرف من الذي يعمل فيها .. وأنت تعرف الضيق الذي كانت تعانيه البلد من هجرة الحكم ومراحبه .. ووزراء البعثيين واستغلالهم للفنود من أجل ميولهم وانتماعهم .. وهاجتنا إلى سلطة بائنة حاسية عاجلة ، وتعرف مدى ارتياح الناس لحياة المشير ، ومع ذلك تطلق هذه التشنجات السالبة الضيقة المفضلة .

ودسه « حسان » مبدأ وهو يقول في غيظ مشوب بالازدراء .

— انتق الله يا أخي في وطنك . احلف بمعا في المبدأ ، ولكن كن أميناً .. وكفى كنفا وتضليلاً ، ونفعا المسموم .

وتركنا « شكيب » دوس تحية .

وانصرف كل منا و « حسان » يهر رأسه في حيرة :

— ومعد .. ما آخر كل هذا ؟

الطبيب في الخياط منى ، ولقد سقته لنفسه من قبل ، ولكن في موية الياس والغضب لبث قبوله ، وكفى كنت أنعم بأهزائي .

واحسست بعد أن مضى بين الحزن ، التي عدت أظف إلى الاعتذار منك ، تنطقت كلمات « حسان » وعدت أطلبها في ذهني .

وانتهت آخر كلمة من كلمات المحاضر .. مع حكى عليك بالبراءة .. وأنتك — برغم أنه كان يتهم عليك أن تفعل كل شيء من أجل لغتنا — إلا أنك غير مذنب ، وأنتك — وهذا أجل ما في الأمر — صادق في مشاركتي تعوي .

وفادنا المدرج ، وبما « شكيب » .

ودارت مناقشة بين « حسان » و « شكيب » عما جاء بكوال المحاضر ، ولم أحد هناك ضرورة لتتبع المناقشة بعد أن انخفت في تتبع المحاضرة التي بقيت عليها المناقشة .

ولكن شيئا في أقوال « شكيب » أثار اهتمامي .

لقد وجدته يقول في مناد :

— الحرية أولا .

واجابه حسان :

— اشتراكيتنا ليست ضد الحرية .

— كيف ؟ أنا لا أستطيع أن أقول ما أريد .

— من يملك ؟

— لا أهرؤ أن أكتب ما يردده بعض الناس على المخاض .

— ماذا يرددون ؟

— لقد عرضت الوحدة علينا استعماراً .

— استعماراً ؟ ماذا تعني ؟

— يمكننا حكم عسكري .. ككاه نائب الملك .

واحسست أن الدم قد تصاعد إلى وجه « حسان » وهو يتساءل وأصدافه تتلامح :

الزمنه تحتاج إلى مساعدة « أسي » في عملية الإعداد ، وكانت « أسي »
تقبل على المساعدة في خطة لديها لصلن وإحسائها به كإين لها .
وخرجنا يوم الخميس إلى سوق الحبيبة « أنا وأسي وسلي » بعد
أن تناولنا الغداء في بيتنا .

ووقت المرة في أحد الشوارع الجانبية وعلطنا بجول في السوق ،
وكان الخيلم قد تكلف حتى صم الجو ولعبة برد تهب بأن آونة وأخرى
بمضلل إلى البين حتى تكلف طمس العظم .

وأحسنا بعض البدء بين جموع الناس في السوق المزدهجة ،
وكانت المصابيح قد أضاءت أرجاءه رغم أننا لم نتجاوز العصر ، وعلنا
ببعض الحوانيت ثم استقر بنا الخلم في أحد حوانيت الإضاءة ..
ورحب بنا صاحبه وبدأت « أسي » تشاهد أقبشة المسكين واليهابست ..
وبدا اللل ينتلني ولم أعد أحس في نفسي القفرة على مواصلة عمليات
الشراء مع « أسي » فتكررت إليها قلقة :

— استبكتين طويلا ؟

وربعت « أسي » إلى عينيها في دهشة بضائلة :

— إتنا لم نشتر شيئا بعد .. والوقت ما زال مبكرا .

— إذا سأخذ العرة لتوصلني إلى السينا مع سلي ثم أرسلها لك .
وهزت « أسي » رأسها في دهشة وتساقت :

— سالم تنقل أنا مستبلي في السوق معا حتى نذهب إلى بيت نادبة ؟
— أجل .

— ماذا حدث إنني ؟

— تفاهلت .

— بنت بلولة .. لا تستكرين على حال .

وبعت الصيرة على وجه « أسي » .. وصاغت في خيق :

— وكيف سطقنتي بعد السينا ؟

ونكرت برهة ثم قلت :

حاجة مُستجبة

عادت الإشرافة إلى طريقي من جديد .
وانتسعت معصب العم والقلق التي خيمت على نفسي خلال بضعة
الأسابيع السابقة التي لم أستطع لفاك فيها .

ولست أظنني أستطيع أن أعدد لتفسي ، لعلنا عادت الإشرافة ..
وامتسعت المسحب ، وحث لي البنيالي أكثر وضوحا وأقل سرابية ..
فما أظن شيئا جديدا قد حدث يدمو إلى ذلك التفسير في نفسي .. غدد
بقيت أنت على قبيلتك في الجبهة دون أن تسنح لي فرصة لفاك لو حتى
الاتصال بك .

ولكن ثمة الأشياء قد لا تكون لها صلة مباشرة بك .. قد ثلاثت
ونشايكت لتحكم من حديد الوثائق الذي شغلت بك والذي أرخته توبة
الباس أنني مررت بها أيام بعدك .

كان أول هذه الأشياء هو الاتفاق على عقد قران « حسن ونادية » .
وبعد الاستعداد للاحتفال به وتحديد يوم محين له .. ما جعل مجيئك
أبرا محتوما ، وليس أمنية تتلاعب بها الظروف ، فلم يكن من المعقول
إلا يسبحوا لك بعمارة الجبهة لعقد قران أخذك .

وسرت عملية إعداد عرس « حسن » على قدم وساق ، وكان ملينا
أن تشارك فيها جميعا .. فقد كانت « خلقي » مكررة مشاعلمها في
جيمباتها ، وياقتلرها للحباسة لهذه الزيجة التي خيبت ألبها في أبنيتها

— تدرين علينا في بيت سلمى .

وعادت « أمي » تقول في حقل :

— وكيف سذهبنا إلى بيت سلمى ؟ .. سكرت لكها المرة ..

— لماذا يا ماما ؟ إن السببا على بعد خطوات من بيت « سلمى » .

— والزحام والبرد ؟

— إني أرغب في السير .

ولم تستطع أن تقول شيئا يمس تصرفي على السير أو يذكري

بسلمى ، وكان عليهما أن تستسلم لما أردت .

وحاولت « سلمى » أن تعاون « أمي » قلقة :

— دعينا نسير في السوق قليلا .

— لقد تشابكت من زحام السوق .. هيا بنا .

وتنهضت و « سلمى » واستمرست أقول ولنا أخطو خارج الحائوت :

— سترسل لك الحرية بعد أن توصلنا إلى السبينا .

وانجينا بالحرية إلى سبينا العباسية .. وكنت تدلحت على لانتها

أحد الأعلام التاريخية التي شرت منها من قبل ، ولكننا لم نكد نصل إليها

ومتوقف ببابها حتى قرأت على اللافتة الكبيرة المعلق عليها اسم غيلم آخر

سبق أن رأيته .

ونظرت إلى « سلمى » بمسئلة :

— انذهين إلى سبينا أخرى ؟

وبدا التردد على وجه « سلمى » وهي تقول :

— لماذا لا نعود إلى بيتنا .. تسترخين في الغرفة .. أو تجلسين

أمام الحفلة .

وفكرت برهة ثم أجبتها :

— يمكنك حق .. هيا بنا .

والفتت إلى السائق قلقة :

— إلى بيت سلمى يا أسلمى على .. وعد بعد ذاك إلى ماما .

ووصلنا إلى البيت وقتت « سلمى » الجرس ، وعطت نبرة وهي
تري انخاما « ريلس » يفتح الباب :

— ريلس .. ماني وصلت ؟

— بنذ نصف ساعة .

ويذت على وجهه الفرحة وهو يصيرني اتف يلقاب وراء « سلمى » ،
وهتف برحبا :

— سوير .. أهلا وسهلا .. تفضل .

ولسح لنا الطريق واسترسل يقول وهو يتبعنا إلى الداخل بعد أن
أغلق الباب :

— لم تكن لدرى أنني بحظوظ إلى هذا الحد .

وتسلطت « سلمى » ضاحكة :

— كسبت نيرة ؟ !

— بل رأيت سوير .

— هكذا ؟ !

ورعدت أنا ضاحكة :

— متشكرة .. لم تكن أظن نفسي بمثل هذا القدر .

واجترنا اليوم متجهين إلى حجرة الجلوس وقتت سلمى :

— لا أظننا نحتل الجلوس في الشرفة .. فمسود السحب لا ينهي

من شماع شمس يمكن أن يصل إلينا في يومنا الغائم ..

ثم وجهت السؤال إلى قلقة :

— ما رأيك في أن تجلس هنا ؟

وأردف « ريلس » قائلا :

— وسأوفد لكها الحفلة .. سأحضر الخطب حالا .

وردت « سلمى » قلقة :

— لا داعي للخطب .. سنوفد حفلة الجاز الفيل .. أنت تعرف

أنت وشيخها بوسلفة الخطب .

— إنها ليست هنا .

وانتهى التفتيح في التل من عمله ، ورجع إلى رأسه مختبئاً وهو يقول :

— لجل .. هكذا يكون الدفء .. وإلا فلا .

ثم اتبل علينا وهو ينظر إلى نظرة لم يستطع أن يخفى ما بها من إعجاب .

نظرة تشبه إلى حد ما .. تلك النظرة التي ترسلها أنت إلى ميني سلوئي لحسابها بأنها صادرة من أميالك .. لخدمة إلى أميالك ..

كأنت صادرة من أميالك .. ولكنها لم تصل إلى أميالك .

لم تجمني اضطرب كما جعطني نظرك .

لم تطلق بي ، ولم تتركني أسرى مع التسمم .

لم تفعل بي شيئاً من هذا .

أيكني هذا لطيفتك ؟

وبح ذلك .. لا أنكر أنها كانت صادرة من أميالك ، مما جعطني أحس لأول مرة أن شعوراً جديداً قد نبت في نفسي ، وأنه لا يملك إخفاؤه .

ولقد كنا نلتقي من قبل في بيتهم .. وكان رفيقاً كريماً مهذباً .. يبدل عليّ في جودة ، ويلقني في مطفء .

ولكن ما به هذا اليوم إلى آخر .

ووضع يديه في جيبيه وتساءل وهو يتصمم :

— ماذا تشرين ؟ لا يوجد أحد من الخدم هنا ... ولكني سأكوني حديثك !

ولدت ضامكة :

— استطيع أن تقدم لنا فنجاناً من الشاي ؟

وأجاب « ريفس » في حماسة :

— شاي فقط ؟ أنا استطيع أن أقدم لكها مشاء .. لو أردنا .. طالما طبعنا لنفسنا في الجهة .

وردفت عليه ضامكة :

— تعني أنك فحمت لنفسك عتبة من الأظعمة المحفوظة ؟

— وعندما تمطر ؟

واسترخيت على مقعد وثير في ركن الحجرة حتى يستقر الأخواني على أمر .. واستطاع « ريفس » أن يفتح « سلسي » بيلناد بخفته الحطب ، وأهست بابندان لريفس ، فقد كنت اتوق في هذا الجو المعتم إلى منظر الجمرات تشتعل في جوف المدفأة .

وغلب الاثنان بركة ثم عاد كل منهما يحمل كوباً من الحطب القاء بحوار المدفأة .

وأخفى « ريفس » ينفخ النيران كي تسرى في الحطب ، وبدأ وجهه مختبئاً وهو منهك في عمله .

ووجدتني — على غير رمي مني ولا إرادة — أضع وجهك مكش وجهه وأبسم لك . وأسألك في مناب رقيق « لماذا لم تلت ؟ »

كل الضباط يتركون الجبهة إلا أنت ؟

حتى لكذلك وحفك الذي بقي في وجه إسرائيل .

على أية حال .. كلما أسبوع وثاني في فرح « نادية » وسأحدثك كثيراً .. كثيراً .

سرسم لكل ما بهتنا .. علامات واضحة محددة .

والضحة على الأكل لأنفسنا .

سيحدث كل بنا لآخر موقفه من نفسه .

إن أتردد بعد ذلك .. إن أتناول :

« موقفي منك لا أمليه » .

أو لو شطمت عندي موقعك .

سأؤكد لك أن موقعك عندي .. ربيع .. ربيع .

وسأعرف أن موقفي منك .. ربيع .. ربيع .

أو ليس كذلك ؟ !

شيء في أميالك .. يؤكد لي أنه كذلك .

وأميالك لا تخطيء قط .

— بل كنت أمتنع الشورية .. والكرونة .

وقاطعته « سلمى » سلفرة :

— وتظلي الأبيض ؟

ورد « ريفس » مؤكدا :

— وأصنع كل شيء .. كل ما كنت أملك توهم أباك أنها أعمال خطيرة لا يستطيع أحد أن يقوم بها سواها .. وانه لا يملك من أجلها الاستغناء عنها .. قد قت بها نفسي .

وقاطعته ضاحكة :

— لم تعد إذا في حاجة إلى زوجة .

وتسائل في استنكار :

— لماذا ؟

— لأنك في غير حاجة أن يقوم لك بالأعمال الخطيرة .

ورد على الفور ضاحكا :

— ولكن في حاجة إلى من تقوم لها أنا بهذه الأعمال ، إذا لم تكن في حاجة إلى من يقدمني .. فلما في حاجة إلى من أخدمه .

وقالت « سلمى » بدهشة للسلفرة :

— منهي الشهية .

ثم نظرت إلى « وارد » فقلقة :

— لا تصدقني .. إنه أكمل مخلوقات الله .. اجلس وكلي ادعاء للشهية .. سأصنع لك أكل الشاي .

وأجاب « ريفس » في إصرار :

— بل سأصنعه لنا .. أين الدخان ؟

ونظرت إليه « سلمى » قلقة :

— في الدواليب .

— وأين الشاي ؟

— على الرف .

— أي رف ؟

— رف المطبخ .

— والمسكر ؟

ونبهت « سلمى » هذه المرة قلقة في حزم :

— صنع فنجان الشاي أسهل كثيرا من كل هذه الاستجابات .. من إنشكا .

وتغذرت « سلمى » الحجر لتصنع الشاي .

وجلس « ريفس » على مقعد بجواري .

وحضت برهة صمت لم أجد ما أقوله ، وكاد الدهن يجمع كعادته إليك .. كلما وجد فرصة شرود .. لولا أنني سمعت « ريفس » يقول في تردد :

— كنت أتوق إلى مثل هذه الفرصة .. ولم أتوقع أن ينعم القدر علي بها بمثل هذه السهولة .

واستبعت في قوله ربح خطر .. لم تكن كلمته ولا لهجته ثم على الأسلوب الطبيعي الذي يجري به الحديث بيننا .

ولم أملك إلا أن اتعامل بما سمعته من حديثه وحصلت قوله محيل المجلبة ورددت عليه قلقة في لهجة مزاج :

— ليك ثقت لشيء الفضل .

ولم يستطيع مزاحي أن يغير أسلوبه في الحديث .

بل لقد ساقه من حيث لا أمتد إلى الأمان فيه .

قال في لهجة حاققة وكأنه يحدث نفسه :

— أفضلك ؟ لا أظن .

لم أفرق بينا أحيب .. خشيت أن أسهر في المزاح فلسوفه إلى حيث لا أمتد .. وألمست أنها المرة الأولى أن أواجه موقفا كهذا .

وولر هو علي " بقشة التكبير في الرد .. وسرعان ما أرفف بقول تنفس لهجته الخافتة الرقيقة التي حيلها كل ما يملك من مشاعر

مخالصة :

— لست أدري من أين أبدا حينئذى .. بل لا أدري أين كان مجرد البدء به يعتبر ذنباً .

وصيت برهة وكنته ينتظر أن تكون شيئاً ، ولكن حينئذى ازدادت وتنبهت أن تحضر « سلمى » متتقنى من ذلك الحرج ومن الاستمرار من الاستطاع إلى ما لا أعرف كيف يجب عليه .

ولكن « رينس » كل ما يبدو قد أصر على أن ينتهز فرصة وجودها على حدة ، وأن يلقى إلى « بطل ما فى نفسه » لمواصل حينئذى ذللاً :

— لقد حاولت إلا أقدم على هذا الذنب .. حاولت أن أحمل سلمى منى وذرى .. ولكننا فلتصت منه .. وأصررت على أن أحمل منه وحدى .

وأحسست أن على أن أقول شيئاً .. أريحه به .. وأرضى من حدة ذلك التوتر الذى شد أعصابه وهو يتحدث إلى ..

قلت له بهدوء ويبدو ما استطعت من رقة :

— لقد كنا دائماً أخوة .. لم يكن بيننا قط حجاب ولا كلفة .. قل كل ما تريد .

وعاد يفرق وهو على حيرة ..

وخيل لى أن محاولتى لنك عقد لسته .. قد زاحته تمتعياً .

وبعد برهة صبت رجع إلى رأسه قائلاً :

— لست أدري كيف يتحدث الناس فى مثل هذه الأمور .

— أية أمور ؟

— الأمور التى تتعلق بها مصائرهم .. التى تحدد لهم الطريق من آخر العمر .

ولجنته ببساطة دون أن يحاول تجاهل قصده :

— لم أصر بالندرجية بعد ، ولكن يبدو لى أنهم يتحدثون فيها بمرارة ووشوح .. يقولون ما يريدون .

— أخشى أن يكون القول الصريح الواضح .. عبثاً مجروحاً ؟

— إذا كان لابد من قوله .. فقله واتته .

— عنديا يحس الإنسان أن إنساناً آخر يمكن أن يصلح وحده لمرط مصيره به .. ماذا يكون موقفه منه ؟

ودون أن أدري أتجه تفكيرى إليك .

تركزت الرجل الرقيق الحائر لا يعرف كيف يسوق إلى رففته الحارة دون أن تبدو ثقيلاً ولا بحوجة ، وصيت إليك .. بمجرد إشارة إلى الإتسالي الذى يصلح وحده لمرط مصيرنا به .

ولم يكن الوقت .. وقت شرود .. فقد كان هناك استلهم ينتظر الجواب .

ماذا يكون موقفنا منه ؟ !

وعاد « رينس » يسأل وقد أحس بى الشرود :

— لنتركه يمر بنا بر الكرام ؟

وبغير تفكير ، وبذهن حلق بك أجبت :

— طبعاً لا .

— ليس من حقنا على أنفسنا ، أن نتنبه لمصلحتنا له ؟

— أعتقد هذا .

— دون أن ننتهم بالمحبة أو السامجة ؟

وعندت تمتع إلى به .. وأحسست أن على أن ألوحه رتودى بشئ من الحذر .. ماعتباره هو موضوع الحديث ، لا ذلك الذى يجمع الذعر وراءه ، والذى هو التت ..

لجنته بقوة من العطر :

— لا نلظتنا نتم بالمحبة والسامجة .. إلا إذا ارتكباها عملاً .

— هل عرض أحاسيسنا حياة وسامجة ؟

— (المبادأة بعرضها دون الوثوق من التجارب معها حساسة .. والإلحاح لهما .. مع الوثوق بمعهم التجارب معها ، هو السامجة .

وابتسم « رينس » وعاد يتسأل :

— ألا تفتخر الجميلة .. إذا ارتكبت مرة من أجل تقرير المصير ؟

وردت إبتسامة بأشبه أرق ، وثقت له في لهجة ملوها
التسلح :

— قلت لك .. ليس ببلنا حجاب ولا كلفة .. قل كل ما تريد ..
فسبكون لك في قلبي دأئنا منزلة الأخ .

وأحسست أنه قد تخلص من قيد الكلفة .. وأنى استطعت أن أزيل
عنه نور الأعصاب الذي بدأ به حديثه ، فقد قال ضاحكا :

— كنت أود أن أكون في منزلة .. غير منزلة الأخ .

وصيت برهة ثم عاد يسترسل في سهولة ويسر :

— لقد أحسست أنك وحدك أصلح الناس .. لكي يربط المرء
بصيره بك .. أشياء كثيرة ملأني بذلك الإحساس .. ليست عاطفة
هواه .. ولا انفعالا ملأ .. بل إحساسا هائلا نكحني في تفكير بترن ..
ونابعا من معرفة وثيقة ومشرقة طويلة .. وتبينت لو استطعت أن انتقل
إليك إحساسى ، ولكن نوع الصلة بيننا ، والتي قلت أنت عليها إنها
تنزل كل منا منزلة الأخ من أخيه .. تجعل الأمر أياى شمه مستحيل ..
أو كما قلت لك في أول حديثي ، «خنيا لا يفتقر» .

وأطرق «ريانى» برهة ثم عاد يسترسل قائلا :

— ولكننى أحسست أن المرء لا يملك سوى حياة واحدة ، وأن
الفرصة الصالحة لتقرير المسير فيها لا تتكرر كثيرا ، وأن ذنب إغفالها
أكبر تقلا من ذنب الإقدام عليها والإخفاق في تبليها .. وعرفت على
الأ أنرك فرصتى في الحياة ضييع .. وأن أعمل شيئا من أجل محاولة
تحقيقها .. وقلت لىلى باعتبارها أقرب الناس إليك وإلى ..

وعاد إلى الصمت مرة أخرى . فثلث استحثه على إكمال حديثه :

— وبدا قالت لك ؟

— فوجدت .. ثم قالت إنها تحس أنك لا تفكرين الآن في مثل
هذه الأمور ، وكنت أشعر أنها أقدر الناس على أن تنقل إليك بشاعرى ..
فعدت ألح عليها قائلا .. إنها إذا كانت لا تفكر في أحدا لن يدعها إلى

هذا التفكير ، ولكنها أمرت على أنها لا تستطيع أن تتدخل في مثل هذه
الأمر الشائكة .. فلما ينست منها .. عرفت على أن أقدم على الذنب
.. وأهدل وزير تلىسى ..

وكلمت ضاحكة :

— وترتكب الحفلة ؟ !

وأجاب في شيء من الخذلان :

— أهى حفلة ؟ !

وأحسست بهرج شعبد .. ولم أفرط بماذا أجبها .

وعاد يقول في شبه اعتذار :

— إذا كنت قد ارتكبت حفلة .. فلذلك لك أتى أن أحولها إلى
سلسلة .

وأحسست بشيء يثقل كاهلى ، ويملؤنى بالشوق والنغم والأسى ..
وليس أبض إلى نفسى من أن تخذل إنسانا دون أن تجد وسيلة لإنصائه
.. إلا بالمدارة والكذب .

ولم أكن أحس بقدرة على الإقدام عليها .. أو فعل عواقبها ..
فلذت بالصمت .

ولكننى أحسست أن الصمت .. غباء .. وسفالة ، وأن على من
أقول شيئا .. أى شيء .. يمكن أن يجعل إليه شيئا من الراحة ..
ويرفع عنه الإحساس بالهرج والشعور بالظن .

ولكن كل على .. أن أقول شيئا .. حقيقيا .. غير مدعى .. شيئا
أحس به فعلا .

ولقد كنت أحس بالشوق من أجل خذلانه .

وكنت أشعر أيضا أنه ينحنى بعديته إحساسا آخر .. غير هذا
الشوق والأسى .

إحساسا طيبا .. بى .. وبه .

لجبل أن يجد الإنسان إنساناً يحبه .

حتى هؤلاء الذين لا نملك أن نعالجهم حبا بحب .. يملؤنا إحساننا بهم .. شعورا بالقبلة .. والثقة .. ولم يكن هناك إنسان في حاجة إلى الثقة .. في هذه الناحية .. أكثر مني .

كنت لا أهتم كلياً بالإعجاب .. من الأكارب والأصحاء .. ولكن الإحساس الجاد .. الذي يلا الإنسان ثقة بنفسه .. لم يمنحه لي أحد من قبل .. سواك وسواء .

ولقد كنت منك — رغم ارتباط أحسبنا — في شك من أسمى .. لم أعرف أبى يمكن أن يكون موقفى منك ، لو من أى إنسان في الحياة . وكنت أسأل نفسي :

« أيمكن أن تغفلوا إلى "خطوات جادة" ؟ »

وفي أوقات الشيق واليأس ، يصبح السؤال :

أيمكن أن يغفلوا إلى "أى إنسان في الحياة خطوات جادة" ؟

إن « حسان » لم يغفلها .

ولم أشعر قط بشيء من الحيق .. لاني لم أكن تط في حاجته إلى خطوته تلك .

ولم أكن في حاجة إلى حق في الحياة .. كنت أحس بمعجى عن الوصول إليه .

فلما لوحث لي به ، وانضأت لي الطريق إليه .. وجدت نفسي في حاجة إلى الإحساس بالثقة في نفسي من أجل الوصول إليه .

ومنحنى أنت بعض الثقة .

ثقة استمدتها من الروابط الخفية التي تشد أحفنا إلى الآخر .

ولكنى كنت في حاجة إلى مزيد من الثقة .

ثقة مذاتى .

ثقة مقدرتى على أن أكون وحدى .. أمنية يقرر بها إنسان آخر بصيره .

ولقد بمعنى ذلك المخلوق الذى خلقته .. هذه الثقة .

بمعنى « ريلس » ثقة في نفسي .. لكن اسمى إليك .. لنشك طريقنا بها .

عجيب هذا الإنسان !!

كعب ملاءى عرشفه الجاد لأحاسيسه ورغبته في أن اشركه المصير .. ثقة في قدرتى على أن اشرك إنساناً ما مصيره ، والا يكون هذا إنسان أحدا سواك ؟
أجل !

في نفس الوقت الذى أحسنت فيه بالثقة في نفسي .. أحسنت بك وحدك الأهل لهذه الثقة .

أنت وحدك الذى يمكن أن استغل من أجله هذه القدرة على مشاركة إنسان حياته ، والارتباط بمصيره .

وفي نفس اللحظة التى أحسنت فيها بالفرحة لأن إنساناً يسعى إلى .. لينشد صحبى .. في حياته .

أحسنت بكنى لا أستطيع أن أقبل إلا صحبكت أنت .. في حياتى .

وفي الثواني التى دار فيها كل هذا براسى .. كان الرجل الرقيق الذى خلقته ينتظر كلمة من شفتى .

وقلت له في إخلاص وحرارة :

— إذا كنت قد ارتكبت حماقة ، فقد أحببت حياتك وإذا كان القدر قد أبى أن يمنحني القدرة على التعلوب بح شاعرك ، فقد بمنحني القدرة على أن أهبك وأتدرك كل شيء فيك ، حتى مشاركتك التى لم أستطيع الاستجابة لها .. لقد أسعدتني بكل ما قلت .

وساد الصمت برهة وسيمته يقول متسائلاً :

— أحقا لم أصليتك ؟

— أبداً .

— ولم أبد في نظرك لحقى !!

— ومن منا ليس الحق ؟

ونظرت إليه وأنا أقرب رأسه المتكس في حزن .. وثقت له في حزن :

— أكره أن أخذلك .

وهز رأسه بخفة وقال في صوت خافت :

— لا تستطيع أن تغفلني .. سبتين دائما في نفسي كما أنت .. نزلنا لأجل ما يمكن أن نصادفه في حياتنا .

وسبت برهة ثم أرفف :

— عندما لا نستطيع أن نحصل على الأكل الطيبة — لنحى لا نخلل

فيها — وإني نخلل من قدرتنا على الحصول عليها .

— حتى هذه لا أود أن نخلل فيها .. إني أتمنى أن يوفقك الله ..

إن تستحق كل ما بك من عنصر طيبة .

واقبلت « سلى » أكيرا تحمل صينية الشاي .

ولم اكتشف طول غيبتها حتى أنت ، وخيل إلى أنها إذا كانت قد

رفضت أن تتلون أحاديثي فلعل مشاعره إلى ، لقد عاينته في محله

الفرصة لإبداء هذه المشاعر .

ووضعت الصينية على المائدة ونظرت إلى أخيها ، وقد أشرق ..

ثم نظرت إلى وقد استغرقت في شرودي .. وسألت ضاحكة :

— خير .. مالك .. كنتكيا في محزى ؟

وقال « ريان » متضامكا :

— بالنسبة إلى .. لقد شعيت أملا .

ورجعت في لهجة ملائمة قدر ما استطعت من تهازل :

— لم تشع أملا .. وإني اختلفت به لصاحبه .

ورد ريان :

— سأحتفظ به طويلا .

وقالت « سلى » محاولة أن تحول الحديث إلى محزى ضاحك :

— خسمه في الترحيب .. حتى تجده صاحبه صالحا .

وقبل أن يهيب أحد منا حق جرس الباب .

ونفس « ريان » ليفتح .

ومد برهة أقبلت « مرة » وراءه ، وقد بدا عليها التجهم ، والثقت

بخطيئتها جانبها وهي تقول في ضيق :

— جزاء سملار .

ولم يدهم أحد ماذا تعنى .. وسألا « ريان » في دهشة :

— لمن ؟

— لما .

— أتم من ؟

— الذين صنعنا الوحدة ؟

وضحك « ريان » قاتلا :

— نأى ! وهذا الشعب كله .. لم يفعل شيئا .. التيار الجارف

الذي حرف الحوائل والسجود ، وعرض الوحدة عرضا .. لا تمتصونه

شيئا ؟

— أنت لا تعرف شيئا .

— ليكن .. أنت تعرفين كل شيء .. وأنا لا أعرف شيئا .

وسبت « ريان » برهة ثم عاد يتسائل :

— كيف أخذتم جزاء « سملار » ؟

وردت « مرة » :

— ترك وزاراونا الحكم .

ورد « ريان » في شجاعة :

— طرقت .

— بل استقلنا .. نحن أصحاب كرامة .

وهز « ريان » رأسه وأجاب سائلا :

— الحمد لله الذي أزال كابوس سيطرتكم من فوق كاهل البلد ..

اخيرا ان للناس ان يخلصوا من استئثاركم بالسلطان ، وفرض نفوتكم ،
وشر اتباعكم في اجرة الحكم على حسب الآخرين .. الشعب صانع
للوحدة لابد ان يفتح تكافؤ الفرص في كل مجال .

وقالت « مزة » في ضيق :

— سنرى ماذا ستفعلون بثوننا .

وقبل ان يرد أحد سمعنا صوت مربة تقف بالباب ، ثم دق جرس
الباب وسمعت صوت المساق يقول :

— الست الكبيرة تريد الست مسير .

وهبطت إلى والدتي متجهين إلى بيتكم .

مَسَّة ضَوْء

وصلنا إلى بيتكم لنجد أمك ونادية وحسان في انتظارنا .

واقبلت عليّ أمك تضيئ إليها في شوق وترحيب قللة بلهجة
الزينة الطيبة .

— أهلا وسهلا .. بعت اللبس .

ونظرت إلى « أمي » وأردفت تقول في لهجة ملؤها الإعجاب :

— لم تعد لي أبنية .. أكثر من ان يوفق الله « حدي » إلى زوجة

كسبير .

قلنا في حرارة وإخلاص وبسلاطة

وتوالت التطيقت الضاحكة .

قالت « نادية » وهي تضيئ إليها :

— يكون قد رأى ليلة إلهدر .

وقالت أمي :

— حدي يستحق كل خير .. إني أحس دائما بكمه اني .. ولست

أعطني اطبع لمسير في زوج خيرا بكمه .

وقال حسان مقهقها :

— انتهينا .. لنجعلها صفقة واحدة .. سنأخذ « نادية » ونعطيك

« مسير » . هذه خير وسيلة لتحقيق الوحدة عمليا .

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

وكان علىّ أن أقول شيئاً وسط هذه الروبة المفاجئة من التعليقات السلطكة .

ولقد كنت دائماً أكره المزاح في هذا الموضوع .. وكنت أصيق بحديث « خافني » من مشروع زواجي .

ولكني .. لأول مرة .. لم أحس بشيء .

قد يكون أصابني بعض الخجل والاضطراب .. وأنا أناجياً بأبك تطرق الموضوع بثل هذه البساطة والسهولة .

ولكن الخجل والاضطراب لم يسعاً ذلك الإحساس المتع الذي أهد يشرب إلى نفسي ، وأنا أجد الثقة التي منحها لي « رياض » وهو بسيط لي مشاعره ، ليؤكد بها أنني أهل لأن يسعني إلى « إنسان ليرد بصيرة » .. أحد هذه الثقة تتأكد من اقرب الناس إليك ، وأقدرهم .. بمدك .. على منحني الإحساس بها .

وحلق بي حديثهم البسيط المازح في سماء الوهم ليضعني بحوارك ، ويحقق لي أجمل أماني .

ولم أكني إحساس الطفل .. تحدثه وتصرح به .. عما ستذهب به إليه وما ستحضره له ، وهو ينصت إليك في متعة ويستريذك في لفة . وتنبئت أن يطول الحديث ، وصيحت أن أقول لهم ما يقوله الطفل وأنت تصرح به « وإيه كان » ؟

ولكن العقل .. كان يحتم على أن أقول .. ما يجب أن يقال ، لا ما أود أن أقول .

ونظرت إلى « أبك » ورئت ذراعها في حنن ، فقلتها في شيء من الخجل :

— لا أفهمني استحق كل هذا ؟

ثم وجهت الحديث إلى « حسن » بأثرة :

— إنني على استعداد للمساهمة في تحقيق الوحدة .. على استعداد للمساهمة في تحقيق أي مصلحة عامة .. ولكن ليس على حساب مصلحة حدي الخاصة .

وأردت أقول معقبة :

— ما فئت حدي ، تبثيه بالزواج .

وردت « بك » الطيبة تتول لي لهجة جادة :

— الزواج نعمة ، وسفر .

وردت يديها إلى السماء داعية :

— ربنا يوفقه إلى بنت الحلال .

ونظر إلى « حسن » ضاحكاً وهو يقول :

— أنتمينا .. ببروك يا سهر .. ليس بيننا بنت حلال خالصة

سواك .. ألف ببروك .

وواصلنا الضحك والحديث .

وإحساس بالسعادة يهرني ، وكال رنلت الضحك نواقيس يتردد صداها في طريقي الطويل الذي بدأ لي بالأمس معنياً ، شتت الملمح ، غلبت الملامح .. فاشترقت جوانبه ، وتفتحت براميسه ، وأخضرت أوراقه ، وأحشوت أرضه ، وصاح الطير في أفصائه .

ونحن نعلم .. عندما نحاول أن نسر السعادة .

وهو شيء يهدو إلى الحيرة حقاً .

للسعادة .. كما حدثنا في حديثي القصيرة .. تحس .. ولا تتمر .. وهي مسة تقوى بالظن .. لتعكس ضوءه على كل ما حوله ، لغيبه

بأهرا ، مشرقاً .

لا تعرف موضع المس في بالظن ؟ ولا ماذا مسة .

شيء أشبه بفتاح مصباح في حجرة مظلمة .. مجهول الموضع ، تخطه الأيدي في الظلمة ، إلا يدا واحدة ، تلمس نجاة ، فإذا كل شيء مشرق .

ويجس مرة أخرى ، فإذا بكل شيء قد أعظم .

لا تعرف أين هو ، ولا من يمسّه ، ولا متى .

وتبقى المجرة .. تدسنا المسكينة .. تطهل إلى مسة الإشراف ، وتغشى مسة الإظلام ، حتى يظلم عليها الظلام الأبدى .

أو من يدري .. ربما .. الإشراف الأبدى .

لا تنطق بسطوري عن هذه النفس .

لما هيرني في هذا الكون .. شيء سواها .

كلما ظننتني عرينها .. اكتشفت لها أعمقا أبعد وأعوارا اسحق .

وتشعب بنا الحديث في جلستنا .

انتهينا من مرحلة « أليك » التي اشعلت الضوء في نفسي ، واخذت

« أمي » تتحدث من الجهار ، والزيمة ، والفستين ، ومن الإعداد للترح

في القهيمس التلثم .

وتناول « حسي » حيط الحديث .. لبقته إلى استقالة الوراء .

وهز « حسان » رأسه لسفا ، وهو يحتم حديثه الذي لم استطع

ننسمه قللا :

— كان لابد أن يحدث هذا ، فالمسألة هي .. هل يدوب البحث في

للشعب ، أو يدوب الشعب في البحث .. المخروشي أن يدوب البحث

في وحدة الشعب .. لا أن يتنص وزرأه التفوذ ، ويفرغوا الاتباع

ليملأوه من الشعب .

ولم يبد أن أحدا يتتبع كلامه سوى « نادية » .

فقد كانت أليك أشد اهتماما بالأنشطة ، والجهاز .

وكتت أنا ما رلت أطق على إحضار الوهم الذي رمتني إليه دعوة

« أليك » مالي يونفك الله إلى زوجة مثلي .

وأنا — أكلو — لولا الخياء .. أن أدعو الله أن يقتل دعواها .

ولم أسمع من حديث « حسان » .. سوى جملته الأخيرة ، ورجحت

أنظر إليه ، ككأي اتنع قوله .

وردت « نادية » خائلة في صيقت وأسي :

— على أية حال ، ومهما كان الدافع إلى الاستقالة .. فهو شيء

يدعو إلى الأسف .

وأجاب حسان :

— لقد تركت بين الناس إحساسا بالرفض .

— أيت لا تستطيع أبدا أن تعرف أحاسيس الناس .. كل الناس .

— ولكنني استطعت أن أعرف معظم الناس .

— حتى هذا لا تستطيع أن تمرره بمجرد سماع وجهك التطسر

المحطة بك .

— لقد كانت هناك حالة سقط من تصرفاتهم .

— جازر ، وجازر أيضا أن حروجهم ، أرغى الإحساس العلم ، ولكن

المؤكد أيضا ، أنه أشك مصرا جديدا من عناصر السخط إلى جانب

العناصر الموجودة .. لقد بات على الوحدة ، أن تواجه مسخهم إلى

جانب سخط الشيوعيين وبشدة الأحزاب المنحلة من الرجعيين وغيرهم ..

سند كل هؤلاء عملاء الاستعمار المخططون بنا ، والفين اعتبروا الوحدة

علما يستحقون عنه المزاء .

ورد « حسان » في إيمان :

— هذه الأقلية السافضة يتأهلها رضاء الشعب كله .

ولحامت نادية :

— ملك حق ، ولكن السخط أشد فدعا للعمل من الرضاء .. يجب

أن نسلم الأغلبية الراضية ليكون لهم القدرة على مقاومة شر الأقلية

السافضة .

وهز « حسان » رأسه وقال موافقا :

— أشياء كهذه يجب أن تحمل لصيانة هذه الوحدة .. ومنع موسم

الساحطين من أن يتحر فيها .. إن أسوأ ما في الأمر ، أن الغير يحتاج

إلى وقت ليصل إلى الناس .. أما الشر غارقه واقع على النفس في

النو .. لنندع الله أن يمح من بسهم الشر الصبر عليه ، ومن ينتظرون

الخير الصبر حتى يصل الخير إليهم .

وانتهت الزيارة ليلظافه .

وعنت بعدها إلى البيت .

وأنا أصر أني مقبلة على شيء جميل .

المسة التي بعثت الضوء في بلطنى .. جعلت الحياة من حولي ..
 تفريدة متواصلة .
 لتيت « أبى » في البيت يقرأ أيام العذبة .
 نابت عليه أمتعته واجلس على سقته ، وأقبله ، واتسبح فيه
 كما تتمسح الهرة في صاحبها .
 وأهس هو أتى مسجدة ففسنى إليه وسألنى :
 — كيف حالك ؟
 وأجبته ببساطة :
 — كل شيء جميل .. فرح « حسن » يوم الخميس القادم .
 ومن أجل هذا تتسحرين بالمسادة ؟
 — انراح الناس تسعدنى كثيرا .
 — أنت طيبة .. ولطيفة .
 — كل أب يظن ابنه كذلك .
 — هذا رأى كل الناس نيك .. وإذا كنت تسعدين انراح الناس ،
 فسيسعد الناس انراحك كثيرا .
 — فتراحي أنا ؟
 — ولیم لا ؟
 — اتوق إلى مغارقتي ؟
 — بل اتوق إلى صغارك .
 ابتعدت منه قليلا وقلت له ضاحكة :
 — يا هذا ؟ تعلمين كتنى بقرة .
 — ألا تريدین أبناء ؟
 — طبعاً لا .. إني لا أريد أن أجعلك جدا .. أريد أن أحافظ على
 شبابك .
 — دمك منى .. ألا تريدین الزواج ؟
 — عدت أنتظر في عينيها محاولة أن استشف ما يريد من قوله ، ثم
 أضعت كادمة :

— لم أنكر بعد .
 — ألم يلح لك الزواج الملام .
 — مرة أخرى عدت أكتب حقللة :
 — جاش .
 — ولم أكن أجسر أن أقول له غير ذلك .
 — وعاد « أبى » يسأل وأنا ما رأيت على سقته :
 — أظني أن أعرف كيف يمكن أن يكون الشخص الذي يعجبك ،
 والذي يدفعك إلى التفكير في الزواج .
 وأجبته ضاحكة :
 — وإذا قلت لك عنه .. ولم يكن على استعداد لرواحي ؟
 — ورد « أبى » مخفها :
 — أجرة لك من أظنه . وأرغمه على الزواج بك .
 — وتصورت « أبى » بجرى من أننيك ، ويسوفك أياه ، للزواج مني .
 وضحك .. وظن « أبى » بالطبع أنني أضحك على قوله .
 وقبلته وأنا تنهض عن ساقه حقللة .
 — لا دامى للعتف .. لتركه حتى يقبل راضيا .
 وبشي الأسبوع وأنا أعيش في مسادة مطلقا .
 مسيدة بانتظار لثائك .. مسيدة باوهلى التي خلقتها « أمك »
 مدعوتها التي تربت المسافة بيما وجعلتنا سيرا في طريق الحياة متشابكي
 اليدين ، متلاصقي الكتفين .
 مسيدة بجو الحرس الذي يحيط بي ويلونني تداولا .
 مسيدة بمسادة الناس من حولي .
 مسيدة .. وأعدت المسادة .. حتى لم أعد أنكر .. لئلا كل
 هذه المسادة ؟
 لم أعد أنكر أن المسة التي ألت الضوء في حياتي .. يمكن أن
 تعطينا مسة إنظام .
 بل يدا لي أن الضوء ، هو الأصل في حياتي .

بل في حياة الناس كلهم .

لم أجد أحسن بطنم الشتاء في الحياة .

ولا أتصور أنه شيء له وجود .

واقبل يوم الخميس ، وكنت أنا التي سأزف .

لم أذهب إلى الكنيسة ، وذهبت منذ الصباح إلى بيت « خالتي »

وقد جلست معي ثوب السهرة الطويل .. الذي أمضته الليلة .

وكان البيت يصفب بالمحركة ■

متناهد تصد ، ومقاعد ترمض ، وثريات تعلق .

والبيت جميل رطب ، ونوافذه وأبوابه الزجاجية العريضة تعرض صبح

شتاء جميل .. تلافى شمس الكون بكاشتها المظلة من وراء السحب

المختارة ، وكأنتا طعيب « استقبالية » .. تظهر ثلثة وتختفي ثلثة .

زرقعة النساء جميلة ، ويبلسي المسحب جميل ، ولشعة الشمس ،

ظاهرة جميلة ، ومختفية جميلة .

وصوت الحرير الذي يسمع من المجري المتدفق بجوار النور ..

جميل .

حتى الشجر الذي تجردت أوراقه ، ويعدت لمروحه العازية بتشبكة

.. بدأ يومها جيلا .

أكان كل شيء .. جيلا حقا ؟

لم هي بسة الإثرائي .. تبعث الضوء يسبح من نفوسنا لغيرتنا

مهورين من كل ما حولنا ؟

وصعدت إلى الدور العلوي ، ولتبتسني « خالتي » وزوجها

بالمحبيب .

وسألتني « خالتي » وهي تفسني إلى صدرها :

— أين ملأ ؟

— أنزلتني هنا وذهبت إلى السوق .

— لماذا لم تغبرني ؟ .. كنت أريد أن تشتري لي بعض أشياء .

وصيتت برهة ثم قالت :

— سأسطر إلى النزول للحق بها .

وقال زوجها :

— سأزول بك .

ووجدت نفسي سبلي وسط مصبغة الإعداد للمرح وحيدة فتسالمت :

— أين حسن ؟

— هرج مبركا .

— إذن أذهب أنا معكما .

— بل انهي حتى أحضر .. إلى أن ألتف .. ستحضر القبيلة بعد

قليل ، فدعينا ننتظر .

وذهبت « خالتي » لتطبخ بأبي .

وصعدت إلى الطابق السفلي لأجول خلال القاعات التي جرت فيها

الاستعدادات على قدم وساق .

وعندما شئت بالفضجيج مسحت إلى أعلى مرة أخرى ، وانخفضت

بمعدى في الشرفة الزجاجية أرتقب الطريق .

وألمس متعنى الطيبعية .

أفكر .. فأك ..

سأنتي .. الليلة .. ما في ذلك شك .

كل يجب أن تأتي بالأمس .

لم لا .. بعد كل هذا التنبؤ وفي هذه المناسبة السعيدة ..

ألا تستحق أن تأخذ لنفسك إجازة لبسمة أيام تنفسيها بيتنا ؟

لدينا ثلثاء كثيرة نقولها ، ونفعلها .

سأبرد لك بالتمصيل كل ما دار بنفسي خلال غيبك .

سأذكر لك ما سأورني من شكوك وريغ ، وما أصابني من أجزان .

سأخبرك عليك كل ما قال لي « ريفس » .. وما تفننه « أليك » .

سأحدثك عن سماعاتي .

سأقول لك أشياء كثيرة .. كثيرة .

وستفرج سويها . ستذهب إلى الحبس المحضراء .. وتبع بردي ..
ويلودان .

سنرى الجليد الذي تحبه .. وسنفسر سويها .
مرة متنا .. لاسمك .. يا جارة الوادي .. وإسهار ، وبرة عندكم
من أجل والفتك الطيبة .
ومرة في الواحة .

وستنفذ سويها ... في مطعم الشيوخ .
وماذا أيضا ؟ !

وستقول لي أنت أشياء كثيرة .. كيف لمحيث هذه المدة الطويلة
بعدها عني .. أعرفت أنني زرت الثرية الجديدة ؟ . انضاليت مدينا
عرفت أنني أتيت إلى الجمعة فون إن تراني ؟
وماذا ستقول أيضا ؟ !

استقول لي تلك الأشياء الجميلة التي تقولها وانت تنظر إلى ميسي
منظرك المحببة ؟ !

سأقول لك ما قاله لي من الراج الذي يعجبني ، وكيف بجره من
التيه .. وإذا لم يرض بالرواج بي

هل أجسر أن أقول أنني تصورك ، وأبي يجرك من الفتيك ،
لا أظن .

إن أجسر .. على أن أقول أنني لا أصور أن يكون روجي .. أحد
سواك .

لي أجسر .. لي أحسر .

قد تقول أنت .. أيا أنا .. على أقول .

سأرتدي الثوب الحديد الطويل .. الأزرق بلون النساء .
لقد بدت فيه جميلة وأنا أجريه عند الضيافة .

وأنا أعرف أنك تحب اللون الأزرق .

أعرف أشياء كثيرة منك ، لا أعرف أنت أنني أعرفها .

ستحب فلسطين ولا شك .

إنه يسر مسلي .. يديني كغداة سليمة ، وسأحاول أن أسير
كأنني سليمة الساق .

تري كيف تنظر إلى مسلي ؟

كيف تشمر بها ؟

أنتسقي بها ؟ أنتسقي عليها ؟

وتملكني إحساس بلخفيق .. وأنا أفكر فيها .

وتفكرت جرح لي وأبي .. ولهنهما على شفتي وتذكرت لنفسي
والعملية الجراحية ، وفشلها .

وأحسست بأنهم لأنني رفضت التجربة الثانية ..

ولكن سرعان ما نفضت كل هذا من ذهني .

لماذا أمكر صغو يوسي ، وأحاول أن ألقى ظلا ثقيلا على طريقي
المشرق ؟

ونهبست في حيلسة .. لأجرب الثوب .

ودخلت حجرة خلقي .. ونزعت عني الثوب البسيط الذي ارتديه ،
وارتديت الثوب الطويل الأزرق .

ووقفت أمام المرآة .. ورفضت رأيي .

جميلة .. ما لي ذلك شك ؟

سألك بيدا الشكل .. بله نفسى اللثة .. بك .. وينمسي ؟
وبالحياة كلها .

وفتح باب الغرفة .

وأبصرت خلقي لقد بالباب وقد رفضت حاجبهما في دهشة ،
وأبصرت ثالثة :

— ما كل هذا ؟ ! يدين كلاميرات .

وأحسست بالخليل وأنا أضبط بظفسي بالاختيال أمام المرآة .

وقلت لأخائي متطعنة :

— كنت .. كنت أجرب فلسطين .

— حيل جدا .. لم اكى لثقتك بمثل هذا القدر من الجبال .

وردت خالتي :

ولمأسنى قولها ببساطة شديدة ، ولنا الفيل انتمكلى شكلى نى
مهلك ، ومدى ما يمكن ان يبعث من إعجابك بى .

ولجيت لنا ولنا اهم ينزع الثوب :

— لا تهلئنى بالغرور يا خالتي .

وعزت خالتي رأسها نى أسف قتلة :

— كان يجب لى تكونى عروس اليوم ، ولكن ليس لنا نصيب .

ولم اعرف كيف أجيب .. كتبت نيبا مخرى أريج نفسى وأقول نى

حزم لى لى أتزوج ، وكنت صادقة لى قولى .. فما أحسست تظ
بلن مثل هذا الأمر يمكن ان يكون موضع تفكيرى .

ولكنى أحسست انى تكون مبالغة لو أجبت بمثل هذا الرد ، فقد

أصبح التفكير نى هذا الموضوع — مقترنا بك — لبرا بهتلا ، وجعزا ..
بل ومستعبا .

ولم تعد المسألة كما كتبت من قبل .. استبعدا مطلقا لوتوجه مع
غيرك .

وكلى من المستحيل ان اعبر بمراحة عن تفكيرى فاكنتيت بأن احبيب
إجابة تقليدية مجازية قاتلة :

— كل شيء نمة ونصيب يا خالتي .

وتركت خالتي الحرة وهى تتلوه يصيح كلمات تعبر عن استسلامها
للواقع ، ورضائها بالمسوم .

وهرفنا قولمة الاستعدادات والاستقالات .. تلبينوات ندى .

واقدام تصعد .. واقدام تنزل .. وعريات تنقب بالباب .. ولواق نرقع
.. وحسان يروح ويعود ، وعلى وجهه الطبيب عذبات الاهتمام .

وحان موعد العداء متناولناه بسرعة .. وعدنا ثانية إلى الدولة ..

واقبل أبى بعد العداء مباشرة والنتى بحسان هايطا الدرج فامسك بيده
وتال مازحا :

— أهلا مسيح النريمة .. شد حيك .

وصحك حسل واجب :

— ملنى الله .. عقل سهر يا ملى .

وسأله لى وهو يجده متدلعا إلى الخارج :

— إلى أين ؟

— سلاذهب إلى ناحية نعى تريد ان تنصى بعض المشاوير نى البلد .

— العروس لا يجب ان تصل اليوم .

— ليس نى هذا الجبل يا ملى .. لقد التت امس بحاضر اتها كلبلة .
وصحك لى :

— رحم الله ايام زمن .. كتبت ايام مر للتساء .

ولجلب حسلن وهو يندفع إلى الخارج :

— زمن المساواة .

ورد أبى وهو يكمل صعود الدرج :

— على رايك .. ليا المساواة .. او البهفدة .

وقلت لأبى ضاحكة :

— انتقصى مهد البهفدة يا أبى .

— إى والله يحك حق .. انتقصى إلى غير رجعة .

وكنت أعرف إلى ماذا يشير .. فلنا اعرف لهجته الساخرة ..

وكنت أحس برغم كل ما يقوله من الرضاء بالقوانين ان بتليا برارة ترسب
فى بطنه .. تظهر على طرف لسانه .. فى كلمات سلفرة .. بين العهن

والحين .. ولكنه برغم تلك المرارة الراسية .. كل — بلفقه الواسع —
يسلم بضرورة ما حصل كتطور حتى لأبد ان يحدث .. وعندما كلى

بماتشه زوج خالتي فى عثم اقتناع كلى يؤكده له :

— لا داعى للمناد .. هذا هو التطور الطبيعى لأسلوب الحياة ..

فلنحب الله على الترقى الذى سار به .. نحن ما لانا بغير .. متبع
مأشياء كثيرة .

واقبل ابي على خالتي بحبيها .. واتخذ مجلسه مع زوجها من حجرته .. بمأذون الحديث .

وددت انا انظر إلى الساعة في تلق .

كانت قد اشترلت على الرابعة .. وهو الموعد المفروض ان تمل فيه .. او على وجه اديق .. الموعد الذي نق فيه الطيفون في آخر ريلة لك .. يحل صوتك إلى .

ولم اعرف إذا كنت قد وصلت ثم لا ..

ولا عرفت كيف اراك إذا كنت قد وصلت ، ونعيت لأبي لم اصطحب هسان إلى داركم .

ودق جرس الطيفون .. غاسرت إليه .

وسمعت صوت ناعية تخيبي وتسل في تلق :

— أين هسان ؟

— لقد ذهب إليكم .

— منذ متى ؟

— بضع دقائق .

— لم يصل حتى الآن .

— لا بد أنه في الطريق إليكم .

ولم تذكر شيئا منك ، وخشيت ان تنزع الساعة وينتهي الحديث دون ان تخبرني شيئا منك . نلت اسألها :

— كيف حالكم ؟

— الحمد لله .

وببساطة استبررت التسل :

— وحدي ؟

— لم يصل بعد .

ودون ان ادري قلت في شوق من الضيق :

— محبة ! !

وردت ناعية ثقلة :

— كان المفروض ان ياتي في الظهيرة .

ولم اعرف لماذا اتول .. وكرهت ان اهرب عن بريد بما لشر به من تلق غلت لها :

— متى ستحضرين ؟

— سأخرج مع هسان لغشاء بعض الحاجات .. ولرجو ان يكون حدي قد وصل عندما اعود .

— وستحضرين سوا ؟

— أجل .

— ووضعت الساعة .

وكال متى ان انتظر فترة اخرى حتى تعود ناعية لتجد حدي .. ثم يحضرون إلينا .

وبشي الوقت بطيئا بيلا .

وشلكني شعور بالقلق .. اتفر إلى الطيفون كلما سمعت رننه .. واصل من الشرفة .. كلما وقفت مرية .. أو علا صوت بوق .

واخيرا .. ضقت بالانتظار لثما .

انفمت الساعة وظللت راتكم .

وبعد برهة سمعت صوت ايك تتسلق في صوت خلفت :

— آلو .

— انا سهير .

— أهلا وسهلا .

ولم احد في صوتها القريب الذي تعودت ان تطلق به .

نمعت اتصال :

— متى ستحضرين ؟

وردت ايك في لهجة خافتة مدت فيها رنة حزن وضيق :

— لا اعرف يا هيبتي .

— ألم تعد نادية بعد ؟

— لا ..

— وحيدى .

— حيدى ؟

ثم أطلقت تهبة واسترسلت تقول :

— لقد حدثونا فى التيلون بأنه إن يحضر .

— وبرومنى ما قالت أبك .. ويذا لى اتى لم اسمعها جيدا ، وعشت

أسأل :

— لى يحضر حيدى ؟

— أجل .

— لماذا ؟

— لا أعرف .. قالوا إنه مشغول .. وطلبوا قلبى بالوسلوس ..

أخشى أن يكون بريفا .

ولم أعرف بماذا أجيب .

كنت فى حالة يأس شديدة .. وتحدثت بضع كلمات أسف .. ثم

وضعت الوسامة .. وتهاوت على المقعد .. وسحابة نعيم على عيني .

إثما المسة .. حصة الإطلام المفاجئة .

قد يست بلطنى .. بعد كل شيء من حولى مغطى مخرقا فى

الحلقة .. مخرقا فى صيت كآته صيت القبور .

مَـذَـلَـة

كثير الطريق من جديد .

الطريق الذى اشترت جوانه واحصرت أوراقه .. وتفتح الزهر

على غصونه .. قد لفه الظلام مرة أخرى .

أية مظلومة كنت وتظالك ؟ !

لم لكن طيبة .

لم لكن .. ولم أزل غير طيبة .

هذه الحساسية المفرطة .. التى تعمل حيلتى وتشرق وتمتم .. لعير

ما سبب من تلك الأسباب الواسعة الحادة التى يمكن أن تحمل حياة

الناس تشرق أو تمتم .

سبب من تلك الأسباب .. الفاصلة للظهر .. موت .. أو إنلاس

.. أو مرض .

مرض ؟ !

ألم أجرب أنا المرض كلصح ما يكون ؟

وبح ذلك لم أشعر أنه قد توقع بى مثل هذا الأسى .. الذى لعيره

نسلك .

كيف تظلمت حيلتى مرة أخرى ؟ !

بماذا غطت بى ؟ !

هروب ؟ .. غيب ؟ .. تجنب لقاء ؟

لم أعرف حتى كيف أسيه ؟

ولكن الذى أمره .. هو أنه تركنى .. محرومة .. بقصة ..
ضائعة .

ولست أدري .. انشؤذ فى نفسى .. ذلك الذى يجعلنى .. أبحث
فى السعادة .. ولحن فى الشقاء .. أعلو إلى الذروة وأهبط إلى
الفضيوس .. لغير ما سبب .. — مكافئت — واضح جداً .
لم أننا كنا .. هذه النفس !!

النفس التى كنت لك عنها .. نفسيها بسمة .. لا تعرف منى ..
ولا كيف .. وتحتها بسمة .. لا تعرف أين .. ولا من أين .
لقد أسلبنى رد أنك الحزين بفذلان شديد .. أشد كثيراً ..
مما يمكن أن يتصور الإنسان .

لم تكن المسألة .. حراماً من لقاء .. أو شوقاً إليك لم تطغى
غلته .. كانت أعمق من ذلك كثيراً .

كانت سقوطاً إلى هاوية اليأس .. جفنى إليها .. الدهر الذى
انطلق بهلج ويغمر .. ويسوق النتائج .

كان أول أثر لرد أنك .. هو الإحساس المباشر بأنى فقدت بمتعة
كبيرة كنت أطلب عليها .. متعة لذلك .. والتحديث بمك .. بمتعة
الطفل تؤمله بنزحة أو هدية .. وبروح يومه يعد نفسه لاستقبالها ..
لم تعلمه فجأة بالحرمان منها ..

وهو إحساس .. على مرارته .. يمكن الصبر عليه والتمزى عنه
.. بمتعة أو بأخرى .

ولكن الذهن انطلق بى .. يجرنى إلى هاوية سحيقة .. من التأويلات
والتفسيرات .. التى انتهت بى — ليس إلى اليأس منك — بل من حياتى
كلها .

لقد شعرت مرة بالفذلان ، لك لم تكرر زيارتك ، مرة لانى لم
ألك فى زيارتى للجنة ، واستطعت بعد ذلك أن أتمسك لك الأمدار ،
وأن أهبز هوة اليأس .. أنطلق فى ميدان الآمال ، وأرتج فى مراح

الأحلام .. وأن أفرش طريقى بالورود .. وأطلق فيه الأناريد .
ولكن ، أى عذر يمكن أن أقتنع به نفسى ، وأنا أجدك تعرب من فرح
أخفك .

وأقول تعرب .. لانى أحسست أنه هروب .
ومن !!
منى !!

ولم .. لا !! لا احتل لي تكون قد أحسست أن شغفك بى قد
ورطك بى إلى مدى لم تقصده .. ولم تعرف كيف تتراجع منه ..
إلا تجلبى .. حتى أنسك ، لو أليس منك .
مطلق معقول .

ولكن .. لوصل أهد بتفوقك منى .. أن تعرب من كل التزامك
أيام لفك وألم الفاس .. وأنت رب الأسرة الوحيد .. وربها
المسؤول !!

ولكن أى تورط هذا الذى أحسست به نحوى .

نظارك المحبة .. وكليتك الرقيقة !!

أم هو إحساسك بأنك قد تركت فى أمانى أثرًا .. هل كيتى ،
واضاع اليأس من نفسى .. ولشرق طريقى !!

أهو ذلك الإحساس بعقوبة ما لمحت فى ، وإفراكتك بأن يمتته كل
مروة إشتاق ، وأنت لا تفك نحوى الشعور العتيل الذى يمكنك من
الاستمرار فيه .

ونلتكى إحساسى مرير .. بالذلة .

أنت تعرف هذا الإحساس المؤلم .. الذى يجعلنا نرثى لأنفسنا .

ولم أعرف كيف أواجه المسألة .. بلأشاة فى بطنى .. لا يحس بها
أحد من حولى .

شئ أشبه بالتريب الداخلي .. لا يحس به الخير حتى يتفحصنا
الوعي ، ويتركنا جسداً بلا حراك .

ولكنى .. لم أكن أبك حتى الاستسلام .. ونقد الوعى ..
والرقود بلا حراك .

كل على .. أن اتوب .. واتحرك .. واتحدث .. وأن لحوض
لبلة طويلة .. من الإخراج .. بجرح ينزف فى بطنى .

ولمحت « خافنى » تقبل على .. ونهضت أتفلسك .. شلل أن
نسكنى « يا بك » ؟

ولكن يبدو لى لم أستطع أن أسفر كل ما بى .. وأن شيئا منه قد
سقا على وجهى لهم على .

وسكنت « خافنى » فى شئ من الجزع والالفة :

— ماذا بك يا سيبر ؟

وهزئت رأسى وأنا أتجه إلى الشرقة التزجلجية :

— لا شيء .

— يبدو عليك الإرهاق ؟

— أحسست بدوخة .. وغثيان .

— لحضر لك أسبرو ؟

— لا .. لا ضرورة .

— استريحى إذن .

وكنت فى حاجة إلى أن أستريح فعلا .. فى حاجة إلى أن أخلو
لنفسى .. لأكتفك الدمج الذى يسيل فى بطنى ولتسد الجرح الذى يترف
فى أمانتى ، وأحاول أن أفكر فى شيء من الهدوء .. إلى كنت العاصفة
التي أثرتها فى جوفى يمكن أن تترك لى أملا فى هدوء .

ونظمت حجرة « خافنى » واستقبلت على مقعد طويل ، وأغمضت
عينى .

وبن جديد عدت أفكر بنفسي الأسلوب .. لأسوق ذهنى إلى نفس
التنتج .. وأحس بنفسي المخللة .. ونفسي الرثاء ..

ولطقت من ذاكرتى قصة الفتاة الممعدة التي أقدت على الانتحار
عندما اكتشف حبيبها أنها ممعدة .. بعد أن ظل يلتاحها على القملطى ،

وهي جالسة على مقعدها ، تلح عليه فى الاتصاف قبل أن تحضر العربة
.. ثم أخشى ليرتب سر إسرارها على اتصافه ورآها وهي تحل
ممعدة إلى العربة .. علما أحست بذلك أقدت على الانتحار .

ولقد عجبت وتنداك من الفتاة المسكينة .. عجبت منها .. كيف
حاولت أن تحل إصابتها من المظوق الذى أحست به .

وعجبت بها . كيف أقدت على الانتحار لأنه اكتشف سرها .
وأحسست أن القصة مبالغة غير مقبولة .

لم أكن أرى فى أى حدث من الأحداث ما يمكن أن يندفعنا إلى الخلاص
من حياتنا .

فى كل ما خافنى من مقامه المرض .. لم أجد ما يدفعنى إلى
التفكير فى الانتحار .. كنت دائما أجد أن الحياة ممكنة بطريقة أو بآخرى .

لم أصل قط إلى حد اليأس من الحياة .. كنت أحس أنه عندما
يقدد بها شيئا .. يمكننا أن نستعيش به شيء آخر .. لم أكن أرى

بها شيئا بلا بديل .. إذا فقدناه استعصت علينا الحياة .
ولكنى فى تلك اللحظات أحسست أن بعض الأشياء فى حياتنا قد

يكون بلا بديل ، وأتينا عندما نفقده .. نحس أن الحياة قد بخت مقفلة ..
وضعت طريقتها .. وأنظمت لنفسها .. واشتغلت براراتها .

أشياء عندما نفقدها .. يملأنا الإحساس بالخوف .. والظلال
.. والضياع ، وكل بدا ثقيله تطبق على أنفسنا وتجم على صدورنا

.. ولا يعود لنا من سبيل إلى النجاة .. سوى الخلاص منها .. من
كل ما فيها .. ونرى أن الموت هو البهارة الوحيدة التي تلوح لنا وسط

ظلمات اليأس المكثفة حولنا .
ورأوتنى وتنداك فكرة الموت .. كبلجا وحيد الود به من كل هذا

اليأس والمخلة والخوف .
وقد تبدو رغبتى فى الموت .. شعورا مبالغا فيه .. وإهراطا

فى الحساسة .
وإنه لم يحدث .. ما يدمو إلى كل هذا .

وقد يكون هذا صحيحا .. ولكنى عندما أحاول الآن أن أحل
مشاعري وتذكرك .. وأفسر ما أصابنى .. من نأس وإعياء وضيق ..
أجد إن هناك ما يبرره ، وما يقوم لى بعض الطر عنه .
كان أسوأ ما أصابنى ، واضاع قدرتى على المقاومة .. هو شعور
الظلم والإذلال ، وبلى أهانت .. على غير ذنب .
كنت أفسر بنفسى أشبه بذلك الكلب الذى قرأت قصته فى أحد
كتب المظلمة التقنية .. الكلب المسكين المريض الذى يسير فى إعياء
وخوف يئسج له أحد الصبية العائشين مظلة فى طريقه . فلا يكاد يبد
فيه إليها حتى يشدها إليه بغيظ ثم يهوى على ظهره بالعصا .
كنت أبكى من أهل الكلب المسكين كلما قرأت قصته ، واتمنى
لو استطعت أن أذهب إليه لأريت ظهره وأطمعه وأهمل عليه .. وكنت
من أجله .. أعطف على كل كلب .
ولم يطف بذهنى قط أنى ساصبح فى ذات يوم .. ذلك الكلب الذى
كنت أرش له وأبكى من أجله .
لم أكن أطلب من حياتى شيئا .
حتى ذلك العرج لم أضح عليه .. بل سلمت به .. ووطدت نفسى
عليه ، وكنت أسير من حياتى على جانب الطريق .. لا أطيع فى شيء ..
ولا أهنو إلى شيء .
وحدثت لنفسى من الأمل ما لا يستعصى على بيله .. أشياء بسيطة
.. يمكن أن ينالها كل مخلوق .. قراءة كتاب ، أو مشاهدة فيلم ..
أو الخروج فى نزهة .
كنت أفسر بما بين من نقص .
ولم أجعل منه مسألة لنفسى ، بل عزمت على أن أجعل منه شيئا
طوبيا يلى أفسر آمل على ما يلائمه .
كنت أعرف قدر نفسى .
وإذا كنا نقول « رحم الله أمراء عرف قدر نفسه » . كما كان
أجدرنى برهنته .

ولكنى لم أترك وشائى .. كما لم يترك الكلب المسكين وشائه ..
بل لوح لى بالأمل .. وعندما تركت جانب الطريق ، وهبت بأن أجد
يدى إليه .. سحب ينى ، وهوت المصا على ظهري فأسفة قضية .
ولم استطع مقاومة الإحساس الجارف بالظلم والمذلة .
وبعثت فى نفسى شعورا مضادا بالكبرياء والزهد .. واحترار كل
شيء .
وعندما نرتطم بصخرة الهاس ويخلق أباينا طريق الأمل لا نعد
أباينا ما نقاوم به ألم الحرمان من شيء .. سوى الزهد فيه .
ونحن نلتقى حدة الهاس إلى أن أوسع دائرة الزهد .
لم أحاول أن أفسر على نفسى الزهد نيك فحسب .. بل ففنى
الكبرياء المضاد لإحساسى بالمذلة .. إلى الزهد فى الحياة ذاتها .
وكما يفضب الطفل عندما تحاول حرمة من بعض الحلوى يفتنف
إليك بكل ما بيديه .. رحمت أفتنف من يدى بكل ما أملك .. بحبش
دانها .
وبذات أفكر فى طرق الخلاص .
وأستعرض وسائل الانتحار التى سمعتها أو قرأتها أو شاهدتها
فى أفلام السينما .
اتبوية الأسيرو ، وصنوبر الفاز ، والقفز من القرعة ، وقطع
الشريين .
ورحمت أفتنع لنفسى .. فى كل حالة .
وأصابتى الفتيان ، وأحسست برغبة وأنا أتصور بمنظر الدماء تتدفق
من يدى .. لفضلا أرض القرعة .
ورحمت أفتنفل من حولى .
ماذا يمكن أن يصيبهم ؟
أبى .. وأبى .. وهنية .. وسلى .. و .. و ..
تصورت « أبى » .. ووجهته .. وناسه .. ورايت « أبى »

منهارة .. يكاد ينفق عليها الجزء .

ولم أستطع أن أوصل التفكير .

وكبرت نفسي أن أجلس من حواري بعباد الآخرين ، عذاب الحب الناس إلى .. ولأن أحول طمعة الحياة من صدرى إلى صدورهم ، وأن أنفخ من أناسي والآلم .. لأفرغهم به .

وطردت من رأسي فكرة الانتحار .

ما أسهل أن تفكر في الخلاص من الحياة ، وما أصعب أن نخلص منها فعلا .

إذا أردت أن تقدم على الانتحار .. فلا تفكر في الوسائل ولا تستعرض النتائج .. ألتزم بأقرب التوسل إليك ، وأخلص من هيكلك .

وهذا ما لم أفعله ، وما لا أبتني لأحد أن يفعله .

نحياتنا الطويلة التي تنسج لكل شيء .. لكل الإبراج والأحزان ، والآمل والأشجان ، والمتع والآلام .. نحن من لم نهيمنها بالتعامل ما ..

إنسان ما .

وهكذا .. ومن أجل أولئك الذين يحبوننى .. والذين لم يسيئوا

إلى .. عدلت من التعامل من الحياة ، وقصرت تفكيرى على الخلاص منك .. وبين آملى عليك ومشاعرى نحوك .

وعزمت على ألا أبكر عليك .. وأن أزدريك .. واحتترك .

أسفة .. لسوء التصبير .

ولكن ماذا أفعل .. إذا كان ذلك هو ما عزمت عليه وتذاك ؟

أقول عزمت .. ويعلم الله إلى أى مدى استطعت أن أفعل .

لما عن الكف فى التفكير إليك .. فقد كفى بنفسه ، عزى على ما بعده .. أعنى .. على أن أزدريك واحتترك .

اليس الأزدراء هى حد ذاته .. يستدعى التفكير ؟

بل لى مجرد عزى على التفكير إليك ، هو تفكير لى حد ذاته .

الأشياء التي لا تفكر فيها .. لا تفكر فيها بلا مزج على ذلك ، وبلا مزج على أن تزدريها وتحترقها .

أخطر ببالك مرة أن تصمم على عدم التفكير فى المصائب التي تطو
على محرى بردى .. أو على عربة اللوز الأخضر الوالقة فى الأبدان ..
أو على تبتال ؟ تلمسون ؟ القائم فى ميدان ترانلجار بلنسى ؟

كل هذه الأشياء التي تبلا الدنيا ، ولا تشغل أنفسنا بالتفكير فيها ..
دون أن نعلم على ذلك .. ودون أن نحسم على إرثائها أو احتقارها .
لما أتت فقد كفى عزى على عدم التفكير عليك تصميم على ألا تشغل
نفسى بفكر .. حتى ولو كان ذلك .. مالا يزدراء أو الاحتقار .

وهكذا برت ليلة الفرح ، وأنت غائب حاصر .. وكنتى بك أبيت
أن تظهر للناس .. لتستقر فى رأسي ، وتشغل تفكيرى ، وتسيطر على
حواسى .

وكان على .. أن أبدو طبيعية .. وأنصرف كما يجب أن أنصرف .

واحتاج الأمر لجهد كبير .. لكى أظهر ما لا أحس به . لكى أضحك
وأبضح ، وأشارك فى الفرحه .

وكان على أن أعتذر بالصداع .. لأبرر بعض مظاهر الضيق التي
مجزت من الخلاص منها .

ولست أفكر فى سبيل تلك الليلة .

لقد كنت أسوا ما برى من ليل وأيام .. فليس أسوا على الإنسان
من أن يخرج بنفسه القاتية وباطنه المغمى .. ليستعرضها وسط اليريق
والأنوار .

أن يردد الإنسان بالآله .. شيء موجه ، وأن يمشى بها طربا ضاحكا
.. شيء أشد وجعاً ، وأكثر إيلاماً .

وكان على أن أظرب بمواجى ، واضطك من آلامى .. كان على أن
أفعل كل ما يجب لفعله دون أن أخلص من شيء من مخاضى .

لم أخلص من حيائى .. ولم أخلص منك ومن للتفكير عليك .

وأخلا البيت بالناس .. وعلت الموسيقى .. والفناء ، وطرب
الناس .. وأكلوا وشربوا .. وأطلقوا كل ما يصرون من كانت
سخيفة .

ويذا « حسن » أيضا .. برتكا .. يتصب منه العرق في عر
الشقاء .. وبعت « نادية » حلوة رقيقة ، شاردة الدهن رغم ما أبعته
من مظاهر الفرحه ، والتجارب ، والمجالبه .

ولم يحاول أن أسألهما منك حتى اتزيت بنى وأنا اجلس في ركن
الصافون بجوار « سلى » .. وجلست على حائط القعد واجلست
بفرامها في حنلى قتلة :

— مقبى لك يا سهر .

وكنت قد سمعت هذه الدعوة ما يريو على الحقيرة .. وكنت
أردھا بأشد الوسائل اختصارا .. وهى كلمة « بشكرة » .

وددت لو استطعت أن أخلو بنادية .. على الفور معها بشيء منك
يربحنى .. ولكن لم يكن هناك مجال لفكك وهى مروس الليلة ..
و « حسن » لا يكاد يفارقتها .

ورفعت عليها بالشكر ماسمة .. ولحسست بنظرتها نكت في عيني
وبها ذلك الشرود الذى لحته في عينيها منذ أن أيمرتها داخله .

ومالت برأسها على « وقالت في فيه همس :

— أتأت لك أمي أن « حدى » أن يأتى ؟

وهزئت رأسى بالإجابة دون أن أتيس بكلمة .

كنت أخشى أن أنسى .. ولم أجد وسيلة لدوامه الرفية في البكاء ..
سوى أن أطبق شفتى وألوذ بالسميت .

وعادت « نادية » تقول :

— عجيبة !! كيف يحلنى في هذه الليلة ؟

« يخذلك وحده ؟ » .

« وأنا ؟ » .

لا أحد يدري بى .

لا أحد يدري بما نل بى غهلك من وجيبة .

وانى لهم أن يدروا .. إلا أن أشد منهم وأصرح بملء فمى .. لأقول

إلى حزينه وباتسة .. وإلى طريقي قد أنظم .. وأملنى قد ضامت ..
لأنك لم تات .. لأنك حريت بنى .. حتى تجيب نفسك بمسئولية حى .

وكلى على أن أقول لأخذك شيئا .. أى شيء .. ولم أجد ما يمكن
أن يتدل .. سوى أن أعترف منك .

يا للسخرية !

قلت أعترف منك لأخذك وأنا في أشد الحاجة أن يحتر لى منك .

قلت أنتم في صوت بغاليت :

— قد يكون وراءه عمل .

وردت « نادية » في حدة خافعة :

— عمل ؟

وصمتت برهة ثم وأسلت قولها في ضيق مكتوم :

— أى عمل هذا الذى يمتعه من حضور عرسى وليس لى في الدنيا
غيره .

وكنت أقول : « وأنا أيضا » .

ولكنى لم ألك إلا أن أقيم في شرود قتلة :

— من يدري ما لديه !!

ووصل « حسن » ليبر « نادية » من ذراعها .. ويختلى وسط
الرحام .

والتفتت إلى « سلى » بتسائلة في صوت هادى :

— أئن يأتى حدى ؟

وأطرفت دون أن أجيب .

وصمتت « سلى » وقد بدت عليها الحيرة والضييق .. وهى تحس
بعض ما يمكن أن أهمله .

وعادت « سلى » تسألنى في حيرة :

— ألم يفكر لهذا ؟

وهزئت رأسى بإقننى دون أن أطلق بكلمة .

ولم تحب « سلى » على حزة رأسى .

لم تعرف ماذا تقول .. لقد فكرت في كل شيء .. على كل الوجوه .. ولم تقل لي شيئا .. حتى ولا على سبيل التعزية .. خسة لي يبدو منها ما يشير لشجفتي .

وأخيرا قلت في لهجة مقتضية :

— قد يكون لديه ما يبرر فعله .

ولم أقل لها .. مثل ماذا ؟

لم أجد لك أنا بعد كل هذا التفكير .. عذرا واحدا .. مكنت تجده هي ؟

ورددت عليها في استخفاف نضح به لمرط الياقوت :

— ربما .

وقالت « سلسي » وهي تدرك كل ما يجول في خاطري :

— لا تنسني يعني يا سبير .. الحياة مليئة بالاشياء الجميلة ..

وفي ما تأخذ منها .. عزاء عما نسيه فيها .

لقد فكرت « سلسي » فيها أفكر فيه .. بنفسي الأسلوب وتادها

تفكيرها إلى ما وصلت إليه .. إلى التي فقدت شيئا حليا ، أو لو شك لن أتقدم .

وهي تحاول أن تقتضي .. أن هناك ما يخفى عما فقدته .. ول

الحياة مليئة بالاشياء أخرى جميلة .

وكنت أعتف بها بلكية :

— لا .. أبدا يا سلسي .. إنك لم تجربى بعد .. هناك اشياء لا يخفى

عليها أي شيء .. عندما نفقدها .. نفقد حياتنا ، وبعمق طريقنا ، ونفقد

منه كل الاشياء الجميلة التي تتجلى من حولنا .

ولم أقل بالطبع ما ألمست به .

ولكني رست أبصاصة رائقة على شفتي وقلت تلك الكلمة التي

نقولها عندما لا نعرف ماذا تقول :

— يعني .

وأخيرا انتهت الليلة .

الليلة التي حششت فيها لجبل أباتي .. والتي خططت لها طوال

إبني الماتية .. بلذا سأقول ، وبلاذ سأفعل .

الليلة التي مزقت أنت حطمت فيها ، وتوضعت أباتي بها .

وخرجت أجرت نفسي المقتلة بالأوجاع ، وأغلقت شفتي عن آخر أبصاصة

رائقة منحتها لحسان وثاقية ، بعد أن ودعتها .

وارتيت في العربة واطلقت زفرة جارة أخرج بها بعض ما يتأجج

به صدري .

وسألني « أبي » في إشتاق وهو يتخذ مجلسه في العربة :

— ما بك يا سبير ؟

وقالت « أمي » وهي تجس يدى ، وتحنس جبينى :

— الصداق ما زال يذكرك ؟

وكان الصداق أسهل لتفسير يمكن أن أرجع إليه ما بي .. فقلت

على الفور :

— أجل .

وربت أمي :

— عندما تصل إلى البيت سأصنع لك فنجانا من الشاي . خذى قترصين

أسبرو .. ولعش نفسك جيدا .

وارددت تقول لامية كعادتها عندما تصيبنى أبة وعكة :

— لو سمحت نصيحتي لما أصابك هذا .

ثم استرسلت تعدد الحالات التي خالفت فيها نفسها .. لأصلي

المرض .

ولم أسمع إليها بالطبع .

كان الأداء الحقيقي يلح على رأسي .

كنت أنت صدامي .. الذي لا يتنا يطرق رأسي بسطارقي الأمي

والياقوت .

وعاد الذبح يقرقر نيك .. فيها قلت لي فيها بخي .. وفيها فعلت

في الآن .

في إيمانك الذي رغبني إلى ذرا السعادة .

وإلى خذلائك .. الذي تفتنى به إلى ناع الدلة والضياع .

وانتلت العربية على بيتنا .. دون أن أبصر شيئا خلال الطريق ..
وتوقفت أمام الباب ، أو هكذا خيل إلي .

ومحنت يدي أفتح الباب وأهبط منه ، ووضعت قدمي على الأرض ،
فإذا بالأرض تتحرك أسفل وتلويحي عليا .

لقد هبطت من العربية قبل أن تنفذ نيتها .. وطوت الأرض المتحركة
سألني التي هبطت بها ، فهوى جسدي على الأرض وظلت سألني المصيبة
معلقة بالعربية تجر جسدي الملقى على الأرض وراءها .

ولم أشرع شيء من هذه التلصص .. كل ما شعرت به هو أنني
أعوى والأرض تتوربي .

وتصالت المرفقات الحساسة .. صرختي ، وصرخة أبي وأبي
والسائق .

وأوقعت العربية في التورب .. واندمج « أبي » ينكب على يحملي من
يديه ، صلتها في ارتياح .. وكال طمعة قد أصابته حماة

.. سهر .. ماذا أصابك ؟

ولم أكن أعرف بالطبع ما أصابني .. ولكن ما أصابني من الحشبة
عليهم جعلني أريد بكل ما أملك من قوة :

.. لا شيء .. لا شيء أبدا .. أنا سليمة .

وأقبلت « أبي » تنحسمني ودموعها تتفعل وصدرها يملو ويهبط :

.. ماذا بك .. سهر ؟

.. لا شيء يا أبي .

.. لماذا نزلت من العربية يا حبيبتي .. قبل أن تنفذ ؟

.. ظننتها وقلت .

وأقبل السائق علي وهو يلهث :

.. ست سهر .. سلامك .. أنا .. أنا

.. أنت لم تفعل شيئا ، إنيها عطفتني أنا .. لقد هبطت قبل أن تنفذ
العربة .. كنت شاردة ، وظننت أنها وقفت .

وحيلني « أبي » على دراهمه .. و « أبي » تنبئه ملكية .. وهو
يلكك لها :

.. سليمة .. سليمة بإذن الله .

ولكنها « حبيبة » على السلم بعد أن سمعت الضجيج ، ولم تك
تراني بمحولة حتى صرخت :

.. ست سهر .. ماذا حدث ؟

وقلت لطمعتها :

.. لا شيء .. لا تخفي .. لقد وقعت وأنا أنزل من العربة .

ووضعتني « أبي » على أريكة البهو .. وأخذ يتنحسني محاولا
الاطمئنان علي .

وكنت أحس بآلم في مفاصل فمسي السليمة .. وبدأ العرقوب وأرما
.. وضغط « أبي » عليه بخفة فتوجعت .

وأخضت « أبي » تفعل خدوشا في وجهي وتضيقها ..

وقال « أبي » محاولا بث الطمأنينة عيني حوله :

.. بسيطة .. مجرد التواء .

ونظر إلى الساعة في محمسه ويدت عليه الحيرة ، ودفعه التلق
الذي يحاول أن يستره إلى أن يتسائل :

.. أطلب الدكتور غابر يطمئنتنا ؟

وأجبتة مؤكدة :

.. لا دامي أبدا .. إنه مجرد التواء كما قلت .. وليس هناك
ما يولني .

وهز « أبي » رأسه مقتنعا وأجاب :

.. نطلبه في الصباح .

ثم أطلق تنهيدة طويلة ثقلا :

.. أريد .. جاءت سليمة .

وريت « أبى » وهى تكلف جميعا :

— هى ناكسة .. ألا يكفى ما بها ؟

وقلت لها أحاول أن أخفف عنها :

— لم يحدث شيء .. إنها وقعة بسيطة .

ورد « أبى » متضامكا :

— تعيش وتلذذ غيرها .

وقالت « حنينة » متهددة فى حزن :

— تعيش ويعيش الله من كل شر .

وقلت وأنا أحاول أن أرفع عنهم سحب الكتابة :

— عمر الشئبقى ، لا نفشوا على شئنا .

وأويت إلى الفراش ..

وشغلتنى السقطة بكل ما أحاطها من جرع .. ويكل ما ظللت

من خفوتى وأوجاع .

تسلطنى من الوجيمة الكبرى .. لبعض الوقت .

ولكنى لم أقد أرتد من الفرائى .. حتى عدت أفكر فيك .. بنفسى

المرارة ، وتنفس الحزن .

واتمنى لو كانت السقطة قضية .

تخلصنى من الحياة .

ثم أعود أفكر أبى وأبى ، واحد الله على سلاشى .. وأنا أذكر

الارتباك فى أحيتهما ، ومرحتهما كالنبيحين .

ومضت لفرة طويلة قبل أن ينمر التوم على تفكرى الملح ، وأصلى

الموترة .

واستيقظت فى الصباح .

وتنسى ما زالت ملثة بالحزن .. كالطفل الذى ينام باكيا .

وأقبل على الدكتور « نيز » وكان « أبى » قد أبغظه فى الشروق

لكنى يحضر ليرائى .

والنسى من الكشف على ، ورمت كلنى ضامكا وهو يقول :

— سلبية .. والحمد لله .. لا شيء أكثر من التواء فى مصلح

القدم .. يحتاج إلى بعض الراحة .

وتساقطت أبى :

— تملكه بالزيت ؟

— ممكن .

— لقد أصيبت مساقى مرة ، فملكتهما بزيت دانى ، وربطتهما

بالصوف .. و ...

وقاطعتهما الدكتور قاطعا :

— لى يحتاج الأمر لكل هذا ، دعوها ترتاح يومين فى الفراش ،

وستنفض على خير حال .

وفادر الطبيب الفقرة وودعه « أبى » حشى القلب ثم عاد وفى يديه

صفحة الصباح سلما له البقع .

ولحت فى إحدى الصحف فى يده عنوانا مريضاً بالخط الأخير :

« معركة حامية الوميطس مع إسرائيل فى النوليق » .

« الجيش العربى يلقن إسرائيل درسا لن تنساه » .

وتملكى إحساس عجيب .

إحساس لا أظن مخلوقا قد أحس به من قبل .

خفيف من الجرع والراحة ، والقوى والطباتينة ،

لقد ذابت جلايد اليأس التى تراكمت على نفسى .

وماد الأمل يمل عليها من جهده .

أبل مصحوب بخوف غلبش .

لقد بلانى نيا الحركة إحساسا بأنى لم أعظم ولم أذل .. ويملك لم

تغيب .

لقد قضيت أبى بيد ، الإعتذار لك ، من كل ما ظننته بك .

وبلايد الأخرى ، قدمت الجزع بما يمكن أن يكون قد أصابك .

دموع في الوسادة

تأملت الصنف من « أبي » لأترا في جرع تفصيل الإحبال التي
لمحت متلوينها الحبر العريضة .. ولم أطل للقراءة .. فقد حمرت سيليا
من أن ألم ذهني لتطلق إليك بثلثك في أرض الحركة .
كيف كنت ؟ وماذا فعلت ؟ وكيف أصبحت ؟

وبدل أسلوب في التفكير غير تبسلا نائيا ، من التقبض إلى
التقبض .

من الكوم ، إلى الاستعمار .. ومن محاولة كركك والاستعفاء منك ،
والاستكبار عليك ، إلى اللفة الشديدة إلى رؤيتك والاطمئنان عليك ،
والركوع بجوارك .

وأقول محاولة .. نيا اغتنني ثلثت أبدا في أن أفرش على نفسي
شيئا من هذه المشاعر المضادة لك .

لقد كنت أحاول أن أصنع منها حدارا واقيا ، يصطب نفسي ، ويغني
شر النهاوى والتهيار ، ولكن يعلم الله أنني مجرت تبلى في أن أدعها
تقرب إلى نفسي وتمتج بشاعري الحقيقية نحوك .

وعاشت بشاعري الأصيلة لك تتدفق في حرارة وقوة . وأنا أحس
بأنى قد ظلمت وتجنيت عليك ، وأسكت الظلمة .

ولم تطل لحظات الحظ في المشاعر ، التي مرت في بحرود أن
لمحت متلوين الحركة .

لقد محا إنراكي للحجبة كل ما بنفسى من شفاء .. وتعلمية

وإحساس بالضياع ، وعلو دنى التلة والإيمل .. بك وبالحياة ..
وبكل شيء ..

لشرق الطريق ليس نجاة ، كما انظم بالأمس نجاة .
ولم تستطع هذه الوسوس التي سلورنى فيما يمكن أن يحدث لك
في المعركة .. أن تطلق خلا من الأسي أو البأس على الإشرافة التي في
حوادثي .

لقد دفعتني هذه الوسوس إلى التحفز لأن أحوض من لجلك
محركة .. مع أى شيء وضد أى خطر .

فارق كبير .. بين إحساس المذلة وإحساس التحضر .
الأول يسرنا ويلقى سا حطبا .. والثانى يفتحنا قوة لغوض معركة .
فارق كبير .. وأنا أشعر لك بما أشعر وآمل عينا آمل بين الضياع
في حلوية الأيكار والإيمل والتشبه .. وبين الوقوف بجوارك ، كجزء
منك .. لتشارك الصير أيا تكن هذا الصير .

وأحسست بلهني إلى السؤال منك والاطمئنان عليك ، تلح على
وإنا أبسك بالصحيفة بين يدي ، وعيناي تحيلن في سطورها ، وذهني
يلاحظك في الصمة يحاول أن يعرف أين أنت وكيف أنت .

ونحن لي « أسي » الطريق إلى السؤال بقوله ، وهو يجلس على
المعد ، ويتناول فجأة الشاي من فوق بنضدة صغيرة بجواره :

— يبدو أنها مسألة جادة ، ليست مجرد خناوشات .

ورفعت عليه وذهني ما زال شاردًا وراك :

— خناوشات !! إنها معركة كبيرة .

— ربما يسر .

وصبت برعة وهو يرفف من التلجلج رشفة طويلة ثم أردف
فقال :

— لم يفكر البيان شيئا من حسارتنا .

وأحسست بيد تمصر ملطني ، وتضغط على صدري ، وأنا أتمور

ما يمكن أن تتضمنه كلمة خسارتنا ، وانطلق الذهن الجليح يبحث منك
بين هذه الخسائر ؟

وقلت لأبي مستكثرة :

— أنتظن هناك خسارتنا بيتنا ؟

— أنتظنين معركة كهذه يمكن أن تكون ملا خسارت ؟

وعافيت اليد تعتمر بلطاني ، وتضبط على صدري .. وتلاحقت
التفاسي ، حتى بدا صوتها مسموعا ، ولم أحس في نفسي تدرية على
النتطق .

واسفريل « أبي » يقول في رنة أسي :

— ربنا يحيى أولادنا .

ولم أستطع أن أكنم مخلوقى عليك أكثر من هذا .. غطت في صوت

خافت .

— أنتظن أن جدي لها نادية اشترك في المعركة ؟

— المحتمل جدا ، ولابد أن يكون هذا سبب ميامه من الحفل امس ..
ممكنة أله .. لابد أنها في حال مزمنة من التلق .. ليتمهم يطفون نيا
المعركة ، حتى تلبثن عليه .

ولم يطف بدعي « أبي » أني قد أكون أكثر مسكنة من أمك .. وأني
أشد من أي إنسان في حاجة إلى الطينية عليك ، وإلى أن الفسك
وانحصسك .. وأستند رأسي إلى صدرك طويلا .. طويلا .

وقلت لأبي :

— يجب أن تسأل عنه .

— نسأل من ؟

وكانت « أسي » قد أنهلت نعل إلى صينية الإنطار .. فضاضت
ثقله :

— تسألون من ؟

وأجبتها ثقلة :

— من جدي .

— لماذا ؟

ورد « أبي » محاولا تخفيف المسألة :

— حدثت بعض بناوشات على الحدود .

وفتحت « أبي » الصحيفة على غرائشي وهي تضع صحيفة الإنطار
على بخصه بهوراري .. وضربت على صدرها في الزعاج صمحة :

— يا بصيبي ! .. معركة كبيرة ؟

وهفت بها « أبي » قتلا :

— لا شرعبي هكذا .. لقد أنزلت قواتنا بقوات إسرائيل خسائر
عافحة .

— ونحن ؟

— لم يرد شيء من خسارتنا .

— ممكنة الست لم جدي .. وممكنة أم سلمي .. لابد أنها
في حالة قلق شديد .. كلن الله في هونها .

وكان حومي عليك قد تسقطن من التفكير في أي مخلوق سواك ..
وفكرتني « أسي » بريفتي .. ولم أملك نفسي من الإحساس بالخوف
عليه والقلق على « أله » وعلى « سلمي » .

ونفسي « أبي » ليحضر التلفزيون وهو يقول :

— سألطاب حسن .. لعل لديه بعض الأنباء .

وطلب « أبي » رد « م » خلاني « .. وكلن » حصل « ما زال
في بيت أله يتم تجهيز البيت الذي استأجره في شارع بغداد ..
والذي سيقتل إليه مع نادية ولك .

وأخذ التلفزيون يذق فترة دون أن يحجب أحد .

وكان الكل ما زالوا نيايا عتب سهرة الأسي .. ويبدو أن هذا
قد رد أخيرا على « أبي » .. لقد جفف قتلا :

— ألو .. صبح النوم .

وادركت أن « خلاني » هي التي ردت عليه جيبا عاد يقول :

— صباح الخير يا حفيظة .. أيا زلتُم نيلبا !! الحمد لله .. ادا ..
إيدا .

ويبدو أنها قد غرمت من التليفون المبكر .. فقد سمعت « أبي »
يلبثها تاتلا :

— ليس هناك ما يزعج .. نحن بخير .. لقد وقعت بالأمس حادثه
بسيطة لسير .. لا .. لا .. بسيطة والحمد لله ، لقد نزلات من الحربة
عندما مدنا إلى البيت أمس .. قبل أن نلقه .. تسقطت على الأرض
وحدث لها بعض الرضوخ .

ولم أشك في مدى انزعاج « خالتي » .. فقد وجدت « أبي »
يصيح بها :

— قلت لك سلبية .. لقد زارها الدكتور « فايز » هذا الصباح ..
ولم يجد سوى التواء بسيط في مصل القدم اليسرى .. وطلب منها أن
تسترخ .

وأنكرت أن « خالتي » مستعمر نوراً . فقد سمعت « أبي » يقول
لها هاتنا :

— لا داعي لحضورك الآن .. قلت لك إنما بخير .

وتقبل أن ينطق « أبي » بكلمة أخرى .. وسمعت « خالتي » الساعية .
وماد وهو يهتف :

— حفيظة .. آلو .. آلو .

ووضع « أبي » الساعة في غيبط وهو يقول :

— لم تمنحني الفرصة أن أسأل على « حسن » .
وقلت لأبي :

— امطئي التليفون .. سأحدث سلمي .

خلقت أُمي :

— لا داعي لأن تزعجهم .

— لابد أنها قد عرفت كل شيء .. هفت التليفون .

— انطري قبل أن يبرد الأكل .

— أيسى لي نفس .

— انطري عصبك منك .. أنت في حاجة إلى المداء .

وتلت في إصرار وأنا أجد لهفتي على السؤال عنك والاطمئنان
ملك لا تدع لي رغبة في أي شيء :

— هاني التليفون يا مليا .. سأنظر عندما أحس برغبة في الأكل .

وبالولتي « أُمي » التليفون .. فأنرت رقم « سلمي » .. وسمعت
صوتها يرد علي :

— آلو .

— سلمي .. لنا سير .. كيف حالكم ؟ !

وردت « سلمي » في صوت لم تستطع أن تخفي ما به من قلق :

— الحمد لله .

— هل قرأت الصحف ؟

— أجل .

— أديكم تباه أخرى ؟

— حاول أبي الاتصال بالقيادة للاطمئنان على ريلس .

وبذا فقلوا له ؟

— لم يسطوه أبناء أكيدة بشيء .. وإلى كثر أحد الضباط من اقربائنا
قد ملكته بصفة عامة .. ولكن أُمي في حالة يرثى لها من القلق .

— كل الله في عوننا .. وأعاد لها « ريلس » سالماً .

وردت « سلمي » في صوت حالت وهي تطلق تهديداً ثقلاً :

— سليم الله جميعاً .

واحصيت أنها تود أن تسألني منك .. ولكنها تحس شيئاً من
الهرج .. ربما لوجود أحد بجانبها .

وسمعت برهة ثم حالت تسألني :

— وكيف حالكم أنت ؟

— وقعت بالأمس وأنا أنزل من الحربة .

وصاحت « سلمى » فى جزع :

— كيف ؟

— لم انرك ان العربة ما زالت سائرة .. فنزلت منها ولم اشمع
إلا والأرض تطوينى .

واستبرت « سلمى » لتساقط فى جزع :

— وماذا حدث لك ؟

— رغوغي والنواء .. ولكنى بصفة علية .. سليمة .

— سلامتك يا سفير .. ساكنى لك حالا .

— بل ابلى مع امك حتى تطمئن على رياضى .. إبنى بخير .

— على اية حال ساحضر لك هذا الصباح .. وارجو ان تكون قد
اطمأننا على ريلنى قبل ان آتى إليك .

وقبل ان تفسح سلمى السعادة سالفتى فى صوت خافت :

— وكيف حال حدى ؟

— لا اعرف شيئاً .

— ألم تسالى ؟

— لا اعرف من اسأل .

— ساسأل لك أنا واطمئنتك .. مع السلامة .

— مع السلامة .

وانتهت المحادثة .. والتفت إلى امي قلقة :

— لم يعرفوا شيئاً بعد عن رياضى .. و « ام سلمى » فى حالة قلق
شديد .

ولم تستطع « امى » ان تخفى حاسبيتها المفرطة للامومة ورايت
الدمع يترقق من عينها وهى تقول :

— رينا بطمئنتها .. لا يرى أما فى غناها مكرها .

ونهضت لتدفع إلى صينية الطعام ثقالة :

— كلى يا سفير .. كللى يا حبيبتى .

وبدأت اتناول الطعام لكنى أريجها .

وانارت « لى » الحجرة وهى تقول :

— واجب ان اثور ام سلمى وام حدى .

ورد عليها ابى ثقلاً :

— اصبرى حتى نعرف حقيقة الاثباء .. إن شاء الله سنجد فيها
كل ما يطمن .

وبعد فترة وجيزة وصلت « خالتي » .

واقبلت على نسمنى فى لفة ملائى إحساساً بحبها .. ويلتى

كنت دائماً لديها أكثر من مشروع زوجة ابن .

وصاحت بى لائمة :

— كيف تملين بتنسك هذا !! ابجنونة انت ؟

— ظلمت العربة قد وقتت .

— لقد كنت تمدين مرفة طوال ليلة لى .. كيف حالك الآن ؟

— الحمد لله .. أحسن كثيراً .

وكنت فعلاً أحسن كثيراً .. كان الكابوس الذى يهجم على روحى

قد زال ، وانزل « أبى » على « عى » يحييها ثقلاً :

— إذا أغلقت السكة هكذا قبل ان اتم حديثى ؟

— لقد ملأتى حزاماً على سفير .. إنها حبيبتى .. هى وحدها

التي اشمع أنها تشبهى فى هذه العائلة .. اشمع أنها اقرب إلى من

هذا الجحش حسان .

وصحك ابى ثقلاً :

— أشبعى بها .

وانتد بجلسه على المقعد وهو يستمرسل ثقلاً :

— كنت اود ان احدث حسان .

— حسان ترك البيت مبكراً .

— إلى أين ؟

— إلى حبيبة القلب .

وعفت أنا فى جزع :

— ماذا ؟

— قال له السطحي إنها طلبته في ساعة مبكرة .. فارتدى ملابسه بسرعة وذهب إليها .

وقال أبي في تلقى :

— لعل شيئاً قد حدث ؟

— لن ؟

— لحدي .

— حيدي ؟ .. والله ؟

— ألم تقرأى صفح الصباح ؟

— لم سمعني أنت ترسة أن أفعل أي شيء قبل أن أحمر إليكم .

ومدت « خالتي » يدها لتناول الصحف وهي تتسائل .

— ماذا بها ؟

ولم تكذ تقرا العنوان العريض حتى هتكت :

« معركة كبرى في قرية القوافيق » .

وانتفتت إلى قاعة :

— إنها القرية التي رزناها .. هل تفكرينها .. القرية التي اثبتنا دلاً منها قرية ناصر الجديدة .

وهزئت رأسي بحبيبة :

— أجل .. أجل .. أفكرها جيداً .

وقرأت « خالتي » بضعة أسطر في الصحيفة ثم الغتها وتساءلت في تلقى :

— هل اتصلتم منقبة ؟

وهز أي رأسه قليلاً :

— حشيباً أن يتسبب في إطلاق أيها .

وأسرعت « خالتي » لتناول الطيفون وقبل أن ترزع الساعة دق حرسه وهتكت « خالتي » مضطلة :

— كور .. سلمى .. اهلاً .. أجل مستحذك .

وبلوتني « خالتي » الساعة ثقلة :

— سلمى .

واحدت الساعة من يدها .. ولم استطع أن أخفي لهنتي وأنا أسأها :

— نعم يا سلمى .. كيف حالكم ؟

— رياض حقلنا بالثيفون .. وقال إنه بخير .

— الحمد لله .. لعل لك قد أطمأنت ؟

— لقد بككت عندما سمعت سوتة ، ولكنها استراحت كثيراً .. لا تصوري كيف كان حالها .

— وماذا قال ريلس ؟

— قال إنهم غيروا اليهود ملقة مسخنة .

— وماذا أيضاً ؟

— وأدركت سلمى ماذا يمكن أن أعني بسؤالي هذا فقلت :

— لقد حاولت سؤاله .. فقال لي إنه لا يعرف .

— كيف ؟ !

— أنت تعلمين انهما لا يعملان في بطارية واحدة .

وأجبت في صوت به الكثير من الغلان :

— أجل .

ولحست « سلمى » بلهجتي الغائقة .. ففتت قاعة :

— لا تخشى شيئاً يا سهر .. كل شيء سيكون على ما يرام .

وعدت أتول في نفس اللهجة وذعني يشرد بعيداً .. يحاول أن يعرف أين آت وكيف آت .

— رزنا يستر .

وقالت « سلمى » وهي تحس بجزمي الذي أحاول أن أطويه في نفسي :

واستمرسلت « حلفتى » فى سلسلة الإكاثيب المطبنة .. واحسست ان البطانية تنسرب إلى نفسى ، وكأني نسيت انها لم تكن تطم شيئا عن الحركة إلا منذ لحظات .

وحشرت إلى « سلمى » بعد فترة .

وكلت « سلمى » هى مبتلى الوحيد ومفسر حركتى .. ولم استطع أن أصارحها بما فى صدرى حتى خلت الحجرة .

وكان أول ما قلته لها :

— ماذا قال لك ريفلى من حيدى ؟

— لم يقل شيئا .

— ماذا قلت أنت ؟

— سلته .. هل يعرف شيئا عن حيدى ؟

— وماذا قال ؟

— قال لا .

— لمقول هذا ؟

— وأيم لا .

— انظرن انه إذا حدث شيء لحيدى .. فلن يعرف ريفلى .. وهو شابط معه نفس الحركة ؟

وبدا التردد على « سلمى » قليلا .. ثم قالت :

— إذا كان قد حدث شيء .. بعد الشر عنه .. فأنظنه يعرف ..

وما دام لم يعرف .. فلا بد انه لم يحدث له شيء ؟

— لماذا لم يقل إذن إنه لم يحدث له شيء .

— لقد قال .

وقلت لها فى سري :

— ماذا قال ؟

— قال إنه لا يعرف .

— ولماذا لم يقل إنه لم يحدث له شيء ؟

— سأتى إليك يا سيهر .

ولم أقل شيئا .. وضعت المسافة فى صحت ، وهولت أن أبوء طويعة لى حولى .

كيف يمكن .. ألا يعرف « رياض » شيئا عن « حيدى » ؟ حقيقة انها ليس فى بطارية واحدة ، ولكنها فى جبهة واحدة .. ومركبة واحدة .

لن يستعصى أبدا على « رياض » أن يعرف ثبات أحد ضباط سلاحه .. الذين يعملون معه جنباً إلى جنب .

لماذا لم يقل لسلمى .. إنه خير ؟

لأبد أنه يعرف أن شيئا حدث له ، وهو لا يريد أن يكتب .

وبدت الوسائس تطب برأسى .

وتناولت « حلفتى » الظيوفر لتسأل عن حسان .

ورد عليها صوت نادية يسألها قائلة :

— صباح الخير يا نادية .. كيف حالكم ؟

— بخير يا حلفتى .

— وأيك ؟

— صبرها الله .

— أين حسان ؟

— ذهب إلى القيدة .

— ألم تعرفوا شيئا عن حيدى بعد ؟

— أبدا يا حلفتى .

— اطلتوا يا نادية .. لن يكون هناك ما يزعج أبدا .. دعيني اكلم أيك .

وبدت « حلفتى » تسوق كل ما فى حمتها من وسائل الطيابة قائلة :

— لا تنزعجى يا أختى .. كل شيء على ما برام .. لقد علمنا انه ليس هناك أى خسران فى جانبنا ، وكل الضباط على خير حال .

واجابت سلمى فى صيقل .. ولما احول ان اضيق عليها الفخاق :

— كيد اعراف يا سبير .. وى اتدل لك ما قال .

وامسكت بذراعها فى رفاق .. وقلت محفزة :

— مئاسفة يا سلمى .

ولحبت سلمى بانها احدثت على " ، مفاقت فى لهجة رفيعة :

— ابدأ يا سبير .. انا المئاسفة .. لانا اعفرك .. ولكنى وانت

اتنه بغير .. لو كان قد حدث له شيء لما اغضى على ريفس .

ومدت اناراجح من الطماينة والفاق ، وقلت لسلمى فى إحدى

نويات الطماينة .. والسعادة فلا جوانمى :

— لشد ما ظليته ابنى يا سلمى ، لا تدوين كيف ككت حالى .

— بل ادرى .. ككت اثنى ان اعمل لك شيئا .. ككت اثنى ان

لدهب إلى الجبهة لأحضره إليك .

وشمكت قلقة :

— تخميرته من اثنيه كما قال ابنى !

— أحضره فى سلاسل كالاسير ، واتسعه بجوارك .. ولا تنك

تبهده ، حتى يشده إليك المالكون .

واسلطت افحك فى صفاء ، ولما اتصورك فى كل هذه المنظر

تساق إلى مرة من ادنيك .. ومرة بسلسلا كالاسير .. لا يلك اسرك ..

سوى قهد ابدى يشك إلى " .

وتبل ان تنهى ضحكى .. رن جرس التليفون ، ومددت يدي

الى السبابة مضاللة :

— آلو .

ورد على " صوت " حسن " قللا :

— سبير .. صباح الخير .

واجبت فى تلق ، ولما اثنى فى صوته لهجة المضطرب :

— صباح الخير .. ما لغيرك ؟

— لىن ملبا ؟

— موجودة .

— دعينى لحنها .

وكنت " خالنى " قد اقبلت .. مهلت بها ثقلة :

— حسن يودك .

وامسكت " خالنى " بالسبابة لتتساوى :

— آلو .. نعم يا حسن .

ولم اعرى ما قاله .. ولكنى رايت علامات الدهشة والعزع تدو

على وجه " خالنى " وهى تهتف :

— من قال لك ؟

وبدت ارفع السمع علتى التتظ ما ياتى من الملمبة الاخرى من

التليفون .

ولم اسلمح ان اعرى بلدا يتول حسن .. ووجدت " خالنى "

تضع السبابة بعد ان تقول بسرعة :

— سأتى إليكم حالا .

ومعنت بها ولما احس رجسة تسرى فى بدنى وسكاد تتركى

بلا حركات :

— بلذا حدث ؟

— لا شيء .

— إنى إلى لىن اتت ذاهبة ؟

— إلى بيت فافية .

— ليه ؟

— لأزور أم فافية .

ومدت آلى فى مصيبة كشفت من انفعلى للشديد :

— لىذا ؟

وردت " خالنى " فى صوت مضطرب :

— حمى قد اصيب وتظوه إلى المستشفى العسكرية بالزرة .

وحاولت جهدي أن أتمالك .. وغسلت شفتي حتى لا تنطق
الصرخة .

وحاولت أن أردد ريتي لأنطق الدمع الذي وثب إلي مبتلي ولكني
لم أستطع . ووجدت الدمع ينزل من عيني ، واحسست أني أوشك أن
أحتق .

ودلريت وجهي نحو الحائط .. حتى لا يرى أحد ما بي .

وكانت « خالتي » قد غارت الخرفة ، وانشغل الجميع عني
سابقا المزيج ، ولم يبق معي سوى « سلمي » .

وتركت سلمي بمفردها وجلست على حافة الفراش ومدت يدها ترتب
كتفي إلى حنان وهي تهمس قللة :

— سوبر .

ولم أحس دفعة على التنطق .. كان صوتي محتقفا .. والدموع
تساب بلا توقف .. وجسدي يرتجف .

وعادت « سلمي » ترتب كتفي في رفق وهي تتألمني :

— سوبر . لا تخشي شيئا .. إن الله معنا .

ومعت أعص على شفتي أكم المرخلة التي تتعالى من بلاتي .

ولم نجها .. وأخفيت وجهي في الوسادة ، وأتكتشت كتفي
أحاول أن اتلي لمحة توشك أن تهوي علي .

وحاولت جهدي أن أكم الانفعال الشديد الذي أصبني به الفلحة
الفلحة .

كنت أخشى أن يعود أحد إلي الحجرة ليجدني على هذه الحال من
الانهيار .

ومست منرة وأنا منكشفة في الوسادة .. ارتجف وأنا أحاول أن
ألم أعصبي وأشد نفسي التي لمست بها تنهوي .. ويد سلمي

ترتبت كتفي في رفق دون أن تحاول أن تنطق بمد أن أحست مالا جدوي
من كلامها .

واحسست بخطوات تقترب من باب الغرفة .. وقالت « سلمي »
وهي تتعصب شعري :

— سوبر .. يجب أن تمالكني .

وقلت لها وأنا ما زلت أخشى وجهي في الوسادة :

— لا أريد أن أرى أحدا يا سلمي .

وكانت خالتي قد أتت لتأخذ مغطيا وتخرج في حجلة .

وساد الهدوء من جديد .. بعد أن تباعدت خطواتها وسبعت الباب
الخارجي ينفق وراءها .

وعادت سلمي ترتب كتفي وتقول في رفق :

— تعذلي يا سوبر .. قولي شيئا .

واستمرت إليها وأنا أحس أن الانفعال المفاجيء قد خلفت حذته ،
وأني قد استعدت — إلى حد ما — قدرتي على السيطرة والتناسك .

ونظرت إلي « سلمي » وقالت في صوت خافت :

— أحس أني أكره نفسي .

— له ؟

— كنت أحاول أن أفرس على نفسي مشاعر كرهه .. لشدة
ما ظلمته .

— لقد فعلت هذا لأنك تحبينه ؟

وكانت « سلمي » على حق ، ونسيت لو استظمت أن أراك وأن
أحدثك .. وأن أسمع لك من كل ما بي ، أن أقول لك ما أقوله لنفسي

.. بلا هرج .. ولا خجل .

نسيت وقتذاك .. أن أذهب إليك .. لأخاطبك .. وأشد جراحك ..
واسبارك ، واحسست بشقي وأنا أجد نفسي مجبرة من التهور ..

وكرحت نفسي لأنني نسيت في سقطة الأمل .

واحست « سلمي » بما يفعل في نفسي فقلت في حباثة :

— إن طول رقتك . غدا أو بعد غد فذهبين لزيارته .

والجسست ان غذا .. بعيد .. بعيد .
كيف يمكن ان احتيل تلك الساعات الطوال .. دون ان اطلب على
سلامتك !

وقلت لسنلى واتا ائيليل على الفراش :

— غذا .. او بعد غد .. من بشرى .. كيف يكون ؟ !

— سيكون على جبر حال .

— كيف اعرف ؟

— سادهب اليه واطيئك .

— سنكنين على ؟

— ايدا ..

— لقد كنت على .

— انا ؟

— اجل .

— متى ؟

— عندما تل لك ريلضى انه مصاب .

— لم يقل ريلضى هذا ايدا .. لقد قال انه لا يعرف .

— ايس سندهبين لرؤيته .. وتقولين له ابنى سأتى اليه بمجرد
ان اقتدر على السير .

— اجل .

— وشئيتى كيف حاله ؟

— طيبا .

— بلا كذب ؟

— ان لكذب عليك ايدا .

والجسست يوقع اقدام ابنى تقترب من الحجرة .. ورايته ينفذ
اماسى ، وقد ارتدى ملابس وهو يقول :
— سلاذهب لزيارة حيدى .

ولم اعرف ماذا اتول له .. ومن نظرته الى عيسى وبها اثار
الدمع .. احسست انه يعرف الكثير من مشامرى .

ودون ان اساله شيئا قال لى :

— انه يغير .. وساحيل له تحياتك .

وترك ابى الحجرة .

لقد بنحى احساسا بالطمأنينة ، لم يكن يقدر عليه سواه .

وتابعته بمبنى وهو يمر الباب بغايته الطويلة وكتابه العريضين .

وازدردت ريلضى ، اطلع بقايا دمع هم بان يطر من عيني .

ولائى شعور بالامان فى ظله .

ما اجل ان تحس بقرسان بحك .. يشعر بك .. بكل ما تحس ،

دون ان تكلف نفسك مشقة .. فنج شغيتك لضفى له بكلمة واحدة .

وأحبست برجلة تسرى في بدني .. تطلع أطرافي .. وتصيني
مكتنجان .. وأنا أنصور الشظية تترك كتلك .

وتساعت لي صوت خالت .. وأنا أتهوى في فراشي :
— أهلك خطورة عليه *

وكي « أسي » قد اقبل من الباب .. وقيل أن يرد « حسان » هتف
بطيننا :

— بالمره .. لقد تركناه في خير حال .. كل ما أصبه جرح في
كتفه .. لا يلبث أن يتصل .

وعاد « حسان » يزور في أسي قتلا :

— ليس عليه خطورة .. لقد لطف به الله .. إن جرحه لا يلبث
أن يتصل .

وصمت برهة ثم أوقف قتلا :

— ولكن الجرح الذي في جصفتنا جديدا .. ما زال يفر .. الشظية
التي أصابت « حدي » بالأس .. ستصيب ليرته قدا .. إلى المشكلة
لم تعد مجرد أرض مسلوقة أو عرب مشردين .. إنما هي حنجر مغرور
في جانبنا .. إما أن ندفعه عنا .. أو يصل إلى قلبنا .. إما أن نلقه ،
أو يقضي علينا .

ولم أستطع أن أكلمك « حسان » تفكير .

كل تفكيري مجسورا في نطاق خيبي .

جرح الوطن العربي لم يكن شافيا الشامل وقتذاك .. إنما هو
جرحك أنت .

وعدت أسال « أبي وحسان » ملهما ينبئني بها يهديه خوحي
عليك .

قلت اتصال في صوتي الخافت المضطرب :

— أحو في وجهه ؟

ورد « أبي » مؤكدا :

دم عربي

مضت بشعة أيام وأنا راغبة في الفراش .. انتظت انبثاك .. من
أهواء الزوار .. من الأمل والأصغاء .

وكان « حسان » أول من دخلني منك .

أقبل عليّ في الظهيرة يسألني من حالي ومن أخباري .

ولم يكن لدى الحديد ما يقال .. وإنما كنت اتوقع أن ينبئني هو
بلمبارك التي كنت اتوق إلى سماعها .

ولم أجسر بالطبع أن أسأله ، ولذت بالسميت حتى يبدأ هو الحديث .
واستقر على مقعد مريح بحواري وبد سائته بعد أن خلع سترته
ونك قميصه .. وقال وهو يهز رأسه هزات بطيئة :

— ربنا يستر .

وقيل أن استنصر عما يقصد استطرد يقول :

— كان من الممكن أن يضيح .

وسرى الفوف في نفسي وأنا أعرف أنه يقصدك بالضياع .. وتركرت
كل مشاعري في أذني وأنا أنصت إليه فلم تدار وعينين محيلتين .
وأردد يقول وهو يزور زفرة قصيرة :

— أصابه الشظية في كتفه فأحدثت شرا في عضلات الكتف ..

لو اتعرفت طيلا إلى أعلا أو إلى اليمين لأصابت عنقه لو صدره ، ولكن
ربنا لطف به .

— طبعاً .. لقد تحدثت إلى .. وسألني منك ، واعتذر من عيالي
من الحفل .
وقال حسن :
— كان في مر المعركة .. لقد أكد لي أنهم اصطوم علقه سائمة
.. لن ينسوها أبداً .
ولقبت علينا « نسي » وهي تقول :
— ربنا لا يميدها .. ولا يرى أحداً مكروها في شناه .
وجلست على أحد المقاعد وهي تتنهد ثقلة :
— ربنا لطيف .. بمسكونة لم يجدى .
وسألتها في إغراق :
— ألم تطمن عليه ؟
— حتى أطبقت .. كل منهما قد جلد .. مخذ لن بلغت بإسبغته حتى
رأته في فراشه .. كتبت في عداد الموتى .
وقلت أستدرج « أسي » علماً تخفى مزيداً من الطمينة :
— وكيف رأته ؟
— الحمد لله .. ربنا سلمه .. لقد كل باقي الإعيد .. بصبر
الوجه .. ولكنه في كليل وحيه .. لقد تحدث إليها وطبقها .
وهكذا أخذت لتتطأ أتبائك في أثناء ردتى ، والتفتت من خلالها
سؤالك متى .. حتى استطعت التهوؤ أو على الإصح حتى عزمت
على التهوؤ .
وفي فراة نفسى .. كتبت اتوق إلى التهوؤ من أبطك ، ولكن كثر
على أن أندرغ بنسباء كثيرة لكى أحمل معارضى الفرائى أمراً طبيعياً .
وبدأت أؤكد أن سألنى قد شغيت .. وأنى قد ضقت درعا مفرقة
وأن معاصرات كثيرة ستقوى في الكلية .. ولابد من الذهاب حتى
لا يفسح العلم على .
ودأت صراح تركت الفرائى فعلاً ، وأخذت في ارتداء ملابس كى
أشعهم أمام الأمر الواقع .

وتناولت الإسطر وذهبت إلى الكلية .
ودعشت « سلسى » من حضورى .. وأقبلت على فى غرة تقول :
— حمد الله على السلامة .. اشغيت سالكك تلمبا ؟
وأجبت صاحبك وأنا أحس بيمضى الأثم فى مفضلى .. وأنا أسير :
— تقريباً .
وتسألنى « سلسى » فى شوق :
— لماذا تمجلت التهوؤ ؟
وأجبت وأنا أسير بجوارها متجهين إلى مبنى الكلية وقد أحسست
بريح الصباح البارد تلسع أطرافنا :
— ضقت بالمرقة .
ويدا لى أن « سلسى » تكرب إلى فراة انكرى منها إلى تتبع الفاظ
حقيقى .. لقد تسالطت ببساطة :
— ما هي اختباره ؟
ولم أشك أن السؤال مائد عليك ورغم أنها لم تذكر اسمك
.. فقد كتبت تشغل ذهنى وتفتاك .. كيف ساجير أمر زيارتك .. وكيف
ساجدك ، ولماذا سألوك لك ؟
وأجبتها بتفس البسطة التى سألنى بها منك :
— الحمد لله .. لثقته يتحسن .
— متى تنوين زيارته ؟
— ربما اليوم .
— ربما ؟
— أسمى أرجو أن أستطيع زيارته .
— وماذا يمتك ؟
— أريد أن يصطحبنى أحد .
— اصطحك أنا .
— وأريد أن أخبرهم فى البيت .
وضحكت « سلسى » ثقلة :

— إذا أخبرهم .. لا تظن أحداً سيعترض على زيارتك لمريض .

— بالطبع لن يعترض أحد .

وكانت المسألة تعالاً بسيطاً مما انصهر .

لقد كانت مجرد زيارة مريضة .. بالنسبة إليهم .

ولكن هل كانت كذلك .. بالنسبة إلى ؟ !

قطعا .. لا .

لقد كانت زيارتك .. تنفّس بالنسبة إلى .. أشباه كثيرة ..

كبيرة .

كانت لقاء الغائب .. الذي كنت ألهس من لقلقه .

بني كان آخر لقاء بيننا ؟

يعيد .. يعيد .. في سورة بيتنا .. حين قطعنا إلياسين .

وسمينا « أسهار » .

لكنني مه .. من لمرط بعده .. قد أغشى تاريخنا .

وارتبيت بعده في ظلمات إلياس ، والشك .

إلياس من لقلقه ، والشك في أمرك .. شكاً ظلّ يردّد حتى بلغ

حد اليأس من ضبابي عنفك .. إن كان لي في لحظة من اللحظات وجود

في نفسك .

واكتشفت بعد ذلك ظلمي إليك .

وأجسست أنني انتقلت من هوة إلياس والضباب .

وكان عليّ أن أتذكّر لأؤكد ذلك لنفسي ، ولأؤكد لك .

كان لغاؤك إذا .. شيئاً أكثر من مجرد زيارة مريضة .

من أجل هذا كنت ألهس له برهية ، وخشية .

وكنت أفضّل الناس كلهم يروونه كما أراه .

والثابت باتية بعد ذلك في بهو الكلية .. وهي تفادى إحدى

قاعات المحاضرات .. وأقبلت عليّ في لفنة وفرحة تتسائل :

— سهر .. كيف حالك ؟

— الحمد لله .

— هل شغيت مسألك ؟ !

وعدت أكرّم : « الحمد لله » .. وأنا أبحت في ذهني عن منبذ إلى

الحديث منك وتعبير أمر زيارتك .

ولكنها كانت أسرع مما في إيجاد المنفذ ، وتدمير الفرصة .. فقد

خالت في حيلاسة :

— سهر هدي كثيراً برؤيتك .

وسرت بجوارها تحاء حجرة الأساتذة ، ووجدتها تجلّ برأسها

إلى « هابسة » :

— اتعرفين أنه كان عاتياً عليك لمعم زيارتك إياه ؟

وأجسست بسعادة وأنا أسمع نياً عنفك عليّ .. وقلت أتواصل

في دهشة :

— ألم يخبره أحد بلقي رائدة ؟

— في أول زيارة .. لم تكن هناك فرصة لإخياره .. كل في حالة

إعجاب شديد ، وكنا في قلق عليه ، ولم نستطع أن نطيل الحديث معه .

ونظرت إلى « نادية » بطرف عينيها مظرة ماكراً واسترسلت تقول :

— ومع ذلك فقد أجسست أنه يبعث بيتنا من شيء ، وإن في عينيها

نظرة حيرة وفلق .

وتفككت بشوة وأنا أحس أنني ذلك الشيء الذي بحثت عنه في

رقعتك ، ورتعت عيني إلى شمتي أخذك التمتع منها المزيد من الحديث

منك .

ونزلت « نادية » أمام باب الحجرة وقالت وعلى شفتيها ابتسامة

مربضة :

— في المرة التالية .. لم لك أدخني للسلام عليه حتى همس في

أذني .. أين سهر ؟

وهتنت بلا وهي :

— وماذا قلت له ؟

— قلت لك أصمت بالنواء في فمك في نفس الليلة التي أصيب
بها .

وبذهن شارد أتلقى بحثك في رقتك .. عدت أسأل في
شيء من البلاءة :
— وبماذا قال ؟

— بدأ عليه الأسى ، وسألني أن أبفك تحياته .

وتسألت وما زال ذهني يشرد وراءك :

— متى تتوب زيارته ؟

— بعد الظهور .. بمجرد الانتهاء من المحاضرات .

— المستطبع أن أذهب معك ؟

— طبعاً .. سأمر عليك مع « حسن » لأحذك من البيت .

وقد الرابعة كتبت مرة « حسن » تحية بنا في طريق المرة إلى
المستشفى العسكري .

ووقتها أعلم المس العتيق الموحش ، وقد بدأ سجر المرة على مخربه
منه .. وكأن الرد يحدد الأطراف .. وشعاع الغروب الأحمر الذي
تسلل من بين النصب المكتبة في صفحة السماء يبدو حافنا برمعها
كمصباح آخر الليل .. وشجرة حافة جردتها البرد كل ما تلك من
مظاهر الحياة .. قد وقعت تصارع الريح في تحافل يقاس ، وهواء كلب
ناش من بعيد لنبال النفس وحشة وانتباضاً .

وصيحت المعطف حول جسدي وحدث طائفة الصوف فوق ادس ،
وعبرت الممر المفضي إلى الباب الداخلي وراء « نادية » .

ورقت من البهو السببك الجدران ، الذي توسطته مدفأة غاز
بمنت في حوائطه بعض الفناء ، وأصاه مصباح كهربائي تكلل من سقفه
المرتفع .

وانظرنا هبة حتى أقبل ، حسن ، بعد أن وضع العربة جانباً .
ثم اتجهنا إلى حجرتك .

ولم أدر سبباً لتلك الرغبة التي ملأت نفسي وقتذاك ، والتي بددت
الإحساس بالهمة عليك والفرحة بطقك .

أهي تحريك الأيام المريرة التي قضيتها في مستشفى لندن والتي
لثرتها محرد وجودي في جو المستشفيات ؟ أم هو بنظر المستشفى
الموحش مثل ما يحيط به من كثافة وحشة ؟ أم هو غرط الانفعال الذي
يتركنا وقد احتطت في منوسنا الإحساس وتفاربت المشاعر حتى لم
نعد نرى بهذا نحن ولا ماذا نرجو .

وكتبت قد نظرت إلى نفسي في المرأة طويلاً قبل أن أغانر البيت
لأطش على صورتي التي سلكك بها ، ودفعني التناول أو الشرور
إلى الإحساس بالرضاء الملم عن نفسي ، ولكني لم أكن أحتار الفناء
المرد وأدخل إلى النوم ، وقد ضمت المعطف ولمست طائفة الصوف
الشهومة بالطرطور وقد حلت نفسي جبيلة عندما ارتديتها وأنا أغامر
البيت ، ولكن لم أكن أقترب من حجرتك حتى أحسست أني كثية ..
كثية .. وزاد إحساسي بالعرج وتعلت طرقت قدسي على الأرض ،
وأنا أوشك أن أحتار الباب إليك .. ووددت لو استطعت التكويس على
عقبى والفرار إلى البيت .

أجل .. لقد تراد في نفسي إحساس الصوف من لفلك لغير
ما سبب .. سوى غرط الانفعال حتى غلب على كل إحساس آخر ،
وجعلني أتمنى فعلاً .. لو استطعت الفرار منك .

وكتبت لكاري في ناحية ، وقضاي في ناحية أخرى ..

كأن الدهر بكل ما به من أوهام ومحاول .. يحاول أن يعدو بي خارج
المكل الحقيق الموحش دي المردان السبكة العالية ، وكتبت قدباي
تعلوالم الفطولات الأخيرة لتسوقاني إليك ، وتفساني وجها لوجه
لذلك .

ولم أكن أصرك .. حتى تظلمت المحالوف .. وتقدنت الأوهام .
نظرتك اللهي ، وملائم البشر والفرحة التي ملقت — أو مرحت —
بها تعلير وجهك .. وكيف هتفت باسمي لما كن وقع مصرك على .

لم تدع لي مجالا .. لصيق او شك .. او اى احساس بالخوف
او التسلل ..

كنت تجلس على مقعد كبير مريح .. وقد شئت ذراعك المصابة
إلى جسدك .. وبدأ عليك الاسترخاء والاشروء ..

والتيات عليك بتدعية في لهجة لا بعد منها حياة او تردد ، وشجعت
على بذلك السلوية وأبليت يدي في يدك .

والحسبت أن كلا ما تد احتاج لبعض الجهد .. لكى يقرر تحيته
على مجرد المساعدة .

ولو تركت نفسى انصرف سسلطة .. لصيبك إلى .. ووضعت
راسي في صدرك ، ونكيت طويلا .

والحسبت من عينيك .. بنظرهماما اللهنى ، ومن كفك .. بمسقطها
الريق الحنوء .. كأنك تصفى .

وقلت لي فيها بعد .. إنك أوشكت أن تشفى .. لولا بقية من
حياة وتردد .

والحسبت أن كل ما بين من حواس ، بهم بل ينطق لمقول لك شيئا
.. عدا .. لسانى .. مقعد بدا حثرا .. بين شفتي .. لا يعرف ماذا
يقول .

وكانت أندر منى على النطق . فقلت في حنان :

— حمد الله على السلامة .

واجبتك أبسط إجابة يمكن أن ينطق بها لسانى الحثر :

— حمد الله على سلامتك أنت .

وسلمت على « نايبة وحسان » ، وسألنا أن تجلس .

وجلسا حولك . وحين الصبت لحظة .. فقد عجز كل منا أن يقول
للاخر ما يمكن أن يفسح من حقيقة بشاعره .

لم يكن الكلام — حتى هذه الساعة — وسيلتنا إلى انقاسم .

كانت النظرات اتصى ما بيننا من وسائل التعبير .

والكيات الحلوة .. التى ما رلت أفكرها .. كبريات أمل نضىء

حيثى في ظلمت النايى .. لم تكن أكثر من تلحيحات من جيبك ..
لم تصل أبدا إلى حد أحاديث الأحياء أو مناجاة العشاق .

وقطع الصمت قول « نايبة » لك :

— كانت سبيل عاتية عليك لعدم جيبك يوم الفرح .

ورددت أنا ضاحكة :

— لم أكن أنصور قط أنه يحوز معركة .

ورحت أنت تنظر في عيني ، نظرك الحلوة المعجبة :

— ما كنى ينعنى من الحضور شيء أقل من معركة .

وصبت برهة كأنك تصعد المعركة في ذهنك .. ثم استطرقت
نقلا :

— كانت معركة هائلة .. كنا نتوقهما بين حين وآخر .. لقد
داب اليهود على بناوشتنا ليس تشفا بين آونة ولحزى ولقد بداوا
بدمعوى بجراراتهم لرعاة الأرض المروعة السلاح تحت حمالية
المصفحات الإسرائيلية .. مخالفين بذلك ترارات الهدنة ، لا سيما وأن
هذه الأراضى كلى يمتلك العرب الجزء الأكبر منها ، ولم يكن في قرية
التولايق سوى بعض السكان .

ونظرت إلى مساللا :

— انظك ررتها عندما أتيت للجبهة ؟

وهزرت راسى بالتمنى قائلا :

— زرت قرية ناصر الجديدة ، ورايت التولايق من بعيد .

— لقد نزل معظم سكانها .. ولم يكن قد نى فيها سوى بعض

السكان ، ولم تكن تعلم من المفاربات نوابا اليهود .. حتى لقيانها

بنهم ، ولم يبق بها سوى جماعة من المقاومة الشعبية ، وجلسنا نرقص

الأمق في بواقنا ، وألهم الليل ..

وهرزت راسك ، وقد شرد لك الذهن .. إلى أرض المعركة ،

وأردمت نقول :

— كانت ليلة عجيبة .. استمر السكون حتى يتكلم الليل ، وكنا نعلم في بواقينا .
ونظر « حسن » إليك باسماً وأنت تتحدث في اهتمام .. وتبادلنا
بلا :
— إذا كنت تتوى وصف الحركة ...
وانسيت وقت ضاحكا .. في شبه أمطار :
— إنها ملة ذهني .. لقد أكلها اليهود سافنة .
وأجاب « حسن » بآثها :
— اليهود أكلوها مرة وانتها .. الدور علينا نحن .. نأكلها في كل
زيارة .. هذه رابع مرة .. اسبح وصلها .
ورددت أنا في حماسة :
— أنا أريد أن أسمعها .
وأجاب « حسن » وهو يجر « نادية » من يدها :
— اسمعها وحدك إذا .. سنعود إلى سوق الصالحية لنلتحق
المحلات قبل أن نطلق وسنعود إليك قبل بضع ساعة .
ونضمت « نادية » معه واتجها إلى الباب غير ملتفتين بالآ إلى
قولك معترضا :
— انتها ، ولن أقول كلمة من الحركة .
ورد « حسن » وهو يخطى وراء الباب :
— لابد أن الحق القري ، ونادية تريد شراء بعض الأشياء من
السوق .. لن نذهب هناك .
وهكذا بدأ الابر سيق تدبيره بين « حسن » ونادية ، وأن تركنا
وهنا .. كان حطة برسوة .. عرف « حسن » كيف ينفذها بطريقة
غير متوقعة .. لقد كان خروجها طبيعيا وحاسما .
ومرت فترة ارتعك تصيرة .. لم يعرف أحدنا ماذا يقول ، ولما
بالصمت نستمتع خلالها .. يهرد الإحساس بأننا متنا وحدنا .. وأما
نستطيع أن نقول كل ما نريد .. إن جسرنا على قوله .

واستعدت لتفسي كل ما مر بين يدي آخر لقاء .. كل ما قاسيته من
معدك .. وما ساورني من شك فيك وبأس منك ، وقشيت أن أحكي لك
كل شيء ، وأصبح منك كل شيء .

تنبئت أن أذكر لك بومك حندي ، وأن أعرف منك بومتي عندك ..
من شفتيك ، وأصحا .. جليا .. لا مالمقرات ، ولا الطيحات .
ليس أسمع لمن يحب من أن يسمع من شفتي صاحبه .. أنه
يحب .

ولم أك أعرف حل كنت تجرؤ على قولها لي ؟

أنا نفسي لم أكن أعرف كيف أقولها .

الحروف ذاتها تبدو شتيلة .. باعثة .. خائفة الربيع .. إذا
قشيت إلى فخالة الحدث في ظولنا .. وأصواته المشعة حولنا ،
ورنين أجراسه المفرد في حنايتنا .

ولكن شيئا ما .. من شفتينا .. لابد أن تكون له القدرة على أن
يجبر من كل ذلك .

اللهم آمين على وصفه ، وبسر لك شرحه .. إن كان له وجود
عندك .

فما أخواتي .. إلى أن أحدثك عنه ، وما أشد لهن في على أن
أسمعه منك .

وخلفت وقع الأقدام المساعدة خارج الثروة .. وأجسست منك
تنظر لي ، وسحبت بسر من النافذة الزجاجية وقد شحبت الضوء
من ورائها ، ونظرت إليك .

والثقت نظراتنا الذاتية الألهي .

وبعدت ذلك .. تسالني كفى في صمت ناطق .

وودعت لو وضعت في كتك شيئا أكبر .. وودعت لو وضعت فيه

الروح المصطحبة بالأحاسيس بين جوانحي ، ولكنني لم أملك أكثر من
أن أمد كفي إليك .. لتستتر في كفك .
وسحتنها ببطء إلى وجهك .

ولم تقلها .. بل مسحت بها على شفتيك .. وخدك ، وحببتك ..
ومعنيك .. وظللت تسقط بها برق على وجهك وأنت مغضى العيون ..
وبدت كالعابد .. وقد استمرق في عبادته .. ونسى كل شيء من حوله
.. وانطلقت من صدرك تنهيدة حارة اتسبه بلاهة الصباغة .. وهبطت
بكفي من فوق وجهك لتسدها إلى كفك فوق ركنك .. ونظرت إلى
وهزمت رأسك ببطء وهيمت في صوت خفت كالك تعدت نفسك :

— جيل .. أن يبقى الإنسان حيا .. ليلقى شين جديد .
وسيت برهة .. وعندئذ تعلق تنهيدك التي بدت وكأنها تسبح الكثير
من الراحة والاسترخاء .

وعلمت شفتيك اتصاله رقيقة ، وعدت تهيس قللا :

— الحياة وحدها .. مجرد الحياة .. لا يكفى .. بغير هذه
الومضات التي تشع لتلقى الضوء في جوانبها .. ونيرنا بكل ما فيها
.. من جدل .. تصعب الحياة والعدم سواء .

وسمعت كك على كفي وأنا أحس أني أطلق في الهواء وردية
اللون .. حلوة الترويح ، وثنييت أن تتحدث وتحدث .

كنت كل كلمة تنبس بها شفتاك .. تفريدة .. لها في التلب
ترديد .

ولستطرفت تقول وأنت تنظر في عيني وضم كفي في كك :

— عندما قوى الالتفات بحوراي .. ومحدث يدي إلى كفي لأحس
بلزوجة الدم الساحر ينبثق من كفي .. تذكرتك .. تذكرتك في أسي ..
وثنييت أن أراك .. لأمر لك بأشياء كثيرة .. عجزت دائما من قولها
لك .. وبدت لي الحياة عزيزة .. من أجلك ، وعندما ألقت من غيوبني
.. هنا .. على هذا الفراش .. لحسست برحة ، لأنني ما زلت
أحيا .. ولأني سأراك ، وعندما أقبوا على ، انقذت وجهك بينهم ..

والحسست بالمرارة .. وأنا لثقت من معنيك بين كل العيون المظلة
على .. غلا لحدك .. وأصابني إحساس ألهم بالخيفة والخذلان ،
وغشت برقفتي ، وحياتي .. حتى انثريت على « نافية » فسألتها منك
.. وإنساني أنك رائدة لآتواء فمك ، وثنييت لو عدوت من الفراش ..
لأجلس بجوارك وأمسك بك ، وأحدثك .. كثيرا .. كثيرا .

ونظرت إلى معنيك وثنييت أن يتجدد الزمن .. لم أسمع أني أريد
من عيني أكثر مما أعطيت في تلك اللحظة .
وقلت لك هلمسة :

— إذا كنت قد حملت لحياك قيمة .. فقد بنحتني أنت الحياة ..
الحياة بملهمها الحقيقي .. لقد منحني الجرة لأن أطرق بابها .. بعد
أن كنت أكتفى بالسير على هامشها .

وبدأت تسفين بدورك بها أقول ، ورحبت تستدجني لأتخذ المزيد ..
وقلت لي وأنت تنظر إلى " كالمثل يطلب المزيد من الطعام :

— ومذا أيضا ؟

وتعدت وأنا أهرأسي هزات بطيئة قللة :

— ومذا أيضا ؟ ! .. أشياء كثيرة .. لا أعرف كيف أقولها لك ..

لشد ما عذفتي .

— أنا ؟ !

— أجل أنت .

— مني ؟

— منذ آخر لقاء لنا في بيتنا .. حتى هذه الساعة .

— كيف ؟

— نياك الطويل .. أثبت في نفسك الشك ، وأضاع من نفسي
الإيمان بكل شيء .

— مجرد الغياب يضل بك كل هذا ؟

— ليس مجرد الغياب .. وإنما هي الحيرة والضباب .. خلقت لي لحظة
من المخططات تحول تمنني .

ورفعت يدي وحسبعت بها على شمتيك وقلت في اسي :

— أنا احاول تجنيك ؟

واستطردت أنا اقول :

— وتتعهد الهرب مني .

— له ؟

— تراجمنا بما تورطت به محي .

وتسابلت وابتسالة عريضة ترسم على شمتيك :

— تورطى بمك ؟

واطلقت تهيدة صغيرة ، ثم استطردت تقول :

— إلى لم ألم بنسى ساعة التحطير إلا لاني لم اتورط بمك .. لقد

شمتت لو قلت لك شيئا .. شمتت لو حدثتك بشي، مما اشعر ، وكهرت

نفسى لاني مخلوق ماجر لا اعرف كيف امير عما احس به .

ومدت تبرز رأسك في دهشة .. وشكنتي قائلا :

— وماذا لهذا ؟

— وماذا يمكن ان يكون شرا من هذا ؟ لقد حسفت ليماني بكل شيء

.. لقد ملأني إحسانا بالدلة .

ومدا الأسي على وجهك وانت تصفط على يدي قائلا :

— لما فعلت بك هذا ؟

— ظننت انك فعلته . ولكني ظلمتك وأسأت الظن بك .. لقد

ظلمت انك لم تأت ليلة الفرح لتتعاثي لغامك بي .

— إلى هذه الدرجة ؟

— لا يمكنك ان تتصور ياسي تلك الليلة .. لقد هانت على الحياة .

— كان يجب ان تكوني أكثر إيمانا بي من هذا .

— إيماني بك لا حد له .. ولكني كنت أعتقد إيمانيك أنت بي .

— ومازلت تشككيني ؟

وهزرت رأسي سدا دون ان أنسى بكلمة .

وسماطت في رقة :

— رغم اني لم أكل شيئا ؟

— لقد تلت الأشياء كثيرة .

— لم أكل كل ما أريد .

— ولا أنا .

— كم اتننى لو استدلعت قوله . إنك تعين لي أشياء كثيرة في

هذه الحياة .. أكثر مما كنت أتصور من مخلوقة أن تمنحها .

وتسبت لو استرسلت في كلامك .. تسبت لو تلت الكلمة الحلوة ..

التي أخشى أن أقولها .. وأتنبى أن أسميها .

ولست ادري بما إذا كان من الممكن ان تعلق بها .. فقد قطع حديثك

بحول الخادم وحيل المشاء .

وحظينا بحوله من موق السحب الوردية التي رحنا نطلق نوتها ،

وشمنا إلى أرض العرصة السبكة الجدران .. العاقبة السلف .

وصبت من حديثك الرقيق الحالم ، ورحمت فرتب الخادم يرحى

مسحك الطعام فوق المائدة الصغيرة .

وكلي عليك ان تقول شيئا تتم به الحديث حتى لا يبدو دخوله وكثرة

قطع علينا حديثا لا يصح الجهر به ألبم النهر .

ولم يكن ألبامك غير حديث المعركة التي طردت به ؟ حصار وناحية ؟

.. والذي طعمه سجل المشاعر الذي جرفنا عنفنا وجعلنا أنفسنا وحديد ،

وانتجت لنا عرصة الكلام التي حرمتنا منذ آخر لقاء في بيتنا .

وقلت ببساطة وكذلك تتم محي الحديث الذي كنت تتوقله لي عنفنا

دخل الخادم :

— كانت ليلة محبة .. لي شهي صورتها من ذاكرتي . كان

الليل قد اتصف .. والسكون قد ساد .. والنوم قد بدأ يتسلل إلى

جنوننا في الواقع .. عنفنا سمعنا القوي يتوالى بصف ، وأدركنا ان

مدفعية اليهود وهولونتها قد بدأت تفك قرية التوافيق لتسمر تتقدم

بشاتهم ودياباتهم ، وكثقت مدافعنا على أجرة الاستعداد .

وحذت من موق دولااب صعير نوتة وتلما ، وبدأت تخطب لي مواقفكم

ومواقع اليهود .. وكأني تقدمه مسكينة ، ورسمت لي الحدود وبحيرة طبرية ونهر اليرموك .. وقرية النوايف وقرية ناصر .. وكنت أذكر المنطقة جيدا ، وبدأت تضع مواقع مخيمينا .. ومواقع مخيمية العدو . لم أختل رسم مسحا بين تقدم اليهود ثم مسحا آخر بين الهجوم المضاد لقواتنا .. واسترسلت تقول في جلسة :

— وانطلقت بدافعنا لتدق مصفحات العدو .. وتدمرها شر تدمير .. ثم بدأ التركيز على المستعمرات الإسرائيلية المجاورة فأصبحت شحطة نار .. حتى أصبح الليل كتلة من الجحيم ، وعلى ضوء الفجر تقدمت كتيتي المشاة المرافقة هنا .. فالتصقت مع القوات الإسرائيلية المتقدمة ، ودمرتها وطردتها من الأرض المزروعة ثائرة ورادها مصفحاتها المحترقة .. وأحسست والشمس ترسل شعاعها وقوات اليهود ترتد مهزومة لأننا نملأ شيئا أكثر من مجرد معركة .. لقد بنت وحدة جيوشنا العربية رائحة .. لقد أمتزج دم المصري بدم السوري .. ليؤكد وحدة المصير .. وعندما هوى الانفجار بجوارى .. قبيل انتهاء المعركة .. وأحسست بالغماء تقرب من كفى .. وبالضياء يخيو من عيني ، وأحسست بشبح الموت يقترب مني .. لم أشعر أبدا أنني أموت في أرض عربية .. وأحسست أنني أموت بلرسي ، ولذائع عن أهلي .. لقد سح الدم المترج في المعركة كل إحساس بلن هناك بحربا وسوريا .. بل هناك عربى يحوش معركة المصير .. ومعركة المستقبل .

وأحسست أن حديثك الذي بدأت لتدبر به قصة حديثنا الخاص .. أيام الضام .. قد أخذ يفتقد من أحيائك .

ومضت في حديثك ، وأحسست بك محلصا لي كل شيء ، مخلصا لي مشارك الخاصة .. مخلصا لي بمشارك العلية .

وصنيت لو أبسك كلك وأرغمها أنا إلى شفتي ، ولكن الضام كان ما زال يتسكك حول التفتدة .

وأقبلت « حسن ونادية » في ضوء من المصطفة . وقالت نادية :

— تلغشنا عليك !

وحرزت راسي وقتلت بإحلاص :

— أبدا .

وقال « حسن » ضاحكا وهو يرى الرسم الذى خطلته على الورقة :

— انتهيت من شرح المعركة !

وأجبت ضاحكا وأنت تشير إلى الرسم :

— شرح بالرسم .

— يجب أن يعينوك مدرس تاريخ عسكري .

وشعكت قهقرا :

— لقد كنت !

— من أجل هذا تهب شرح المعارك .

وأردت « نادية » ثقلة :

— وخوضها .

وقال « حسن » وهو يشد على يديك :

— هيا بنا .. سنأتى إليك غدا .. أتريد شيئا ؟

وقلت وأنت تنظر إلى نظرتك التى تشعرنى بالغم :

— يتشكر .

وأجبت على نظرتك مؤكدة :

— سبازورك معهم غدا .. إن لم يضلتيك .

وأجاب « حسن » في ضحك :

— يضايقه جدا .. إنه يريد زبائن جدد يشرح لهم المعركة .

وشحنت على يديك بودعة .

ومدت إلى البيت .. بله نفس إحساسى بلل الحياة .. رجبة ..

رجبة .. والطريق واضح .. واضح .. والأفق مشرق .. شديد الإشراف .

والحسنت التي أريد أن أحدث إنسانا عن كل ما لقيت .
 منك .. وعن أملاكك .. وأثراك .
 ولم أجد أحدا أحسنه .

فاستلقيت في الفراش ، مفتوحة العينين .. وأخذت أستعيد ما كنت
 لي .. كليم .. كلمة .. والحسنت عيني .. لأرتج في أحلامي منك .
 واستيقظت في الصباح لأكثر فبك من جديد .

وفي أول فرصة سانحة .. ورغم إحساسي بالاكتهاء بكل ما لقيت
 منك .. وجدني أحدهم لزيارتك .

وبدأنا مرحلة جديدة من علاقتنا معا .. وانفجرت صلتي بك بطورا
 أكثر وضوحا ، وبدأنا نعلم لأنفسنا .. وسلم لنا من حولنا ببعض الحقوق
 .. التي لا يعرف أحد من أبي استبدت وجودها ، ولا على أي
 أساس سلم بها .

قد يكون الإحساس بأننا معلمان .. يجد كل منهما في الآخر ..
 نوعا من العزاء والراحة .

وقد يكون التسليم بأنها بداية .. شيء جاد .. يمكن أن يربطنا معا .
 وقد يكون إحساسا غرضنا نحن على من حولنا ، نجلسا من
 شعوب المشرق .. المستقر في صدورنا ، والذي لابد قد تم عليه ..
 مظهرنا .

الهم .. أن الناس قد سلخوا لنا به .
 سلخوا لنا بأن أزرورك وأجلس بحوارك ، وتحدثت معا .. دون
 أن يشاركنا أحد الحديث .

سلخوا لنا بأن أطلبك في الطيفون وأسل منك . وأجرك اني
 سأتى إليك وأحضر لك كذا .. وكذا .

سلخوا لنا بأن نسال عن في الطيفون .. فيحضرنا إلى "الطيفون"
 في الحجرة ، ويدعوني أحضرك كما أشاء .. دون أي تعليق .. يتم
 على الخيق أو الحرج .
 وحرحت من المستطفي .

سيدة الناس

هشت بعد لتلك في المستشفى أجمل أيام هري .

وكنت أكنى من حياتي .. ومن آمالي .. بذلك القدر من السعادة
 الذي وجته .. حتى لم أجد أطلب أكثر مما حصلت عليه .

لقد وصلت إلى حال من الاكتفاء والتشبع .. بحيث كنت أستغنى
 من كل شيء .. حتى أنت .

مبالغة بشحنة !! .. اليس كذلك ؟

ولكنها .. كانت .. إلى حد ما .. إحساسي وتذكرك .

لقد تركت باب حجرك ولاء نفسي إحساسي عجيب بالمسكنة
 والطبائنة .

أخذت من حياتي .. أكثر مما كنت أعلم به ، وألمح فيه .

أخذت حبك الواضح الأكيد .

وكان عليّ أن أقتضيه .. وأعدو به .. لأخيه في صدري ،
 ولتبه عادات الزمن .. وهيون الحساد .

— لا أريد أكثر منه .. أبدا .

ضمة يدي في كفك .. ومسها شفتيك .. وجيبك وعيبك .
 وضغطها وجهك ، وشهدتك الطويلة .. الحارة .

كل هذا قد عبر عن أشياء عظيمة .. ما أظن الكلام .. أي كلام
 .. كال يمكن أن يبرر عنها .. أو ينقل حرارتها وبعثها وإخلاصها .

فتركك أيلتذلك وأتا إليك مصيدا من السعادة .. كان له أن يمنيني
 منك .. أنت نفسك .. أصل هذا الرصيد .. ومبع تلك السعادة .

وتحدثت زيارتك لنا .. ريات يعير دعوة ، ويعون استعداد ..
وعلى غير موعد .. كما يعمل اقرب الاقرباء ، ولصدق الاستعداد ..
وسهرت معنا .. وتمشيت عددا المشاء البسيط الذي مثاوله ..
دون ان نمرج « أمي » لأنها لم تصنع لك وليمة .

وانكر اول مرة زورنا بعد شفاك .. وكانت بشاير الربيع قد
حلت .. بنسمة دائنة تتسلل خلال ربح الشتاء المذبذبة .. وبراعم حضر
تبت على العصور .. كأنها تتدرب البقطة بعد طول سمات .

واسمعتك « اسهل » بلا زور .. وجلست تصمت إليها بنشوة
عجيبة .. و « أمي » جالسة على بعد خطوات شغل يبريقها اللتي
لا تجلس دونها .

قلت لي هيا :

— هذه الأمنية تس شيئا لي باطني .

وردت عليك لي صوت خالت :

— إنها أكثر من أغنية .. إنها شريط مصور .

— بعرض مليا أجمل الذكريات .

— أمي عندك كذلك ؟

— اتصالي للمعرفة ؟

— بل للاستمتاع .

— كل ما له علاقة بك .. بشكل لي نفسي أجمل ذكرياتي .

وفق جرس الباب ، وأقبل « أبي » يرحب بك ويطلب العشاء ..
وبدا على « أمي » الحرج .. وهي تعلم ان « أمي » لا يستطيع ان يتناول
العشاء يعير بشركتك .. وتعلم كذلك انه ليس عندنا ما يستحق ان
يقدم لك كدعوة عشاء .

ورأي « أبي » التردد المادي على « أمي » وأدرك انها مستحضر
إلى المطبخ .. وترسل إليه « الحادية » متدعوة إليها لتجبره انه ليس
لديها مشاء لائق .. وتطلب منه ان يرسل السائق او يهبط هو لكي
يشترى ثمانية تمدها له .

وحتى لا يدع الفرصة لها لكي تدبر أمرها .. قال ضاحكا :

— لا تتولي ليس لديك ما يستحق ان يقدم لضيفنا .. حدي .
لفضي واحدا من الأسرة . سيأكل معنا ولو محذرة .

وهزت « أمي » رأسها بسسجلة .. واجابت ضاحكة :

— ليس لدينا فعلا غير المحذرة .

وانت أنت إلى « متسائلا فعلا تكون هذه » المحذرة « التي توى
« أمي » ان تطعمك ليها .. فأجبتك ضاحكة :

— لا نرفع هكذا .. إنه طعام شمس ابيه جدا .. إنه شيء لئيبه
بالكشري عندكم .

وقلت ضاحكا :

— أنا أيضا أأهيه .

وتمشينا سويا .. بلا غريب بيننا .. أمي وأبي ، وأنا وأنت ..
وتلكني إحساس بريح وأنا أشعر أنك أصبحت فردا منا .
ومرت بنا الأيام بعد ذلك .

أتراني من حاجة إلى ان أفكر بكل خطوة سمادة وشفاها معا .
أنت تذكرها بلا شك ، تذكرها كما أفكرها .

تذكر أباينا الخطوة .. وحياتها السهلة المريحة .. إذ لا يمتينا
عينا .. حتى الفراق .. لقد كان فراقا .. إلى لقاء .. وكفى انتظار
اللقاء والإعداد له .. تكاد تصل بمحضه حد اللقاء ذاته .

وعندما كان بموتك من المحرمة عائق .. كنت تعدلني لتعثر إلى
حق لي عليك .. بلا حرج ولا خشية .

وكنت أحيانا أسأل منك ، وكفى اقرب الناس اليك ، وأعلمهم
بك .. كانت « أمي » تسألني عما إذا كنت ستحضر هذا الميضي ..
لم سبقتي للتوجيهية .. وكنت أجيبا بلا حرج .

وقلت ملائتنا الطيبة .. سليمة واضحة أمام أنفسنا وأمام الغير ،
وسلم بها من الجميع دون ان نتخذ لها شكلا رسميا .

وذهبت إلى مملكة المياه ، وودعت برهة أربح المياه تتدفق في منف
وغزارة .. كما نمودت أن أرتبها بمد الطفولة .

وسمعت صوت عربة تنقف بلب البيت ، والتفت إليها لأجلك
وحسان تبطلان متما .

وتست لو استطعت أن أعود إليك لأتلقى بك وأضرك إلى نفسي .
يوم طويل جميل .. ينتظرنا لكن نتفج به سويا .

ما أجمل أن يطأ على لك الزمن مستسلما لتبطل صبرته .
ما أجمل أن يسلس لك قهواء ، ويذهب بك إلى حيث تشاء !
جميل أن تجد أبليك سهلة طيبة .

ولجل منها .. أن تجد من حولك برعما للسعادة .. ترح فيه
بأهلك الطيبة ، وترعى فيه وتهل من نبعه .. فون خوف من نللك .
أتراني أهذي !

ولم لا ؟
أنهذي من فرط الألم ، ولا نهذي من فرط السعادة !
أيام حلوة .. يا ...

ودعنت لو أقول يا حبيبي ، ولكني أحس بالحياء من قولها .
كنت أقولها لك بمعنى ذاتيا ، واستسبل لمعنى السبت ، ورك
لعيني عبء التعبير .

والآن ، وأنا لا أراك .. كيف أقولها !
وقد تمود لساني السكوت .. وأستعرا الحياء .
سأقولها جسي وبين نفسي .. ولعلك تلتفتها بحسك الذي لا أشك
في فرط رهاقها .

بلذا كنت أقول !
رابطك تهبط من العربة .. وودعنت لو أعود إليك لأتلقى بكتفك
.. وأضرك إلى ..
ولكني أكتفي بأن أعتك بك صالحة :
— حيدى !

ولم يفلتي هذا .. عقد كنت في حالة من الرضا والسعادة ..
بعيت لم أشعر أني أطمع في أكثر مما أحصل عليه .

كنت أشعر نيلها بموقعي عندك ، وعليت بسمع مرات أنك رفضت
الانتقال إلى القاهرة .. من أجل .. بل وأكثر من هذا .. عليت أنه —
حتى في إصابتك — رفضت أن تترك دمشق ، وتصلح في القاهرة ..
إصرارك علي أن تبقى قريبا مني .

وكنت أشعر أني أستطيع أن أعيش حياتي هائلة .. بمجرد ..
لطمنتني إلى حيك ، وثقتي في بشارك .

وقد يكون الأهل من حولنا قد باتوا يتسألون عينا بينهم وبين أنفسهم
.. مني نتخذ خطوة لإجانية لكي نربط مصيرنا معا .
ولكني لأؤكد لك أني لم ألتق ولم اتسائل .

حتى اتحدث أنت هذه الخطوة .. عندما رقيت إلى رتبة « رائد » ..
وانتيت إلى .. وعلى كتفك نمران بدل للتجوم السبت .. لتؤكد لي أنك
تسهر لك قد بت أهلا لي .. وأك تشتمطيع أن تنشئ لي بيتا ، وأن
تتكل لي حاجتي .

كان ذلك في شب القسيم عام ١٩٦١ .
وكتب قد حدثتني في الثيلون يوم الأحد لتعبرني أنك ستأخر حتى
الغد .. وقلت لك إنما سنكون في « الخطوة » .. وسألتك أن تحضر
ميكرا حتى لا يضيع منا اليوم ، وحتى نستطيع أن نجلس سويا قبل
أن يحضر خيوفنا الذين دعوناهم للغداء .
وهبطت من البيت مبكرة قبل أن يستيقظ أحد .

وكان يوم محبب .. بدا لي فيه أن كل نيت الأرض قد أخرج رهرة .
وأن مساندته حلال قد اتبعت بين الياف على ظير الأرض .. حتى
أحتس وجه الأرض الأسمر وراء صحبة الألوان المعجبة التي كنت
العشب والشجر .

وتبعت أن تحضر بسرعة .. لتري ما أرى ، وكأني بموكب الحبال
سيرهل بعد لحظة .

والثقة إلى - ولما أتت على مقربة من العريشة .. وجدت في عبيك
الفرحة واللذة .
وأشار لي حسلى ونداية محبين . ودخلا إلى البيت .. وانجبت
أنت إلى .
وولدت ابني .. فتعق لي .. وشعرت بلحياه من نظرك ..
لقد أحسست مرة شغفك من بعيد ، وحدثت يدي ثقالة :
- ألا تنوي أن تسلم ؟
وحدثت أنت كعبك تنم بهما يدي .. ونظرت حولك تتأكد أنما وحديما
.. ثم رفعتني إلى شغفك **ثلاثا** :
- صباح الخير .
وردت عليك وأنا أطلق تنبيدة راحة :
- أجل صباح رأيته .. كنت اتعجل وصولك لنسرح فيه معا .
وقلت لي وأنت تنظر في عيني ؟
- لقد كبرنا على المرح .
- لم أشعر أني كبرت بعد ؟
- يجب أن تشعري ..
- لماذا يجبرني على ذلك ؟
وقل لي ترد علي - أبحث النسر من يبرقان على كتفك .. غيبتك
بك ضاحكة :
- طارت النحوم من كتفك ؟
وأجبت بطريفة حاولت أن تتصع فيها التوفار :
- وحط النسر عليهما .
- وماذا تفرك ؟
- حلقة تلوذ .. وضابط عظيم .
- أين أجل هذا كبرت على المرح ؟
وأشرت إلى مصع شعرات بيبي ست في موديك وأجبت **ثلاثا** .
- وهذا الشيب .

- وماذا ليضا ؟
- وقدس التي تقف بلب الدنيا .
وهزئت رأسي مضطلة :
- لماذا نمئي ؟
وحسني من يدي لنجلسي بجوارك فوق أريكة العريشة ورددت
ثلاثا :
- ألا تحرمين ماذا يعني الإنسار عندما يقول إنه دخل دنيا ؟
- اسمي أنه ولد ؟
- يا عبيطة ؟
- المواليد هم الذين يدخلون الدنيا .
- والأزواج ؟
ورحدث المكتة على طرف لساني ماظلتها ضاحكة :
- يخرجون منها ؟
وانطلقت تلهقه **ثلاثا** :
- يهون الأبر على الشريك الذي سيدخل معه .. واحد يدخلنا .
وأخر يخرجنا .
- وأنت تضع قدمك على باب الدنيا ؟
- أجل .
- ومن أجل هذا نطن نفسك كبرت ؟
- أجل .
وهزئت رأسي مؤكدة :
- ولكني لا أشعر أني كذلك .
- يجب أن تشعري .
- لماذا ؟

— لآنك أيضا تفصيح قديك بجوار قدي .

ونظرت في عيني وصعقت على كفي ، وحيست وصوت خبير
الياه في الجري .. يلطم على صوئك :

— سندخل معا .. إن دنياك واحدة .

واجبت بين الجد والمزاح :

— أنا سعيدة بدياي .. سعيدة لا حد لها .

وقلت لي في لهجة أكثر جدية :

— أنا اتكلم جادا يا سهير .. كنت أود دائما أن أكون كشك لك ..

كنت أحس بأنه قبل أن نرتبط معا يلزم أن أكون قلدا على أن أهيئ
لك مستوى الحياة التي نعيش فيها ، وبس أجل هذا صبرت حتى أرتقي
وأصبح أهلا لك .

وبدا كلامك لي غريبا .

أنت لست كشك لي !

من أجل هذه الأرض التي اشاع مظهرها قانون الإصلاح .. أم
من أجل يظهر الثراء الذي ندو به .. من يتلأ زمن .. أخلفت غير
الموازين واستبد الإنسان قيمته بما ورث لا بما اكتسب ، وبس فصل
الإنسان عليه ، لا من نفسه على نفسه .

ولم أدر ببالا أجيئك .. وأنا لم يطف بذهني قط أنك يمكن أن تكون
غير أهل لي ..

وعدت نظري في عيني واسترسلت قائلا :

— أريد أن أبعثك دائما سعيدة .. أريد أن أبعثك كل شيء .

ونظرت في مينيك .. وأنا أتمتع بنفسى كالهامة :

— أكثر بما مئنتني !

— أجل .. أريد أن أبعثك سعيدة الناس جميعا .

وأجسست كأن موجة هائلة من المشاعر تملأ بين طياتها .

وبرغم أنك لم تطلق إلا بما يمكن أن تتفاء كل فناء .. وبما كنت

أنتي أنا نفسي .. إلا أنتي وجدت نفسي أواجه إحسانا بالرهبة
والخوف .

كنت أشبه بالذي يحلم بالبطولة ، ويتبنى أن يفود معركة لم يجد
منه بقاء في جسم الحركة .. ينسقط في بده ، ويلقد أعصابه .

وقدر إلى ذهني .. السؤال الذي دفعت به أنت إلى تفكيري :

— أيمكن أن أكون أنا أهلا لك ؟

أنا .. بسألي العرجاء .. هل يمكن أن أكون شريكة هيئتك
الطويلة ، العريضة ، التي تريد أن تبني لي فيها أقصى سعادة ،
وتجعلني فيها سيدة الناس !

أيمكن أن أكون أنا .. بعرجي وسألي التي تلقى الأرض .. سيدة
لناس .

أي ناسي ؟

واتفجع إلى ذهني .. كالفضيلة .. خوف الشفقة .

ماذا .. إذا كان كل ما بك . إحساس بالشفقة ؟

ولم أعرف .. أهي حادثة في أن أتمكر في هذا الوقت بالذات ،
التي كل يمكن فيه أن أهيض على حب المساعدة .. مثل هذا التتمكر
الأسود .. الذي ملأني بالخوف .. وأسدل من حولي حجابا قاتمة من
خوف وبأس .

ونظرت إلى " وقد وجدت مسحب للضييق تمنع وجهي ، وتسلطت
في ذهني :

— ماذا بك يا سهير ؟

وهررت رأسي أنفاس منها حوامري السود التي انتسلت كاهلي
وأفقتت ظهري ، وقلت لك :

— لا شيء .

— هل قلت شيئا لميليك ؟

— غير محقول .

— لماذا تجهمت إذن ؟

وثلث في يأس ومرارة وأنا أحبس والتكليات يضيئها خريف الماء
المتدفق في المجرى :

— لآتي أنا .. لست أهلا .

وثلث لي في شيق ودعشة :

— كيف تتولين هذا ؟

— إن أكون لندا سيدة الناس التي تعلم بها .

واطلعت زهرة حارة ، وأنا ألقط الأثر بقصى .. لملي لوقتك
من أحلاك ، التي تغلفني فيها سيدة الناس .

وهبت بأن تقول شيئا ، ولكنك أسكتك ثقلة :

— إذا كنت تتكلم جادا ، ندعى أنا أيضا أنكلم جادة .

واضربت بوجهك من وأرغفت سمعك ونظرت إليّ ، وقد قطب
جبهتك وبلا الأمل وجهك .

واستطردت أقول بلهجة كسوتها كل ما أملك من هدوء وبسطة
على النفس :

— لقد استقرت أنت عاما دون لي تجرؤ على التكلم إلي .. لأنك

كنت تحسن لك لست أهلا لي .. لمجرد أنه يتفكك بسمة ليرات ..
كيف لا ترمي لي أشر من لست أهلا لك وأنا نفسي ساق ؟

واجسست بك ترتجف كلتي لطيفك ، ورددت إليّ حاجبيك في
دعشة وسلفني يستعطفنا .

— لماذا تتولين كل هذا ؟

وثلث ببرارة :

— أنت الحقيقة .

— ولكنك أحبك كما أنت .

— ولكنك أكره نفسي كما أنا ، لآتي لا أستطيع أن أكون سيدة الناس

التي ترحوها .

— أنت سيدة الناس التي حليت بها دائما .

وهزئت رأسي في شيق ، ولم أعرف بماذا أجيب .

— بعض الأكلز السود طاعت بدهني .

— بل ؟

وهزئت رأسي لتلمس عنها مسافتها وثلث له :

— لا شيء .. دعنا نرح .

وهبت بالهدوء ولكلك أسكت يدي ولجلمستي بجوارك ثقلا :

— يجب أن تنتهي من الحد بل إن نرح .. لماذا لم تردي علي

يا قلت ؟

— اضروري أن ألد ؟

وسلّمت إليّ في شيق وثلث معانبا :

— أهذا سؤال ؟

وثلث لك في حفة .

— لماذا لا تبلي هكذا ؟

— كيف ؟ أنت لست صغيرة يا سهير ، وأنا أنكلم جادا .. يجب أن

تلق على شيء .

وتسلّمت إليك وثلث تنظر إليّ في شلف ولهفة .. وعاودتني

لكلاري المسود .

ثلثي الضمعة بنفسي .. حواني من شلفك ، ومن مألتي العرجاء ،

أن تحول بيني وبين ابتك لي تجعلني سيدة الناس .

واجسست أنت بدي ترددي وجررتي وثلث لي في شيق :

— أترينني غير أهل لك ؟

وكنت أحتف بك : « يا غي .. كيف تكون غير أهلا لي ، وثلث

سبد الناس ؟ »

وثلث لك وأنا أتهجد وأهز رأسي في شرود :

— أنت غير أهل لي ؟

وهبت تتسأل في شيق :

— لماذا لا تردني عليّ إذن ؟

وبدا ملك النحاس وقتل ونبرأتك تنظر أسي :

— وبعد .. ماذا تريدني ؟

ولم لك اعرف ماذا أريد .. وكهنت نفسي .. ان اتركها نهيا
للمكرى السرد ، ومشاعري الحقاء ، وان اجعل من اجل ليلى ، معنا
لشفتك وتماسكي .

ودون ان افرى ، وجهت نفسي اقول لك :

— أريد ان تمنحني الفرصة لكي اكون اهلا لك .

ونظرت إلي في دهشة شديدة وسألت :

— كيف ؟

— سأحاول ان اجري العملية مرة اخرى .

وعززت رأسك وكذلك لا تصدق ، وسألت قائلا :

— تجرب العملية مرة أخرى ؟

— اجل .

— لماذا ؟ من اجلي لنا ؟

— من اجلك ، ومن اجل نفسي .

— ألم تحاولي عليها في لندن ؟

— اجل .. وأخفقت .. وعرض علي الطبيب ان يجريها مرة

اخرى .. فلم أرضى .

— لماذا ؟

— كنت صغيرة .. لم اكن احس بحاجتي إلى ساق سليمة .. لم اكن

احس اني قد أصبح يوما سيده النحاس .

وقلت وقد بدت ملك الحبرة والعز :

— آسف إذا كانت الكلية ضلقتك .

واحسست اني اضع في تعذيبك .. وأمسكت بيدك في حنان وقلت

لك ولاء نبراتي الذهب :

— اني اكره نفسي لاني ضلقتك .. لقد قمت إلي "اجل ما اتوق

إليه .. فرددت إليك بأسوأ ما يرد به .. لا تغضب بي .

وقلت وأنت تهز رأسك في بلمه :

— أبدا .. لن افسيق بك أبدا ، اني احب كل ما بك ، وعلى

استعداد لان اقبل كل ما تريدني .

— ابتعني بشفة اشهر .. حتى اكون اهلا لك .

— إن الفرصة لاجلك دائما .. حتى وأنت ممي ..

— دعني اجرب أولا .

وقلت بمستسما :

— امرك .

والثقت حولي فلم اجد احدا يرتبنا .

وبعدت رأسي فاستعنتها إلى كتفك ، واحسست براحة كبرى ..

وأنا اشعر بيدك تتحسس شعري ووجهي .

وأبتعنا من حلينا صوت بوق قرب باب البيت .

وبعضت بين يدي وأنا اسلك بيدك .. وسرنا وسط الزهور التي

كست سطح الأرض ، وأنا احس اني قد بت فعلا "سيده النحاس" .

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

والحسنت بهجزى عن الخروج مع آمالك والحق بآمتك ..
والساق المذلة إلى جنبى تمزق حركتى .. وتثقل إرادتى .
وعريت أن أحوص معركة جديدة .. لكى أحصل على نصر حديد .
وشعور المنتصر الذى تملؤه فرحة الاتصال ، والذى يشوب نرحته
الخوف من معركة جديدة .. يصر على قوضها .. ليؤكد نصره الأول
وهستكله .

بشعور السعادة بالماضى .. والرهبة من المستقبل .
بشعور الفرحة بما حصلت عليه ، والخوف مما اضطلع إليه .
بشعورين يترجل معاً .. ليرسما اليأس على شفتى والفرود
فى معنى .. أفضت يومى ملك .. دون أن أتيس بكلمة عما دار
بيننا .

حتى مدت إلى البيت ، وقد عزجت لى ألفى بها فى نفسى لأبى ..
أقرب الناس إلى "والد"هم على فهمى وتقدير مشامرى وحل مشكلاتى .
وكأن يجلس لى هجرة مكتبه .. وقد أبعك بالمدى الصغفه
يفرأها بطول (مقداد نراهم) ، وقد ألقى جلقاً بنظارة القراءة التى
اشترأها حديثاً .. وأمسكت بالنظارة أضعها على مهبه وأنا أقول
صاحكة :

— أليس النظارة .. لقد كبرت .

— أضحكنى بى ؟

— وددت ذلك ، ولكك تلبى أن نلحنى فرصة التمشية .. أنت

لا تريد أن تكبر .

— الشبانة بى .. لا يملك فرصتها فبورك .

وأفركت ما يعنى « أبى » ولكنى تسالمت متغالبية :

— كيف ؟

— تجملىتنى جداً .

وتجذبنى « أبى » من يدى وأجلسنى على سائته قليلاً :

— سائل صغيراً .. حتى تكبرى .

ثقة مطلقة

أضينا اليوم معاً فى الفوطلة .. لم نلتقى لحظة .
ولم يحاول أحدهما أن يثير المناقشة التى دارت بيننا فى بداية اليوم
مرة أخرى .

ولم يكن هناك شك لى أن حصيلة المشاعر التى انارتها المناقشة
فى نفسى .. قد فتحت أمامى أبواباً ضخمة للأمل .. الأمل نيك ..
وفى نفسى .. وفى الحياة .. بلا قيود ولا حدود .

ولا أدل على ذلك .. من تطلعى إلى سلابة سائى .. وجرائى على
حوض معركة جديدة من أجلها .

وعندما تبدأ أرباصاً من الحياة — أيا كان نوعها — أن تجد ما يؤمنها
عن التطلع إلى مزيد منها .. بإصرار وعزم وإحساس بأننا حق لنا .
وأنت أدرى بالحواس المائل فى معركة .. كيف يدفعها النصر ..
إلى الأمام فى متابعته ، والحصول على نصر جديد .

ولست أجد اتصلاً لأجل ولا أكره مما حصلت عليه من شلتيك
من ذلك الصباح .. برغم كل ما عدا من عصبيتى وتوتر أعصابى ..
ورهنى بما لو شئت أن أحصل عليه .

حينئذى من يذى .. لتخرجنى من حوة بأس كمت قد استسلمت لها ..
من أن أخفقت العملية الأولى .

حينئذى .. فى محاولة لكى تجعل منى سيدها الناس .

— عل ثقل لك شيئا ؟

وتسألته بخفية :

— من ؟

ورد « أبى » ببسلة :

— صدق .

ولم احد ببراً للاستمرار فى التفتيش ولجئت فقلته :

— أجل .

— وماذا قلت له ؟

— قلت له أن ينتظر حتى أجزى العملية .

وبوقت « أبى » بما قلت ، وأصابته رجفة .. كان لدغة أصابعه
أو كان شيئاً سلفاً لسمه فجأة .

وصمت برهة يزدد ريقه ويتملك .. ثم تسألنى بصوت خافت :

— أية مطوية ؟

— عليه سألنى الذى كان يريد الطبيب أن يجرهأى ثنية بعد أن

اجلست العملية الأولى .

وبدا الوجوم على « أبى » وتسألته فى شيء من الدهشة :

— ماذا ضيقت ؟

— لا شيء .

— ألم تلح أنت ونحن فى لندن أن أجرهأ ؟

— أجل .

— إذن لماذا ضيقت الآن ؟

— لم أتفلق .. لمط لوجئت .

— لماذا ؟

— لأنك لم تخبرنى قط برقبك فى إجرائها .

— لم أكن أحس بحاجة إليها .

— والآن ؟

— وجدت أن مثلك ما يدعو إلى الإقدام عليها .

— لقد كبرت .

— أبدا .. أن تريدنى فى نظرى من مجرد طفلة .

— حتام ؟

— حتى تجدى ابن الحلال ، الذى نعدتنا عنه ذات مرة .

— والذى كُفبرتنى لك سقجه من أذنيه ؟

— بالفخبط .

وكنت المنقشة تجرى سيدة مزحة .

لم أكن أحس أبدا بكلفة بينى وبين أبى ، وكنت أشعر من طريقتى
فى مجادلته .. بلى أستطيع أن أقول له أى شيء .

ونظرت إليه ، وصمت برهة قبل أن أقول بنفس الطريقة المزحة :

— وإذا جاء من تلقاء نفسه ؟

وأدرك « أبى » أن الجلبة .. تعنى شيئا .. أكثر من مجرد منقشة

مزحة .. وعلت شفتيه ابتسامة عريضة وتلق فى مخيلتها :

— تنتظر فى البرء .

— وإذا لم يعجبك ؟

— ألم يعجبك أنت ؟

— أجل .

— لابد أن يعجبنى إذن .

ولجيت « أبى » أرد على تغلبته فقلته :

— أنا إذن الذى ستنظر فى البرء .

واعتمد « أبى » وانفتحت مجلسى على مقدم بجواره وتسأل بطريقة
أكثر جدية :

— أنت تعرفين أنى ألق فى مثلك وحسن تقديرك بطلق التثنية .

وساد الصمت برهة .. وانتظر « أبى » أن أقول شيئا ، ولكنى لم
أعرف كيف أبدا القول .. وأحسست أن هناك أشياء نحتاج إلى جهد
لرفع كلفة الحديث فيها .. حتى مع أقرب الناس إلينا .

وتحدث « أبى » ليزيل مشقة المبادأة بالحديث فقلنا :

والطريق « أليس » برهة ثم دمع رأسه ، باستغلا في لهجة مترددة :

— لكلك هو شيئا ؟

واستغرقت طريقة « أليس » في التفكير ولكنها أجبته ببسالة :

— أجل .

— لماذا تمل ؟

— تمل إنه يريدني كما أنا ، ولما إذا صررت على فعلها .. فيمكن أن أعلما ونحن معا .

ولمطلق « أليس » تنهيدة راحة .. وقال في حيرة :

— كلام محلول .

— ولكنك صررت على أن أجريها أولا .

وتسائل أليس :

— لماذا ؟

ونظرت إليه في دهشة ثقيلة :

— لقد كنت أنت سعيد التمس لإجرائها .. لماذا حدث لك ؟

والطريق « أليس » .. واستغرقت برهة في التفكير ثم عز رأسه قائلا :

— لا شيء .. لا شيء أكثر من أنك هودنا الرضاء والنعامة ..

لقد ملأنا إحسانا بلك سعيدة .. فاصحبا سعداء مسافرك .

وقلت أنك له :

— وأنا بما رلت سعيدة ، ولكن أملا حديد نت في نفسي .

— لقد كان هذا الأمل في أنفسنا دائما .

— كلى ؟

— وما زال ، وسيبقى ما هيينا ، ولكن ...

وعاد « أليس » إلى الصمت .. وظلت أستمعته :

— ولكن لماذا ؟

— قد لا يكون نجاح العملية بضمونا .

وعجبت من روح التسليم الذي ينبغ على « أليس » وألمته ثقيلة :

— لقد كنت دائما سعيدة التسؤل .. وكنت أكثر حرصا لإجراء العملية .

— وما زلت حتى الآن ، ولكني أحس أن يتسبب إخمات العملية

— لا يسبح الله .. في إصابتك باليأس .

— ألياس من ماذا ؟

— من الأمل الذي راود فمك أخيرا .

— إنها مطمرة سائبل نتيجتها على أية حال .

ورد « أليس » برغبته وقد بدا كرها لما يقول :

— وإذا أخفقت ؟

ورفعت كتفي وطلبت شلتي في استغلاف ثقيلة :

— كل عمل عرضة للإخفاق والسجاح .

— لماذا سيكون موتك من خطبة حدي ؟

وسطت كمي ثقيلة في استسلام :

— يحلها رينا وقتذاك .

— هذا ليس ردا ؟

— ماذا أقول لك ؟ كيف أدري ما أستطيع عمله حينذاك ؟

— بحب أن تكومي وامضة لبمك يا سوبر .. حتى تكومي وامضة

للغير .. حشيشي بصراحة .

— سل بما تريد .

— انصبري حدي ؟

وأجبت سائلة وشجاعة :

— أجل !!

— انتقيني به ؟

— نعم .

— لماذا تريدان إجراء العملية قبل الارتباط به ؟

وهناوب أن أكون واضحة لنسي .. كما قال « أليس » ، حتى أكون

واضحة للغير .. وتكررت برهة ثم قالت :

— رغبة من أن لنقل كل ما أمك حتى تكون أملا له .
— التمكن ارتبطك به بإجراء العملية أم نجحها ؟ !
وحدث أكثر مرة أخرى ثم لعبته :

— بأحرائها .

— أن يحطم إختلافها أمك في المستقبل ؟

وقلت اتصال شاردة ؟

— أملي في المستقبل ؟

— أجل .

— لكني أكون مضطربة .. ميسميني بالظلال ، ولكنه لن يحطم أملي .

وسيت برعة ثم عدت أقول بفسرة :

— سأكون كن بود أن يسمح إنسانا يحبه شيئا .. ثم يحذر من

منحه إياه .

وليسك « أبي » بيدي وريتها في رفق ثقلا :

— نعمت .. نعمتك جيدا .

— وترمي على ما رليت ؟ !

— بالطبع .

ونهمس « أبي » وضئى إلى صدره في حنان شديد ثقلا :

— لا تصليتي من مناتشي .. لقد كنت دائما أتوق إلى إجراء

العملية ، ولكني كرهت أن تملتي عليها أمك ، بحيث تغير حياتك إذا

ما أخفقت .. سنحاول إجراءها — كما كنت اتني دائما — لكن تصبى

الفضل مما أنت .. ولكن إذا ما أخفقت فلا تزيد أن نعود بك التهورى

.. بل نواصل حياتنا بنفس الآمال ، وينفس القوة .. اللهم كذلك ؟

وهزرت راسي مؤكدة له تأييدي لكل ما قال .

وصيت « أبي » برعة أيتهاياني بـسؤال لم أتوقعه :

— ألم يقل لك إنه يحبك كما أنت ؟

— أجل .

— ألم يقل لك إنه يفضل أن ترشطا ثم تجري العملية مما ؟

٤٦٦

— أجل .

وعاد « أبي » يمسال السؤال الذي يعلم هو رده :

— هل يطلق ارتبطك سباح العملية أو إختلافها ؟

— بالطبع لا .. لقد آله كل ما قلت من إجراء العملية .

ورفع « أبي » فخري ونظر إلى ميني بسؤالا :

— أتولي لي ثقية .. ما مدى ثقتك به ؟

— بخلقة .. كنتي بك .

وأطلق « أبي » تهيدة راحة ، ثم أرفف ثقلا :

— حسن .. سأقوم بالاتصال بالطبيب فوراً .. لكني يحدد لنا

بوعدي للذهاب .

وضئى « أبي » إليه .. وأنا أشرع بقلبيكية إلى جواره ، وقبل

أن أغلخ حجرتي قال لي :

— لا داعي لأن تخبري لك بشيء حتى لا ننتظها من الآن .. لن

نستطيع السفر قبل انتهاء الإختبارات وبداية المعلة الصيفية .

— سننتهي الإختبارات في يونيو .

— لا اعتقد أن اتصالنا ستمتني قبل ذلك .

— لن أذكر شيئا لأبي .. غدا أعرفها أكثر منك .

وتركت « أبي » وأنا أشرع بشيء من السكينة المشوبة بقلق خفيف .

واتباك في لول لقاء لنا بما استقر عليه رأي « أبي » . ولم أحس

أنك مرتاح في أملاكك .. وإنما تطاهرت بالارتياح من أجلى .

ومرت بي بعد ذلك غرة بحسوة بالاستدكار والاحتفالات .. وكل

« أبي » ينيئني لولا بأول منتاج اتصالاته مع الطبيب في لندن .

وتم الاتفاق أخيرا على السفر في يوليو ، واستطاع « أبي » أن

ينيئ « أبي » تدريجيا بما استقر عليه الرأي ، ولم يكن ألبها سوى

التصليم

وفي أوائل يوليو ذهنا إلى لندن .. بقى فيه بضعة أسابيع ..

حتى يحين موعد السفر .. فاستلم من بيروت .

ولقد عارفت السر إلى لبنان لكيلا أحرم فرصة وداعك .. حتى علمت منك أنك تستطيع الحصول على إجازة اسبوع تقضيها معوارا في بحيرين .

وتعقد موعد سفرنا في أواخر يولية .

وتصيا الأسبوع الأخير سرح سويا في ربوع الحبل . ودعيا للقاء قبل السفر في فرنايل في بيت عبد الصمد بك أبي عبد الله بك روج « حاتى حنيفة » .

وكنا قد اتفقا في اليوم السابق للعودة على أن نمر بك في الصباح في الفندق الذي نزل به على مقربة من بيت « حاتى حنيفة » الذي ألتما به معنا .

وأصبح الصباح ، لوجد الفوانين الاشتراكية قد أعلنت ، ومحد شركة « روج حاتى » الكبرى قد أمتت .. ضمن ما أم من الشركات . ولقد كنت أحس من حولي ضغط رهوس العائلة مرداد مع مر الإيام .. كنا سئل جيلين .. جيلا قديما مصليا .. بعضه مسلم بالواقع . كتطوير حتى سليم للمجتمع .. مثل « أبى » ، والبعض الآخر كاره بالمم يرى كل شيء معين للضغط والبنفاء .. مثل « روج حاتى » .

أما الجيل الآخر ، ويمثله « حسان » . لقد كان مفرطاً في الحباثة .. مفرطاً في الإيمان .. بكل تطوير حقيقى ينظم المجتمع ، ويسعد السبيل إلى الرخاء والمداة وتكليف الفرص بين الناس .

وكثيراً ما حسي وطيس المناقشة بين الفريقين وكان ينتهى في معظم الأحيان بقطعية بين حسان وأبيه ولتهم أبية له بأنه أحق مصل . وفى هذا الصباح لم يحضر « حسان » على مناقشة أبية .

كان « حسان » يؤمن بكل ما حدث ، كتنظيم حتى لمجتمع يحتق لأصحابه فرصة كريمة للحشر ، ويؤلف السباق الفردى المطلق للإثراء .. لجرد الإثراء .. سباق تطمس فيه المعالم الإنسانية ، وتفسح فيه مشاعر الخير .. سباق تطوى فيه الأنفاس والأجساد تحت استدالم المستانين .. من طريقهم للوصول .. كال « حسان » يؤمن بكل هذا .

ولكنه لم يحضر على أن يرتفع صوته بالمناقشة مع أبية ، فقد كان أبوه يبنو .. كالصريح .. أو كالبلبح .

ملا البيت إحساساً بل عزيزاً قد جت ، وأن أهله يستحقون المزاء . ولم أعرف وسط جو الحزن الذى حيم علينا .. ما إذا كنا مدبه لدعوة الضفاء في قورليل أم لا .

كان « زوج حاتى » يجلس في بتمده كالمأخوذ .

وكانت « حاتى » أشد تباسكا .. وأكثر حنوا . وأقل اكترانا .

واتلعت عليه وهي تحس أن شيئاً لابد أن يعمل من أجله .. وأن تركه على حالته تلك قد يقضى عليه أو يصيبه بالشلل .. وقالت له في إخلاص :

— ملك يا أبو حسن .. كل شيء بدأ حذائك .

وخرب الرجل كتا بك ، وهو يقول كتبا بحدث نفسه :

— خسينا .. راح كل شيء .

ثم انطلق لسانه بالفساد .. واتلعت « أمى » تحاول تهونته مقالة :

— لا داعى يا عبد الله لكل هذا .

وقال لها كى :

— دعبه يتكس عن نفسه .. اخفوا منه الملايين .. انلا اكل من أن يرد عليهم ببعض الشقاق .

وأهرنى مقلع أن أجد « زوج حاتى » . في بوقت المساء ..

ولكنى كنت في فرة نسي لا أحس أن ما حدث يستحق كل هذا الحزن .

كنت أحس بأن ليس ما فى الحياة .. هو الإنسان .. هو الثمن من

كل ما حوله .. لم أحس قط أن شيئاً يمكن أن يؤخذ منا .. ويحزنا

حقيقة .. إلا .. نحن .. إلا حياتنا .. كلها أو بعضها .

وأكد هذا الإحساس في نفسى .. سائى العاجرة .. كنت أحس أن

حزوا من الأدنى .. لا يمكن أن يعادله شيء آخر مما يهلك .

ولم أعرف كيف انتقل هذا الإحساس إلى الرجل العالى في رأس

.. يوشك أن يقضى عليه .

— إنه لا يعرف لماذا يحيا .. إنه يجمع المال .. ولكنه لا يعرف
لماذا يجمع المال .. لا يعرف ماذا يمكن أن يصنع به .. المسألة أصبحت
عنده هدفا في حد ذاته .. أن يزداد رأسماله ، بكل ما يستطيع من سبل
.. يزداد رأسماله .. لكي يزيده مرة أخرى ، ومرة ثالثة ورابعة .
وحزرت أنت رأسك في شيء من الأسف :

— على أية حال .. لم يقصد هو بالإيذاء .. عندما نحاول أن
نساوي أطراف حافلة غير مستقيمة ، والزيادات تقطعها السكين ..
لقد كل مجرد زيادة في طريق السكين .. لتنظيم المجتمع .
وقلت أنا مطلقة :

— الزيادات التي تقطعها السكين .. لن تخرجنا من حياة كريمة
.. عندما نحاول أن نرسم لنفسنا حياة مثلى أنضع فيها بكل ما في الحياة
.. من متع ومناج .. لا أجدني أحتاج أكثر من المبلغ الذي ليقتنه
القوانين كحد أقصى للفعل ، والبائس لا أعرف لماذا يمكن أن أعمل به ..
إلا أن أحمله كما قال حسان .. للجمع ، ولتسكيس مزيد من المال
لا أستطيع الاستمقا به .
ورد حسان :

— لن يخرجنا تنظيم المجتمع من حياة الانطلاق .. بكل ما نملك من
تدرة على تحقيق آمثنا .. إلا أن تكون هذه الآمثى سيطرة على
الغير واحتكارا لوزنه .. لن نعتد في انطلاقنا إلا على قدرتنا الذاتية
.. لا على ما أورتنا الغير .

وأمرغ كل ما بنا بنفسه قبل أن نصل إلى قرنايل ، ويصبح الحديث
من المجتمع الجديد ، أمرا مخفرا وسط المصائب والضحايا .

ولم تجلس في البيت كثيرا .. تناولنا الخداء ، ثم انطلقنا بين
حدول الفلاح ، وبسائط المياه ، وأشجار الصنوبر المتكاثرة ، حتى
حان موعد العودة .

وبعد يومين كنا قد حزنا متامنا ، وجهزنا حقائبنا .. وانطلقنا مع
مودعينا في طريقنا إلى مطار بيروت .

ولكني لم أحس في نفسي القدرة على مناقشة « زوج خالتي » ..
وإن مناقشة الحياة تختلف لديه كثيرا .. وإن سألني آدمي قد لا تصاوي
عنده كثيرا .

واقبلت « خالتي » .. وكانت أندرنا جميعا على التصرف .. يرقم أنها
شريكة في المصائب ، وقالت لامي :

— حيا يا مغلطة .. لقد أرف الوقت للذهاب إلى قرنايل لقد دعونا
صيوفا آخرين ولا نريد أن نتركهم ينتظروننا .

وبدا التردد على « لامي » وهي تجد الحزن يخيم عليها .. وقالت
لأختها :

— لا ضرورة للذهاب .. نستطيع أن نعتذر إليهم بالتليفون .
— ولماذا لا نذهب ؟

واقبلت على زوجها تجهه من فرامه :

— حيا يا عبد الله .. قم وانفس منك ذلك الحزن .. كل شيء يمكن
أن يعوض إلا صحتك .

وهز الرجل رأسه وهو ينهض يحيا كالماخوذ قائلا :

— عليه العوض .. راح كل شيء .

ثم اتفجع مرة أخرى في نوبة السهلب والشتيم .

واستطاعت « خالتي » أن تخرجنا من البيت .

وانطلقنا بفحريفات الثلاث .. هربة « خالتي » وهربة « لامي »
وهربة « حسان » .

وحررا عليك أنا وحسان ونادية .. وانطلقنا وراء الأسريرين
الأخريين في الطريق المتحدر إلى قرنايل . واستطعنا الحديث بحرية
في الحرية بعيدا عن أهمل المصائب .

بدأ الحديث حسان قائلا :

— لست أدري ماذا يريد أبي من هذه الدنيا !

وقالت نادية بلهجة لامية :

— أمدره يا حسان .. إلى ما أخذ منه جزء من حياته .

وانتفعت بكائك بجوار السائق « أنت وأبي » في مريتنا وجلست
« لنا وأبي وسلي » في المتعد الخلفي .
وكلي « ريانس » قد جهر مع « سلمي » لتوديعنا وركب حربة
« حسان » مع « نادية » وسارت وراءنا حربة « خالتي » وعربة « عبد
الحيد بك أحى زوجها هو وروجته وابنته عائلة » .
واحبست وأنا أنظر إلى جانب وجهك وقد جلست بين « أبي »
وبين السائق .. أمي أريد أن أتول لك أشياء كثيرة ، ولم أفر كيف
أقولها لك وسط كل هؤلاء المودعين .
وانصرفت بنا الحربة في طريق الجبل المؤدى إلى المدينة وبعت
بيروت أسلكت وقد انبسط وراءها البحر وقد كسته طبقة من الضباب
الغنيك .
وعبرنا شوارع بيروت في طريقنا إلى المطار .. ثم اتفطنا طريق
المطار المتسع بالشجار الصنوبر المتكاثرة .
ووصلنا إلى المطار .
وأخذ حسان وريانس في تسهيل إجراءات السفر .. وكان الوقت
ما زال حكرًا ، ولم يزل على قيام الطائرة بما يقرب من الساعة .
وجلسنا في البوابة .. حول منصة مستديرة صممتا جميعا ..
وقالت خالتي لامي :
— أكتب إلي لتطينسا علي سهر .
والتفت إلى « نائلة » :
— تعودي بالسلامة إن شاء الله .
وقال زوجها في شيء من السخرية :
— تبقى هناك بالسلامة .. طيس في العودة إلى هذا البلد أي
سلامة .
وفضح حسان قائلا :
— بلدي لو شغلت بالخلد عنه .. نازعتني إليه في الخلد نفسي .
ورد عليه أبوه :

— مغفل أنت وقتله .. بلد لا يصلح لسكنى العبيد .
ورد حسان مؤكدا :
— طبعًا .. لأنه لم يمد يده عبيد .. لا عبيد استعمار .. ولا عبيد
احتكار واستغلال .
— تردد كلامًا لا تليقه .. كلام السوق .
— بل كلام الأحرار .
ردت « كوثر » زوجة « عبد الحيد بك » في سخرية :
— أي أحرار .. في هذا الحكم البوليسي .. الذي يقبض على
الإنسان في أي وقت ، ويلقي به في السجن دون تحقيق !
وأردف زوجها قائلا :
— معنا في جفد الحكم السلاطين .. السلطان عبد الحيد .. يعلل
برميته بما يشاء .
وأجاب ريانس بشيء من الانفعال :
— المحتفلون لا يربطون على تسعين .. في البلد كلها .. والتورات
في بلاد العالم أمت بعضها يبتليين القتلى لا سحرات الممتطين .
وردت كوثر قائلا :
— السلطان عبد الحيد أمر بهم بيتنا الذي يقع في الطريق
الحديد ، والسلطان لا راد لمشيتته .
ورد حسان في غيب قائلا :
— كل دول العالم المنحصرة يشقون الطرق ويترامون بالحكوات
البيوت .. أي خطأ في ذلك ؟ !
وردت مائدة تقول :
— تنصد أن كل شيء على خير ما يرام .. بعد كل هذا الانفصاف
.. والفقر ، واختفاء النشائج المستوردة التي كانت تملأ الأسواق ..
حتى لبنان لم تعد لأذهب إليه إلا بشق الأتلس .
وأجاب حسان قائلا :
— كل شيء يسير في طريق البناء ، والبناء يحتاج لتشف ، واحتمل

وامتدت المناقشة بين وجهتي النظر دون ان تنتهى بالطيح إلى شيء .

وكتبت انت صابنا طوال المناقشة ، وتبينت لو استطعت ان نطس وحننا جاثبا ، ووجنتك تنقل إلى بقعد بجواري .
واستطعن ان محلس يصح كلمات وداع في زحمة المناقشة الحامية للوطيس .

قلت لي في شبه هيس :

— تبينت لو كتبت معك .

— سأهس بك معي دائما .. سأراك في كل ما زرناه سويا ، سلاهبه إلى مذهب الشيع ، وإلى النهر ، وسأطعم الحلم في المهدان ، كل شيء سيذكرني بك .

وقبل ان تجيبني رايت ابي ينظر إلى الساعة ثم يقول :

— قرب موعد قيام الطائرة .. هيا بنا إلى أسفل .

وهبطنا من البوابة ، ووقفنا نصالح المودعين ووضعت يدي في يدك وضغطت عليها في حرارة ، وهيمت بي :

— سنلتفك .. لا تنساي لي إذا لم تنجح العملية .. وانكرى دائما .. أتى احبك كما أنت .

وتركت يدك وضاعت هسلتك بين صهيلت المودعين .

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

للصيق .. هناك أشياء أهم من البلورات ، أو اللوح مرید ان مستوردها ، لكي نبني المستع ، ونريد الدخول .

— لم يكن هناك من يشكو من قلة الدخول .

— طمعا لم يكن هناك بيت ، ومضى نيلك كل هذا .. من يشكو من قلة الدخول ، ولكلك لا تعرفين كيف يعيش الناس في القرى ، من يريد ان سمو ، يريد ان ملحق بركب الحضرة ، والاستغلال والاحتكار الذي يقوم عليه اقتصادنا لا يمكن ان يتبع للبلد ان يقوم بالقيمة الصحيحة لكي نكتسب من النهضة الحقيقية .
وهز ريفي رأسه قتلا :

— السودان التي نريد ببناءها تحتاج إلى نقود ، وعندما يريد رب الأسرة ان يبني لها بيتا .. لا بد ان يقتصد وان يوجه مصروفه بالطريقة التي تضمن له توفير النفود اللازمة اليه .. فكيف ببناء امه ؟

وصيت « ريفي » ، وأرفف « حسان » متما قوله في ثقة :

— على أية حال .. إذا كل تنظيم المجتمع قد اصعب البعض بالحسنة ، فقد منح الجبوع أربابها كثيرة .

وتساءل زوج خالتي :

— أي موضوع ؟ !

— العمال والملاحون .

— لا أحد منهم يشعر بشيء .

— سيحسرون مع الزمن بكل شيء .

ورد عليه في سخرية :

— ابني قاتلني .. إن شاء الله ان ياتي الزمن الذي يشعرون به بما لديهم .

— كيف ؟

— لا يمكن ان نصبر على هذا الذي حدث .. لا بد ان يزول .

— ولكن الذي حدث هو تطبيق لمبادئ عبقة اميلة في نفوس اصحابها .. إنها ليست بزاها .

بحرك الطفرة . بعد ان سحب السلم وأغلق الباب .. ولمحك أخيرا ترفع
بك ملوحا للطفرة كلها بعد ان عجزت عن تمييزي .
وتحركت الطفرة وشاهد منى المطار وبسائط أشباهكم حتى لاحظت
تلبا .. ولحظت الطفرة تطلو في الحو تاركة بيروت .. وقد انكبشت
بمقايها وطرقتها وتلم الجبل وراءها وأسد الشدلى على انداب .

واحدث الطفرة شاعدا وتنملى . وبدت السفى على الشاطئ
كثيها للمنى ، حتى اختفت رقعة الأرض ، ولم يعد يبدو إلا سطح البحر
الأبيض بتبرجانه الضمير كثة ظهر السمكة .

ولم يعد هناك ما أطل عليه من الشافة الصميرة .. كانت الدنيا
من وراء النفاذة ملا معالم .. كثيها أرضية صورة .. بلا صورة ..
محر خال ، وساء أشد خلاء ، والطفرة تدو كثيها تسمرت بنهيا ،
مكثت عن الحركة .

ونكثت الحرام وتنهفت ، واسترحيت .
وكثت « أبى » تجلس بجوارى ، و « أبى » يجلس على المعد
المجلور في الجانب الآخر من الممر .

وبدت « أبى » مضضة العيبى .. ولم أعرف ما إذا كانت نكية ،
أو مخمية .. لم شاردة الذهن .. ثم تزل القرآن في سرها .
ولكنى لم أحول إزعاجها .. ونظرت إلى « أبى » غابضم في
فكلا :

« كيف حالك ؟ »

— الحمد لله .

ولم أكن قد استطعت أن أعرف حقيقة مشاعر « أبى » حال
بذة التحصير للسفر .

« أبى » بالطمع ككت بوهية حائلة .. من عنها مظهرها الذي لم
محاول ستر .. وردها الدائم على كل سؤال « ربما يطف » .

أما هو .. فكان أقدر على ستر مشاعره والتحكم في أعصابه ،
وكنت ميا محي أعرف كيف استشف ما وراء سنن المرح الذي

تقاؤل

مرة أخرى عدت استقر على بعد الطفرة وأشد العزالم على
وسطى . والصفت وجهي منالدة الرحنبة المستديرة . وحاولت أن
أبهرك بين مثلت المصطمين في شرفة المطار ، الذين ارتفعت أنبيهم ملوحيه
بلاغات التوديع ، واحتلظت على الوحو في أول الأمر ، ثم بدت
أبهر للكم وقد اصطفت من أقمى الشرفة .. سلس وريلى وحافى
حليقة وروجها وأحوه وروحه وأبتنه وحلى ولبية .. وأخيرا
أنت .

استطعت أن أبهركم جميعا بهياتكم وقلباتكم وحركاتكم واستقر
بصرى عليك وقد اكثت على سور الشرفة مكثا بديك ، وملت جسداك
للألم ككثيها نود أن تترب من الطفرة قدر ما تستطيع . ولم يبد عليك
أنك قد ميزتني من وراء النفاذة ، فقد كان بصرك يسمح للطفرة من
أولها إلى آخرها .

ولوحث بيدي من وراء الزجاج . علنى أنت نظرك إلى .. ولم
أدرك أن الركاب جميعا يلوهون ماينهم من وراء النفاذة ككثيها ، ولم
أدرك أن سبك الزجاج وقلة الضوء في الطفرة تجعل رؤيه ما بذأطها
معتبرا ، واستقرت ككثيها لك ، وأنت تعلق حذاء الطفرة .

وعلا صوت المصبة شتتا أن الكلبى علان يحيينا ويتمى لنا رحلة
سعيدة ، وتطلب منا أن مكف عن التدخين وتشد الأحزمة ، وعلا صوت

يكسو به مشاعره الحقيية ، ولكنى على هذه المرة .. لم ابحر سوى
مظهره المرح الملىء بالحماسة .. وهو يلقنى وينقل إلى احبار اتصالاته
مع الطبيب .

لما لذا لم اعرف .

الانى ببساطة .. لم احاول .

شغلتنى ائت منه .. كما شغلتنى عن كل ما عدك .

ولم يحول ان يشتت بى ، ولا ان يذكرنى بما سبق ان قلته وانكرته
معدما كما يتحدث من الزواج لماخبرنى انه معدما بلوح لى المخلوق الملائم
فسيفير نظرتى للحياة .. ويشغلنى عن اشياء كثيرة تدو لى حاية
وس بينها هو .

كما لم يشتت بى ، وانا لى فى إجراء العملية بن جديد ، ولا حاول
ان يذكرنى بادلار بينما فى حجرة المستشفى لندن مندما اخفقت العملية
الأولى .. ورغشت ان اقوم بتجربة اخرى ، فلكذ لى اثنى سامعود يوما
لاطلب إجراءها بنلىسى .

كل يمتحنى رايه ونصحه .

وعندما أرفضه ، واخطئ ، واتهم .. كنت اجد فى نفسى الشجاعة
ان اعترف له .. واسأله الراى من جديد ، دون خوف من لوم
او سبلة .

وكانت « لى » توجه إلى النصح .. فى كل يوم مائة مرة :
« انسى هذا ، ولا تلمس ذاك .. كلى هذا ، ولا تأكل ذاك .. يمشى
شمرك هكذا ، ولا تشطيه كذاك . وعندما احطى كل ردها الطبيعى
« ألم اقل لك » !!

ولم اكى ادري .. لماذا كنت اجد رايها دائما مبالغا لما اود ان
اقلعه ، وكنت لا اعمل به .. لم احس انى اخطأت ، وانها كانت على
حق ، ولكنى لا اعرف لها مالى اخطأت حشبة شامتتها وحشبة قولها
المأثور « ألم اقل لك » .

ونظرت إليها وهى مغمضة العينين ، واحسست انى احبها كثيرا ،

{٧٨}

كثيرا .. وانى احس بمدى حبها لى .. لم اجد إنسانا يمكن ان يحب
إنسانا آخر كما تحبني هى .. حتى لقد ساءلت نفسى ذات مرة .. أبىك
ان نحبني أنت كذلك ؟

كانت نفسى بالامى مضاعلة .. إذا شكى دبوس .. احست به
فى جسدها ، كانه طعنة حنجر .. لقد كنت معها المقيم ، وكانت منى
بشابة حارسى شاكى السلاح لا يفلح ، ولا يستريح .

ونظر إليها « أبى » وقال وهو يجد مظاهر التعب بليدة فى وجهها :
— اجهدناها .. لقد سألناها ان تبقى ، وندعنى بمك .
ومتحت « لى » عينها ونظرت إلى « أبى » باستسعاد كأنه يهدى ،
ونساءت بمسئكرة :

— انقى هنا .. يوتونكا ؟

وصمتت برهة ثم أرفلت تتسائل فى مرارة وسفيرة :

— لكى استريح ؟

وتثبتت بصوت خائفت وهى تعود إلى إنجليسى عينها .

— ربنا يعيدها سالمة ، ويجبر خاطرها هذه المرة .

وأخلفت « لى » إلى الصمت وعلود « أبى » حبيبته معى قذلا :

— الجو هذه المرة افضل كثيرا .. نستطيع ان نقضى يومين فى
الريف قبل ان يبدأ العملية .

— لا اريد ان اعمل شيئا قبل العملية .

وهم « أبى » بالرد غفما ففتحت « لى » مينبها وهى تجد حديثنا
سيطول ، وانسحت لى .. لكى انتقل إلى المتعد الخالى بجوار « أبى »
لكى نتركها تستريح .

وحلست بجوار « أبى » ، وللفت نظرة على اللقطة فلم اجد
سوى الفراغ الأزرق ، فمحت انصت إليه .

قال « أبى » وهو يمسك يدي ، وينفضها برقى فى كفه :

— سجد لندن فى هذه المرة فى صورة افضل .

— اتوقع ان نصل لى الضوء .

— ولي تحرقنا الأظفار كما فعلت في المرة السابقة .
— هل سينظرون أحد ؟

— أرجو هذا .. لقد أرسلت إلى الأستاذ « جمال » .. إنه
ما زال يعمل في السفارة ، لابد أن يكون قد أصبح شيئا هاما في السفارة
بعد هذه السنوات الثلاثي .

— لو كانت لطيفة والدكتور هشام هناك .. لأراحتنا كثيرا .
ولنحت « أمي » عينيها وعلقت قائلة :

— ليس هناك ما يعطيني الأمل ، غير انتقالهم إلى القاهرة ، وعدم
وجودها هذه المرة .

ورد « أبي » محاولا التحفيف منها :

— لقد ذهبنا في المرة السابقة ، ونحن لا نعرف وجودها .

— ولكنهما حبلا عنا معنا كثيرا ، لقد أزالا عنا الوحشة ، وجعلنا
نحس بأن هناك أسرة تحبل هنا .
ولجاب أبي :

— ربما يساعدنا ، أرجو أن تنفي هذه المرة على خير ، كل شيء
يهور ، إذا نجحت العملية .

وأمضت « أمي » عينيها وخرجت من سباق الحديث .. ووجدت
سحابه حزن تعم وجه « أبي » ، فظلت أحاول أن أسري منه :

— أحس بالتناؤل هذه المرة .

— حقق الله أملك ، وصديق إحسانك .. أنا أيضا بملؤني إحساس
بالتناؤل .

ولم تكن يبدو عليه كذلك ، ولكنه لم يملك إلا أن يجأرني . إذ لم
يكن من العبادة بحيث يبدل تغاؤلي تشاؤمي .

ومدت أقول وأنا أستعيد لنفسى ذكريات الرحلة السابقة :

— في المرة السابقة كنت أحس أنني أسير بلا إرادة ، لم أكن أفكر
تنبها في ساقى .

— أعرف هذا يا حبيتي ، ولكنك كنت شجامة .

— لم أكن بالشجامة التي تصورها .. كنت أحس بالظوف من
الرحلة كلها .. ركوب الطائرة ، والطبيب ، والمستشفى ، والم العملية ،
كل ذلك كان يملؤني إحساسا بقرعة .. بمجرد تصوره .. ولكني لم
أملك سوى الاستسلام .

— استسلامك مع كل هذه الأوهام يعتبر في مثل سنك وتذاك ،
إتداب وشجامة .. كان يمكن أن نرينا أياها بزمعة بمجرد إظهارك
نك الأوهام ، ومحاولتك محاولة السفر .

— لقد حاولت التجربة الثانية ، بعد إيفاق العملية ..

— كنت محفورة .. ما لا يقفه وتذاك كان خليقا بأن يهلك على
أفكر من ذلك .

وصبت برهة ثم وجدني أسأله فجأة :

— أفكر عندما ظنت لي إلى في يوم ما سألني في إجراءات ثقية ؟
— طبعاً أفكر .

— ماذا كان شعورك عندما عدت لاسلك إجراء العملية ؟

وصبت « أبي » برهة ثم قال في صوت خافت .

— عدت بالطبع .

— ألم تتفرض يوما أنني سألطلب إجراءاتها بنفسى ؟

— أجل .

— لماذا دعشت إذن ؟

— كنت أتمنى .. رسائلك الدائم بالحياة والأمل الذي أفرق في
حياتك جعلني ألوهم أنك قد عدت بعافك ، ولم أملك كما ظنت لك إلا أن
الرد بقناعك ، وأقنع أنا الآخر .

— أحس بأنني مخطئة ؟

— مطلقاً .

— أطمئن أن أصر على إجراء العملية ؟

وبدا التردد على « أمي » .. وكنت الحرة بعالم وجهه .. ومعت

انصت إلى إجابته ، فقد كنت أود أن أعرف .. أكل تمرى معك طبيعيا ؟ ! أكان إصرارى على إجراء العملية قبل أن أوافق على الأرباب لك .. صوابا .. أم لى تركت نفسى لأتبع طبرى ؟

ورد أبى بأسلوبه الماهر فى الحديث قائلا :

— ما كنت قد فعلته ، فلأبد أن يكون طبيعيا .

ونظرت إليه فى ضيق وقلت معاذة :

— لا تريد ردا مريحا ، قل لى رايك ؟

— حبيبة .. هذا رايى .. ما كنت فعلته ، فهو طبيعى بالنسبة لك .

— بالنسبة لى ! ! هذا الكلام اتق ، وبالنسبة لك ؟ ! لو كنت لى

موضعى ، أكننت تتعلم ما فعلت ؟

— أعتقد ذلك .

وأعلقت تنهيدة راحة ، وقلت له فى لهجة ملؤها التناؤل :

— هذه المرأة أحسن ، أتى لكمن على شىء أريده .. ولتحتاج إليه

ومله تقضى الثقة بلى سآخذ .

وعلمت سحفا ألهم تعيم على وجه « أبى » .

لقد أنصت لى مألغة فى التناؤل ، وخشى — بلا شك — من صحة

الغفدان إذا واجهت الإخفاق — وهو شىء محتمل — مرة أخرى .

ولكنه لم يعد ما قل لى أول مرة ، لم يقل لى إنه يحب إلا لمدى

من الإخفاق ، والأرباب نجاح العملية بمصبرى معك .

لم يتل هذا ، فقد كره أن يذكر الإخفاق ، ولم يجد هناك مخرج

جنسى من ساء ، تمازلى ، لكن أربابهم بصحور التشاؤم غير المظور .

ولكن تجسمه للقول ، لم يمنع مألغة إهماسى به .. وأحسنت

أن على " أبى " أن أخذه إلى سباء تمازلى ، وأنتل إليه ما أحسن به من

ثقة ، فقلت به :

— ألا تعلق إرادتنا التناجح ؟

وبدو أنه قد أحسن بالتصبر ، وهو يجدنى أشعر مخيفة من تمازلى .

وبرعى فى إرادة التشاؤم من نفسه ، مقال مؤكدا وهو يلم أعصابه ، ويسيطر على إرادته :

— ضعا ، نحن الذين نعرض التناجح بإرادتنا وصبرنا .

— لى أملك الآن الإرادة ، وسأصمك بالصبر ، لو أخفقت مرة ،

سأحاول الأخرى ، سأظل أصمها إلى أن تنجح .

وأبسم « أبى » ورمت يدى برمق قائلا :

— مستنح لى شاء الله من أول مرة ، لن يحتاج الأمر إلى هذا

العناء .

أطل على الفراغ الأزرق ، وكنت معلم أرضى قد بدت لى الألق يصيح

وعندنا إلى الميت ، وأبسم « أبى » مسحفة بقرؤها ، وسمعت

بها الصمب ، ولشربت لى إليها ، نهز رأسه وعاد إلى القراءة .

وشرد بى الدعى .. إليك .. يرسم مستقبنا معا ، ثم عاد ينطلق

ليسبغنى إلى لندن ، ويسمعرض صورة البلد المظلم الكتيب ذى البيوت

الخبر الدائكة والمداخس المرسومة على استقها ، والحدائق التى لا تجد

نبيها أترا لحصرة ، وتفكرت كل ما لقيت هناك ، ولم أجد مبيها ما يتبع

إلا ذكرى ، وما رأيت معك لى جولتنا السريعة ، والمطر يطرق مستف

العمرة ورجلها .

ولم أدر أطل الشهود ، لم طوأتى غفوة ، ولكنى انفت على صوت

المسيلة تقول إننا نوصك أن نهبط لى روما وتطلب بنا شد الأخرمة .

وسكنتى « أبى » ولنا أرباب الحزام :

— مستقراين ؟

وأجبت لى حلسة :

— أجل .

ونكرت جرمى من النزول فى المرة السلفى وأحصست لى ست

أكثر شجاعة وأشد ثقة .

واستقرت الطائرة على الأرض .

وهبطت السلم استند إلى ذراع « أبى » تنصنى « أبى » .

وسرنا خلف المخيفة ، نطوى المتحدر الصاعد إلى مبنى المنظر
الزحاجي الطويل ، وبحلنا المبني ووقتت أشاهد الرغوب ، وقد رصت
عليها المصانع الأنيقة ، واتجهت ببساطة إلى رغوف الرجال ، ووقتت
أشاهد الكرافات ، وسلاسل المفاتيح ، والكليبات .

وتنبتت لو اشتريت لك شيئا ، ولكنني استحييت أن أقول ،
وأحسست أن الفرص ما زالت قائمة للشراء .. واتجهت « أمي » إلى
رغوف الحلي ، وسرنا وراءها ، ولطفنا لشاهد .. المقود والأساور ،
واباءات لي « أمي » بمطها .

ولم أجد كثير حياصة وهي تضحها في عنتي لئراها على ..
وبعرت مني التناثه إلى رغوف الرجال .

ولمي - في بعض الأحيان ، أو في مطها على وجه أدق - ذكي
شديد الذكاء .

أحس بنظري إلى رغوف الرجال ، حيث رصت أريطة العنق ،
ورأيتة ينحده إليها تقلا :

— توجد كرافات لطيفة .. تعالى يا سفير انتني لي واحدة ..
إني اتق في ذوقك .

وسرت وراءه .. ووقتت أمام الرف أحلق في الكرافات ، وبسلاطة
أحسست مذهي يبحث عما يليق لك .. هذه الكرافة الرمادي تليق
بذلك الكمل ، والأخرى الخضراء تليق بجاكته بني أسود كنت ترتديها
ذات مرة .

وقال أمي :

— ما رأيك ؟

واشرت إلى الكرافة الرمادي قائلا :

— هذه لطيفة .

وأشار إلى البائعة لكي تخرجها ..

وأخرجتها البائعة ، وبسلاطة وجدت « أمي » يقول :

— لا تريدن أن تنتني شيئا لصدى ؟

وبدا على " الخجل وثقت في لهجة مقرودة :

— بعدين .

— ولهذا لا تشترين الآن ؟

— الفرص أباينا كثيرة .

وبلهجة حياصة قال أمي :

— انتني له اثنتين ، أو أكثر إذا أردت .

ولمي حياصة قلت له :

— اثنتين كمالية .

وقال أمي ضاحكا :

— لا تعجلي ولا تترددي ، خذي ما تشائين .

وأخذت لك اثنين .. وأنا أحس أني أحب « أمي » كثيرا ، لا نمر

.. إنه يسكني يستحق الحب .. ولا أظن إلا أنك أيضا تحبه كما أحبه .

وبعد بركة علا صوت الميكروفون ليعلن ركاب الطائرة المستمرة

إلى لندن من طريق زيوريخ ، لي يتجهوا إلى الباب رقم ١٠ .

واتجهنا إلى الباب ، وسرنا مع فوج الركاب إلى الطائرة .

وبعد بركة كنا نعلق في الجو مرة أخرى .

وعطنا ثابته في زيوريخ .. في المطار الصغير الأنيق ، وابتدأت

أمي علة شيكولاتة وابتاع أمي زجاجة ويسكي من البائعة

السويسرية الجميلة لمحد محارلتها وما لبثنا أن عدنا إلى الطائرة مرة

أخرى لتتجه إلى لندن .

ولم يطل بنا المقام في الطائرة حتى أخذنا نتقرب من لندن .. ومي

هذه المرة بدت معالم الأرض واضحة من أعلى .

كان الجو سموا .. والأرض تبدو خضراء على طول امتداد النهر .

.. بقصة منتظام كأنها رقعة شطرنج .. وبدت المدينة ونحن نتقرب

منها ونعلق موتها .. بقصة الأرجاء ، صلت المباني فيها بطرقة

مربوعة منتظمة .. بعدائها الظلمة .. وشوارعها المضيئة ..

والنايلز بشعها متعرجا ، وقد رصت نوقه الجباري .. تربط بين شطبي .

وحسنا إلى المطار ، والمساءة قد قرئت الخليفة ، وكنت هناك ..
نحس وشيء ، وخضرة وزهور .

وبلاني إحساس بالفرحة ، وأنا أجد المدينة الممتدة ، التي لم أسمع
نبيها شعاع ضوء .. قد اشرفت شمسها ، وأخضرت أوراها .. وتفتحت
زهورها .

وهبت أن أقول لأبي أن كل شيء مشرق .. بخيء ، يبحث على
التنازل .. ولكني كنت بالحمية فقد أحسست أنه يخشى إغرائى من
التنازل .

وسرت بحواره وأنا لا نحس بنصب الرحلة ، وسعدنا سلم المطار
.. وأنهى « أبى » إجراءات الجوازات .. وهرنا إلى شاعة الجبرك .

وبعد بضعة دقائق كنا نلقى فى الطابق السفلى وقد رست حقننا
على البلب .

ولم يبد أحد من انتظرنا ، ولم نحس بفضياع الذى أحسنا به
فى أول مرة .

لم يكن هناك مطر ولا ظلمة .. وأكثر من هذا لم يكن بنا إحساس
الحرية .

وليس أبعث على الضياع من وجودك فى مكان لم تكلف محاله ،
ولا تعرف فيه أين تذهب ولا كيف .

ونثر « أبى » إلى ساعته ثم قال :
« وصلت الطائرة بكرة .. وانتهت الإجراءات بسرعة .. قد

يكون الاستاذ جمال فى الطريق .. لننتظر برهة .
وبعد بضعة دقائق .. وبدا التلق على « أبى » .

وقال أبى :
« على أية حال .. المسألة بسيطة .. يمكننا أن نذهب فى

« تانكى » .. لقد سألته أن يحجز لنا فى البيت الأبيض حيث نزلنا أول
مرة ، وأرجو أن يكون قد فعل .
والردت أبى قلة :

« وإذا لم يكن قد حجز .. فلنقم نحن بالحجز .
ورد أبى يحاول أن يسهل الأمور .
« سيكون كل شيء على ما يرام .

ولتحة إلى الخارج ليطلب « تانكى » ، وقبل أن يرفع يده مشيرا
إحدى العربات .. وحقق الاستاذ جمال يقل علينا من مجلة ولينة
وهو يحظر قتلا :

« مناسف جدا على هذا التأخير .. لقد عطلنى موعد فى السفارة ،
والطريق لا يحتل فى ساعة إلا نعلم هذه

ثم أقبل علينا بيميننا بحرارة وهو يستطرد قتلا :
« كنت أعتد على تلخير الطائرة ، ولكن يبدو أنها حذلتى وجاءت

بكرة . الحيد لله على السلامة .
ورد عليه « أبى » وهو يشد على يده شاكرا .

« نعودنا على إزمالك .
« بالمره .. تفصلوا .

ووسعت الحقل فى العربة . وبعد برهة كتبت نطلق بنا إلى
المنية .

وبدا كل شيء من حولنا نظيفا ، والأشجار على جانبي الطريق قد
كسها زهور طوبى وردى فاتح ، وحذائق البيوت على الحائتين قد اطلت
منها الزهور .

ولون السماء قد بدت برقته .. لم تطلع السحب المتفرقة ها
وهنا فى إختلتها ، ولا فى حجب اشعة الشمس من الأرض الخضراء
النيطة .

ولم أطق نصيت .
لبتل « أبى » من تاملنى يا يقول .. أبى أحب كل هذا الذى أراه

من حولى .
وتلت فى فرحة باندية :

« لم أتصور البلدة جميلة هكذا .. لكننى لم أرها من قبل .

ورد الأستاذ جمال ضاحكا :

— لا بد أنك رأيتها في أسوأ أوقاتها !

ورد أبي مؤكدا :

— في يناير وفبراير .

ولجب جمال :

— محك حق .. إنها جدو كتيبة معتة خلال تلك الشهور .

وصيت برعة تم أرشفة قفلا :

— على أية حال هذا جو غير طبيعي .. لم يسلمنا سيف بيتل هذه

الدفة والإشراق .. لقد بدأ الناس يستلقون في الحدائق بالميوحات .

وتلى أبي ضاحكا :

— هذه فرصة طيبة .. للفرحة في الحدائق .

وبدأنا نضلل وسط الخينة ، ولم استطع بالطبع أن أذكر شبتا

من محالها .. كتبت الظروف التي أحملت بروري في طرقاتها في

المرحلة السابقة .. كتيبة مظلمة .

حتى مررنا بالبدان ذي التمثال العالي .. حيث يحتشد المصلين

حول نكوراته ، ونكرت وقتك والتميلة على راسك .

وهنت في فرحة :

— بدان الحلم .. هل تفكره يا أبي ؟

وقال جمال يمرنا به :

— هذا ميدان ترانجلار .. أو الطرف الآخر ، وهذا شمال نلسون .

وردت « أبي » ثقلة :

— لقد رنناه مع حدي .. إلى الذكره جيدا .

وأردت تقول وهي تشهد في حيرة :

— وحشنا الست لطيفة .

وشرد دهي إليك .. في لفة وشوق ، ونسيت لو أعصم الحين

وانتحمي لأجفك أبلي في الميدان .. نظم الحلم سويا .

واحتزرت العربة الميدان متجهة إلى الفندق .

وبدا لي الناس في الطرقات مثل انعقاد ، واحدا خطأ بعضهم

ينسحب لهم الفلترينفت ، والبعض يثؤل .

والصمت لي للجو اثره المجهب في أخلاق الناس ..

في أول مرة .. والتلوج تتلاحق على وجه الأرض ، والمطر ينهمر ،

والريح تصف .. كان الناس يتدفقون ، كالطاردين .. لم يكن أحدهم

ينظر للأخر .

وفي هذه المرة ، والشمس قد اشرقت ، والجو قد دفىء هدلت

حطامه ، وبدأ البعض ينظر إلى وجوه البعض .

ولو ازداد الدفء واشتدت الحرارة لاسطفوا في كسل واسترحاء

على الأرصفة .

ووقفت العربة أخيرا على باب الفندق .

وبدت زهور الأورثسة والتوليب تبلا محطه ، وتكاثرت الأشجار

في ميدانه الصغير .

ولم يد هناك شيء قد تحير من محالم المكان .. سوى الإزدحام

والخسرة ، ويطه حيا الناس .

وجلسنا في الردهة فترة .. حتى أتم أبي الأستاذ جمال إجراءات

الفندق .

واتبل العمال المجوز يهمل الحفائب ، ولم يك يرائي حتى عتف

في محبيا :

— من زين طويل لم تر المسيدة الصغيرة الجميلة .. عشر سنوات ؟

ولحيته ضاحكة :

— ثمن سنوات .

وهز رأسه ولجب يقول سلفرا :

— عشرة أو ثمانية .. لا تخطف كثيرا .. بالنسبة لعمرنا ..

لقد ينهضنا المزيد من الوهن ، وينمك الكثير من البهائم والجمال .

وقلت له مؤكدا :

— لم تعمل فيك السنون شيئا .. تبدو كما أنت أو أكثر شيئا .

— شكرا .. شكرا .. في هذه السن يكتفى أن يظل الإنسان كما هو .. لم نعد في حاجة إلى الشباب .. المهم أن تبقى كما نحن . يكتفى هذا جدا .

ونظر إلى سلكي ثم قال :

— وكيف حال سالك ؟

— سأحاول عملية أخرى .

— مستعجع هذه المرة .. فبدن الحسن بنية ، واتوى إرادة ، ونشد تقاليدا .. ليساعدك الله .

وانحنى بالحقائب إلى الحجرة ، وكانت هذه المرة في الدور الأرضي .. جناح من حجريين للثوم ، وحجرة جلوس ، يطل على مدخل الفندق ، وميرنا الممر المفضي إلى الجناح .

نفس الممر الذي يقوم على يساره حقول البنفسج والفصريات والفاكهة وكل ما يحداه الإنسان للطعام تباع بطريقة اخذ منك .. ثيق لطيف كصائون الحلاتة الذي يجاوره والذي يبيع الحلوى والمعطورات في أحد قصبه ، وفي المواجهة في الناحية الأخرى من الممر حائوت الفردوات والسيدلية .

وبجوار السيدلية مباشرة يوجد باب الجناح الذي نزلنا فيه .

والحسبت بنوس وأنا أجد جناحنا قرب الجوانب الأنيقة ، وبشكلي إحساس بالآلة والفرجة وأنا افتح إحدى النوافذ وأجدنا تطل على الحديقة الصغيرة التي تقع في مدخل الفندق وأمام المبدان بكسجاره الفخمر والناس يروهون ويفقدون في الطريق .

كل شيء كان يبعث على الفرحة والتفاؤل ، وفتيت أن اجلس لأكتب إليك .. وأحدثك عن كل ما رأيت ، كيف يبدو جبلا مشرقا .. يملؤني بالأمل في الحياة والرجاء في المستقبل .

وانهكت « أمي » في مهمتها التقليدية ، تنظيف الدواليب ، وترتيب

الملابس فيها ، ورحلت أمتعتها في ركن الملابس ، وخرج أبي يطلب من إدارة الفندق أطباق وكوبلات ومبيلات للطبخ .. ثم صحتته بعد ذلك إلى حائوت البقالة ، وأمسك هو بالسلة المعدنية ورحلت أنا أضغ البضائع فيها .

وابتعدنا أشياء كثيرة .. لجرد لنا رأيناها أماننا ، جبلة العرض أثبة التبعة .

وعندنا إلى « أمي » بالطيب والأظمية والكواكبه .. ويأشياء كثيرة من حائوت الفردوات والسيدلية .

ونظرت أمي إلى أبي في أسف وهزت رأسها وتسلطت ساخرة : — بهذا أصنع فيك ؟ أنتوي أن تفتح حقولنا ، نضرب به الحوائث المجاورة لنا ؟

واجاب أبي مختلرا :

— هذه أشياء مستحتاج إليها كلها .

— ولماذا تحضرها مرة واحدة ؟ ! أنتلنا في صحراء ، ثم أن الحوائث مستحق معد ذلك ؟

وكرهت أن يشعر أبي بالخطأ .. لا سيما وأنا شريكته في الذنب ، فقلت لأمي :

— لن يفيد منها شيء ، ولدينا ثلاثة .. لماذا لا نشترى حاجتنا مرة واحدة ، بدل أن نذهب كل برهة لنشترى شيئا ؟

وهزت « أمي » رأسها وقالت ببساطة وهي ترفض الأكيد :

— سخيلة .. مال أبيك .

وضحك « أبي » وهو يرى أن لوم أمي قد انتهى إلى هذه النتيجة .

وبدانا الاستعداد للحمال .. ثم استبدعنا بالاستحمام والاسترخاء .. وقد ملأنا إحساسا بقلنا في نزهة ، ولما في رحلة علاج .

ولم نكد سترخي .. حتى بدأت الأدمان تتطرق في بهاء الوسواس . ولم نك أن الطفرين الآخرين .. أبي وأمي ، ولا سيما الأخيرة ..

قد انطلقا ليسترخيا جميع الاحتمالات .. بأسوا ما فيها من افتراضات .

وكتبت — بلا جدال — أنظم إحساسا بهم .. كان التناول يملأ
نفسى ، والأمل المشرق يضيء جوانحي .

لم تستطع اليد التى تتعسس مفتاح الضوء فى أنفوسنا لتعبر حالتنا ..
أن تجد المفتاح بسهولة لتطفيه الضوء الذى ملأنا به نفسى .

بسة الضوء التى أضابت بها جوانحي .. كانت القوى من كل
شيء .

حتى تلكك أضأت نفسى ، واحتفظت بمفتاح الضوء حتى لا يمسك
به أحد .. نعيم إلى نفسى الظلمة .

كنت أحس بأن الله — فى هذه المرة — يثق بجانبى ، وأنه إذا
كان قد نسبته مرة .. فهو — كما قلت حفيظة — سيذكرنى مرات .

لقد ذكرت ما تقوله لى دائما .. بأن الله يحنى ، وأن على " أن أوس بانه
لن يخطئ عني ، وأنه إذا أصابنى بضرر فلائنه يدفع به ضررا أشد .

لم يكن بى خشية .. من المستشفى ولا من المبلية ، ولا من السماح
الليل التى كنت أراها تطل على " من نافذة العجزة الصغيرة بالمستشفى .

كان الإيمان يملأ نفسى .

الإيمان بكل شيء .. بالله ، وبالحياة .. وبك ، وبمسيرنا المشترك
لدى مت أحسن — من ليطر لفتنى بك — أنه بات أبرأ مقبرا .

التجربة الثانية

ذهبتا فى الصباح للقاء الطبيب .

وعبرنا الميدان الصغير متجهين بيننا إلى طريق " ملرى لبيون " ،
الذى يقع فيه المستشفى ، وبدأت " ريجنت بارك " على يميننا متراجحة
الأنوار رحمة الأرجاء .. تكاثفت أشجارها واكتظفت زهور الداليا فى
أحواضها .

وقلت لأبى فى دهشة :

— انظر كيف تبدو الحديقة !

— رائعة !! أتذكرين كيف تركناها أحر مرة ؟

— لا تذكرى .. ما طشت يوما أن الحياة يمكن أن تبحث فى فصولها
الحرى الثابتة من صفحة الجليد .

وعند أول ملائمة مرور قبل أن نصل إلى المستشفى اتجهنا إلى
الحاسب الأخر من الطريق وللفنا الميدان الدائرى حول المنتزه الصغير
وسرنا يسيرا إلى طريق بورتلاند حتى وصلنا إلى عيادة الطبيب .

وعبرنا الباب الكبير ووقفنا فى مخطط المبنى المروى بالسجاد
الحرير .. تطرق باب الشقة .

وأحسست أن الزمن لم يمر .

لقد بدا كل شيء كما كان فى أول زيارة .. حتى الحارس الأتيق
الذى تابنا إلى الباب أول مرة والذى ظننته أحد اللوردات أو الوزراء

.. قد بدا كما هو .. يتجس على مقدمه في أحد جوانب المحفل ، واكتفى
هذه المرة بأن يمنحنا إيماءة من رأسه .. دون أن يكلف نفسه مشقة
النهوض ، وهو يريانا نتجه إلى الباب مباشرة دون أن تبدو علينا حيرة
المرّة الأولى .

وبعد لحظة فتح الباب وبعت المرسة التي يملأ وجهها للنش تنظر
إليها بمسألة .

ورد « أبي » على نظراتها المتسائلة قائلا :

— لذي "موسع" الدكتور .

— باسم من ؟

— الأنسة سهر عبد الهادي السمان .

وبعت على وجه المرسة علامات الترحيب والمعرفة ، وبسست
وهي تصيح الطريق ثقلة :

— تفضلا .

ووجهت الحديث إلى "ممسألة" في رفق :

— كيف حال سالتك ؟ . مضت مدة طويلة منذ آخر مرة رأيته
فيها .. أرجو أن تكون سالتك أحسن .

ولم تنتظر ردى بل أشارت إلى ركن المحفل الذي رست فيه المتاعد
حول المدفأة ثقلة :

— ثقفة واحدة .. سأخبره بحضوركما .

وانجهت إلى حجرة الطبيب وقد بدا عليها الترهل والاندلاء ، واتحد
جسدها شكل السيدات الأهل .

ونظرت حولى .. انتشاهل ببراقبة المكان .

ولم يد عليه تخير يذكر .

نفس الصورة .. نفس الأثاث ، ومرسة تصعد من سلم الدو
تحمل لوحات الأشعة وفخشي وراء باب مغلق .

والمدفأة تد غطت فمحتها لوحة ألفت بقايا الحطب في بالديها ،

ووصعت ليلها ملة ملئت بلزهور .. والضوء يتسرب من النافذة
ينطس على لشعة الصباح الكبريلى الذى أخوه يحكم المادة .

وبعد برهة فتح الباب وانثلت المرسة تدعونا للدخول .

وفي طريقنا إلى الباب التقينا بمساعد الطبيب .. بقلته الطويلة
وجسده الضخم .. وشمرات بيض تسلك إلى عوديه .

وحيزنا الرجل لأول وهلة وحف بنا برحبا :

— هلو .. كيف أنت الآن ؟

وابسست ثقلة ببساطة :

— أريد عملية أخرى .

ورد الرجل الطويل الطبيب قائلا :

— وسن على استعداد .

ولرف « أبي » بمسألة في قلق :

— نفس العملية السابقة ؟ عملية التزويج ؟ أليس كذلك ؟

وابسست الرجل قائلا وهو يشير إلى الداخل حيث الطبيب الكبير .

— إنها مسالته هو .

ورد « أبي » في ضيق :

— أرجو ألا يبعد المناقشة السابقة ، وألا يعارضها بشدة كما عارضها
أول مرة .

وقال الطبيب الشاب في عتوه دون أن يعطى « أبي » ردا
تسليا :

— أرجو ذلك .

وقال « أبي » في إصرار :

— لقد كلى على استعداد لأن بجريها مرة ثانية .

ورث الطبيب على كف « أبي » قائلا وهو يتجه إلى حجرته :

— لا تظن .

وانجهت إلى حجرة الطبيب وقد بدا الطق على وجه « أبي » ونعت
المرسة الباب ، وغفلنا إلى الحجرة .

لم يكن بها من حديث .. سوى مزيد من غموة النهار ، وزهور حبيب
جوف الدفأة الأسود .

والرجل الطويل المجوز يفتح وراء مكتبه محابيه الكيفيين
والشعيرات الحبر الدقيقة تخرج على طائفتي أنه .
وتعش الرجل مرحبا ماداً يده من وراء مكتبه ، وقال ضاحكا وكأله
كان ينتظر قدومي طوال الثلثي سنوات الماضية :
— عدت ثلثية ! !

ورسيت أبتسامة على شفاهي ولم أفر به أجيب .

كنت أحس برغبة من الرجل ومن مجسمه الذي يوشك أن يشق
سأتي ، ولم يبد أن الرجل ينتظر مني رداً فقد أقبل على من وراء مكتبه
ونظر إلى يتعجسني من أسفل إلى أعلى وقال وكأنه يتحدث عن لرس
تعرض للبيع :

— نموت كثيرا !!

وقال « أبي » مبتلغا على قوله :

— ثمن سنوات .. ليست بال قليل .

وقال الطبيب وهو يشير بيده إلى آخر الغرفة :

— أمشي قليلا .

وسرت أمله جنة وذهباً وقد تبكت الاضطراب وأنا أحس أن
سأتي تلك حول الأخرى .. وهو يرتجى فأحسا ثم أشار لي بالوقوف
قللا :

— كلي .

واقترب مني ثم أرفف برقي :

— أخلصي المشد .

وحلست على المقعد وركب « أبي » سوارى بمساعدتي على مك
المشد والطبيب يرتبه وهو يحس بهدي لهفته على .

ونهمست أتوكا على ذراع « أبي » حتى الفراش الصغير في ركن

الحررة .. ورفقت لوقه ، وكشف الطبيب سألني وأخذني تحسها .
ومست لفترة قصيرة وهو ممبك في الفحص والقياس ، و « أبي »
يتف على مقربة منه وقد بدت على وجهه انصي آيات التلق .

وعاد الطبيب إلى مقعده ، وجلست الممرضة على المقعد المحض أمامه
وقد أمسكت بلك فريدها وأعدت القلم لكتابة تطبيقه .
وأخذ الطبيب يطرق المكتب بقلم في يده طرقات منتظمة ، و « أبي »
تد على بصره مشفته ينتظر في لهفة ما يوشك أن ينطق به .

وتشأغلث أنا في ربط المشد وأنا أرفف السبع وقد ضلكتي النعم
أن أضمه مرة أخرى في قمار جارف من التلق والخوف .
ونطق الطبيب قائلا في ثورة :

— كان يجب أن تجري عقب العملية الأولى مباشرة .

وأخذ نفساً قصيراً ثم أطلقه في زفرة تنم عن الضيق ، ولم يستطع
أبي أن يستر حلايات التعويم والباس التي علت وجهه من حديث الطبيب
الذي لا يتم على ظهر .

واستطرد الطبيب يقول ببطله :

— على أية حال .. ليس من المتعذر إجراؤها .

وكانت لهجة الحديث لا حياء النفس ثقة ، ولكنها كانت خيراً من
لا شيء .

وتسائل « أبي » في قلق :

— العملية نفسها ؟

وأجاب الطبيب بلفظ متصل :

— طبعاً .

وعاد « أبي » يتسائل في قوة من الإلحاح :

— عملية تزويج وتر العملية السلبية في وتر العملية المشلولية ؟

وهز الطبيب رأسه موافقا :

ولم يطش « أبي » تبلياً حتى سأل سؤاله الأخير قائلا :

— وليست عملية تثبيت مفصل الكاحل ؟

وضحك الطبيب هذه المرة وأجاب قائلا :

— لم تنس معلومتك بعد ؟ !

وصيت برهة وهو يريق « أبى » لى شيء من الدهشة وقال لى عدوه .

— ما زلت أذكر مناقشتنا الأولى ، ولست أنوى أن أعيدها ثانية ..
أنا ما زلت ضد عملية التزويج بشدة ، ولكنى أعرف أيضا أنك تريدنا بشدة ، وكما سألته لك من المرة الأولى .. أسلم لك فى هذه المرة .

ونظر إلى الطبيب باسما فى إعجاب وهو يقول لأبى مازحا :

— مستندائك هذه المرة أقوى .

ثم استطرد يقول فى لهجة مثالية :

— هذا الشيء الجميل يجب ألا تدع نصفا يشوب جماله .

ولم استطع أن أوقف الفم المتصاعد إلى وجهى حياء ، ولم أعرف بماذا أجيب .. فلما لم أعود الرد على غزل .

لم يمازلنى من قبل أهد .. حتى أنت .

وابتسم « أبى » ، وانتقلت إلى « عدوى الابتسام » ووجدت نفسى اتول ببساطة للطبيب الكبير المجاليل :

— شكرا .

وهز الرجل رأسه قائلا :

— سأبذل كل ما أمك من جهد ، وأرجو أن أتجح .

وقال « أبى » ببلبل ميق :

— ستسمح لى شاء الله . لست أعرف كيف أشكر .

— لم أنبل شيئا بعد استحق عليه الشكر .

— لقد بعثت لى نفسى الطيبانة .

— طيبانة الوهم لا تكفى .

— ولكنها تريح .

— حسن . ليعيننا الله .. حتى نجعل من الوهم حقيقة .

ثم وجه الحديث إلى الممرضة قائلا :

— نحجز الحجرة فى المستشفى هذا ، وسأجرى العملية بعد غد .
وتهمس الرجل ويد يده مودعا وهو يقول :

— تلتقى بعد غد .

وتشدنا على يده المعروفة ذات الأصابع الطويلة .. ثم أغدنا الحجرة وانطلقنا إلى الطريق .

ولم يمر اليوم التالي كنا نلجأ إلى المستشفى .

لم يطف بنا أحد شوارع لندن ليرينا محالها ، ولا دعانا أحد للعشاء ولا احتسب بنا أحد .

ولا أظننا كنا فى حاجة إلى شيء من هذا .. فقد أقوى كل منا لى نراشه مكررا مستسلمين إلى الظنون مفرقين لى الأوهام .

وكنا بلا شك أقوى أمصبا هذه المرة .

لم يكن هناك خوف من مجهول .

وكانت التجربة السابقة على قسوتها قد أعفنا للقاء التجربة الثانية ، فلوب أهدا ، ونلوس أكثر ثباتا وشجاعة .

كنا نعرف ماذا سيحدث لنا لى كل خطوة .

وصلنا إلى باب المستشفى .. وتجاوزنا بائع الزهور ، وحيثما العارس الطويل برقة وقائنا إلى غرفة الاستعلامات المسمرة على يسار الباب ، وبعد أن فحص السجل وكتب بصفة أسطر رفع رأسه قائلا :

— حجرة ٥١٤ .

وأدسست شيء من الضيق وأنا أجد ذاكرتى ما زالت تعى نفس الرزم .. رزم الغرفة الملبدة المسبقة التى رقدت فيها خلال العملية الأولى ، والتى كان « أبى » لا يعرف كيف يشرك فيها .. ولا أين يجلس إذا ما زاد منه الأوزار على اثنين .

ولم « أبى » مظاهر الضيق على وجهى وهز رأسه بتسلا عما سى .. فقلت لى غير انكراث :

— نفس الغرفة المسبقة .

— كيف مررت ؟

— ما رلت أنكر الرقم .

— مير محتول .

— سنرى .

واتجهنا إلى المصعد يحمل « أبى » حقيبة ملابس وتحمل « امى »

سلة من الورق تحوى علبة شيكولاتة ومسكوبت وبعض الفاكهة .

وفتح باب المصعد وتولعت أن أرى الحارسة المرحاء الطيبة ذات

الوجه البشوش والتم البلمس .

لم أكن أحس أن هناك شيئاً قد تغير .. كل كل شيء كما تركته

حتى لكان فيبني لم تتعد أبلياً .

وسأسى أنى لم أجد الحارسة المرحاء ، ووجدت بدلاً منها حارسة

أخرى ذات وجه أشبه بالرجال .

ولم تبسم ، وسألت « أبى » فى صرامة :

— أى دور ؟

— الخافيس .

ووجدت « أبى » يسأل السؤال الذى كنت أود أن أسأله من

الحارسة المرحاء .

قال مستغلاً فى ألب والادوار تتوالى أمام باب المصعد :

— أين يسر برجريت ؟

ولم تجب الحارسة ذات الوجه الرجلى وكل السؤال لا يعنىها .

وماد « أبى » يقول بنفس الألب والرفة :

— لقد كانت تعمل هنا منذ ثمان سنوات .

ونظرت الحارسة إلى « أبى » وأجبت ببساطة :

— ماتت .

وانتهى الحديث .. كنت أود أن ألتاحا .. كنت تهتم فى نفسى

الأبل دائماً بانتسابها المشحمة وكتابتها الرتيقة وهديلها عن أنها الذى

تهبست ساقه ثم أصبح بعد ذلك بطلا فى كره القدم .

وفتحت الحارسة الباب فقللة فى لهجة صرامة :

— الدور الخامس .. شكراً .

وسرنا فى الممر الطويل بجدرانه البهض ومرصاته اللاتنى يتحركن

فى مجلة كنهن مريات تنرق فى الطريق .

وقبل آخر الممر اسحرت بنا الممرسة التى تقودنا حتى وقلت منا

أمام الحجرة رقم ٥١٤ .

ونظر « أبى » إلى الممرسة وتساءل فى شيق :

— ألا توجد غرفة غير هذه ؟

وابتسمت الممرسة وأجابت فى رقة :

— هذه هى الغرفة المحجوزة لكم .

— ألا توجد حجرات أكبر من هذه ؟

— يمكن الاتصال بالمكتب من أجل هذا .

وانصارت الممرسة إلى داخل الغرفة فقللة :

— تصفحوا وساقوم بالاتصال بالمسؤولين فى المكتب من أجل تدبير

غرفة أكبر إذا كانت هناك غرف خالية .

ودخلنا الغرفة .

لم أجد بها شيئاً جديداً .

الفراش يتوسطها ويتقسما قسمين ، والعرض بجواره مستنوق

الصسيل القش الذهبى المستطيل الذى كان يحلس عليه « أبى » ..

والدولاب ومعد القش الكبير أسفل التافذة .

حتى مستر النافذة التى تبدو الجدران الداكنة من ورائها تتعلى بنفسى

لونها المعتدل كان لم تبد إلاها يد بالتغيير خلال السنوات الثمانية .

عجبا لهؤلاء الإنجليز !

وعجبا لكرهم للتغيير والتبديل .

هذا المستشفى الكبير لم يتغير به شيء سوى الممرسة المرحاء ..

لأنها ماتت !

ولعل وتسمى فى هذه الحجرة ملاذات .. لم يكن من فيل الصدفه

.. بل كان إعادة للشيء إلى موضعه ، ولو بعد ثمان سنوات .

ولم تحاول « أيس » في أول الأمر أن ترسي التثبيت .. فقد كتكت
تتظر تبديل الغرفة .. ولكن المرغمة الرقبة السريعة الخطوات أثبتت
عليها لتعجز قفلة :

— لبس هناك غرفة خالصة في المستشفى سوى هذه في الوقت
الحاضر .. وقد وعدت رئيسة المكتب مقتل إلى غرفة أكبر بمجرد أن
تخلو إحدى الحجرات .

وهز « أيس » رأسه مستسلما وهو يقول :

— سنستقر هنا .. لقد ألفنا هذه الغرفة ، ولعلها تبحتنا حظا أفضل
هذه المرة .

وكتكت « أيس » قد بدأت في فتح الحقيبة ، ورحى الملابس دون
أن تنظر استكمال المناقشة بين « أيس » والمرغمة .

وسابت الأمور بعد ذلك في مجراها المنتظر .

لم يختلف شيء عن المرة السابقة .. سوى غيبة خفتك وزوجها ،
وهيا — إذا قيسا بيا فعلاء لنا أول مرة — شيء كبير خطير .

لقد كنا حننا محفلا للتوتر والضيق والقلق ، الانتعاش كثيرا هذه
المرة ، ولم يخفف من انتقادنا له سوى امتياعنا التجسرية ، والتمسك
الاستعداد والمعارف الموجودين في نفس حولنا قبل السليبة ومعدنا .
ولست نلح هناك من جديد يدكر في التجربة الثانية .

نفس الحفلة المبهمة قبل العملية ومسح سائى وربطها بالثلاثي ..
ثم نقلت بالفرش إلى الطابق الطوى ، وإشارتي لأيس أشجعه وقد بدا
عليه الحزن والجزع ومحاولة التماسك والتجملد .
وماذا أيضا ؟ !

لا شيء حتى أثبتت من المفخر .. لأجد وجه « أيس » يطل على وهو
يحاول الإبتسام .

وأعتر وجه « أيس » وبهتت محالته ولفته بوحه شسبب لميرت
الكائنات من حولي ، وأجسست متاثلا حثني وكل حلا شديدا يتشدها
إلى أسفل ، وأزاد العمل المطلق محثني حتى أحسست بنفسى أقوص
تحت وطئه .

ورحت أبذل جهدي لكي أطفو مرة ثانية .. ومدت أيدى جفتي
إلى أعلى حتى استطعت أن أنتح مني ، واستطعت أن أبصر وجه
« أيس » من جديد وقد علته ابتسامة مشجعة وكثي به يحاول انتشالي
من حوة سميكة أقوص فيها .

وسمعت صوته ياتي من بعيد :

— سيهر .

وحاولت أن أجيبه ، ولطى أطلعت .. بعد رأيت الابتسامة تزداد
انساعا على شفتيه ، وسمعت صوته ياتي من أعمق النجيب الذي بدا
لي وكأنه ياتي في قراره :

— كبد حالك يا حبيبي !

ورسيت ابتسامة على شفتي لقد وجدتها أسهل على تقاوي
المداعبة من محاولة النطق .

وبد « أيس » يده يتحسس جبينى ثم انحنى يتبلى في رفق شديد
وهو يهيس .

— جيد الله على السلامة يا حبيبي .

وبكل ما أملك من جهد رنعت تراسى أحوال مناه .. ولكن لمرامى
سقطت متهاوية إلى جفتي في منتصف الطريق إليه .
وهتت متهاكة أحوال الاعتذار من عجزى :
— آنا متعبة .

— لا بأس يا حبيبي ، استريحى ، بعد برهة ستبتكين فواك ،
لا تتعبى نفسك .

ولطقت زفرة حارة ، وأنا لمس يفتى يطف .. وأفرجت لاسنى
أبلى به شفتي ، والثرت بعيني إلى منبور المياه فوق الحوض .
وهز « أيس » رأسه قليلا .

— دقيقة واحدة يا حبيبي .

ثم دق جرس المرغمة بأضاء النور الأحمر .

وقبل أن تاتى المبرسة لطل وجه « أسي » من لحة الباب وقد بدت عليها صرة الموت .

وختت بلبي قفلة :

— ماذا بها ؟

— لا شيء .. لقد انكفت .. افضلى .

واقبلت « أسي » ، ولحت الدموع تساب على خديها .. وكأنيما قد أصعجا مجرى طيبيها للدموع ، وهاولت جهدها وهي تزفرد ربتها وتبتلع دمعها أن تبتسم .

وكتت لسبق منها إلى الابتسام ، ومعنى الله القدرة على الحديث حتى أخلف جزمها .

فلت أحاول المزاح :

— قطرة ماء ، وأعطيك بصرونى الشهري .

وهكت « أسي » من قلبها :

— سلامتك ألف سلامة ، لفتى كنت بظلك يا حبيبتى .

وأقبلت المبرسة التلعيلة الجسد ، السريعة الخطوات ، تطل برأسها وتضغط على الزر لتطفىء النور الأحمر متسائلة لى صوت حالت :

— هل انكفت ؟

ورد أسي :

— أجل .. وتريد أن تشرب .

ودخلت المبرسة وهي تفلق الباب وراءها قفلة :

— سأعطيكها بضع قطرات .

ثم أقبلت على " بكوب الماء وهي تبسم قفلة :

— بمجرد أن تشعري بالأم فى فديك .. أغبريسى حتى أعطيك قرصين مهدئين .. لا نريدك أن تشعري بأى ألم .

ورسفت قطرات الماء من لفظة ، ودأت أحس بالخوف فى قفلى ..
أو هكذا خيل لى بمجرد أن تحدثت المبرسة منه .

ولطنت أول آهة ، وسألنى أسي :

— أهلك ما بؤلك ؟

واثرت برأسى ، ففكت المبرسة قفلة :

— لقد أوحيت إليكم بالأم .. لا بأس ، حذى القرصين وأريحينا .

ودنت يدها إلى حقيبة « المرولة » ثم أخرجت زجاجة صغيرة متحتنى منها قرصين ووحشتنى انظف عليهما من أجل الماء الذى سأشربهما به .

ودنت المبرسة يدها إلى شفتى بالقرصين ، ثم بكوب الماء ، وبلعت القرصين وحاولت أن أخرج المزيد من الماء ولكن المبرسة رفعت الكوب من شفتى بحة قفلة :

— الإحتيال ممنوع .. لقد شربت ما بكتى لابتلاع القرصين .

ونظرت إلى أسي وأسى قفلة :

— دموها شترج .

ثم بدت يدها لتصلح القفص الحديدى الذى وضع فى آخر الفراش لينع ضغط الخطأ على قفلى .

ودكرت النماء التى شعت من الجبس ، وأغرقت الملاة فى المرة السابقة وأحسست برجة تسرى فى جسدى .

واثرت لأبى فأكترت بقسلا فى حنان :

— نعم يا حبيبتى .

وثلت له فى ضعف شديد :

— الملاة .

— بالها ؟

— أما زال عليها حماء ؟

وأحسست كاتى لدعت « أسي » فى باطنه .. لقد بدأ الألم على وجهه ، ولكنه سرعان ما تمالك ورسم الانفصالية على شفتيه قفلا فلا تتكبر :

— بالطبع لا ..

ثم رابته بقترب من المبرسة ويحاول مشاركتها لى إصلاح الفراش

أسفل القفص حتى يرى سائتي .. ورأيت الطمانيئة تسرى من ثيابه ،
ورفع القفص عن القفص .. واستطعت أن أرى سائتي الموضوعة في
الجسب بفضاء نقيّة . بلا أثر لنماء عليها أو على الملائة .
وأحسست بشيء من الطمانيئة .. من شيء انفس إلى من ينظر
النماء .

ومر الوقت .. بعد ذلك .. كما مر بين من قبل ، وكما يمكن أن يمر
بكل الناس الذين أجريت لهم عمليات بالخدر .

الطعش ، والتمنيان ، والإحساس بالفسف ، والصبق . والنصرم
.. ووجوه الزوار تتوالى باسماء في رقة ثم تنصرف ، وميمون الأهل تظل
مشدوحة جزمة .. حتى حل موعد انصراف الزوار .. فالتعريف الجميع
.. عدا « أبي وأمي » .. اللذين جلسا يرقبل المشامير التي ارتسبت
على سيمائتي .. ويترقبان لحظة إغفائي .

وكننت هذه المرة أكثر تماسكا .. فخلت لهما في صوت منحنه كل
يا لملك من قوة :

— أتلن في الوقت قد حان للانصراف .

وقال أبي دون أن يكلف نفسه بشقة النظر إلى الساعة .

— بدي .

وبدت « أمي » رائحة النصر .. شرّ الذهن ، وأطلقت من صدرها
زفرة حارة ، وقالت في أسى :

— لماذا لا يسبحون في ملهوم ؟ : لم أر أحداً من هؤلاء النعم !

وقبل أن يهيبها « أبي » فتح الباب وأقبل ببرعة الليل ، كانت
صغيرة ، سوداء الشعراء ، حلوة العينين .

وقالت لأمي في رقة :

— حان الوقت للانصراف .

ثم أقبلت عليّ - فسك كئي في هتان .. واستطردت تقول :

— ساعديك ترمسا متوفا .. ولن تلمني حتى تستعمرني في نوم

حديء هيق حتى الصباح ، وسأبر عليك بين آونة وأخرى .. وإذا
احتجت أي شيء فخطي الجرس .. أتى إليك حالا .
وكان أبي أكثر تجلدا هذه المرة .

لقد ذكرته في المرة السابقة ، وهو يرقبني في جزع .. ويأبى أن
ينارقتي .. فكرت بنظرة بالمطف والنبعة .. ومبرعة الليل السابقة
تحاول أن تنقمة بالرحيل .. وهو لا يكاد يصل إلى المصعد حتى يعود
إلى ثأية .

وهو « أبي » رأسه وهو ينهض إلى الدواب ليخرج جاكنته ورباط
عنته ويقول للبرصة الصغيرة الطوة :

— سنتركها لعنايك .

وابتسبت المبرصة ثقلة :

— لا تلقى .

وارتدى « أبي » الجاكطة وأعدت « أمي » حقيبتها وناعبا للتمشرف .

وتيلنتي « أمي » وخسبتها إلى وأنا أحس يندوعها بالسلمة تمشح

حدي ، وقلت لها :

— أنا بخير .

— دائما يا حبيبتى .

وقال أبي وهو يتحسس شعوري :

— سائتي إليك في الصباح المبكر .

ورسمت على شفتي ما استطاعت أن تمنحني قواي من تدرء على

الإبصار وأجبت ثقلة :

— من باب الخدم ؟ !

— سأفصح النبعة على معنى وأرفع ياقة العلكة .. هل تذكرين ؟

وهزرت رأسي والإبتسامة بالرائحة مطقة على شفتي .

وانصرف الاثنان .. واتيلت على المبرصة بالقرص النوم .

واستقرت في سبات لم استيقظ منه خلال الليل سوى مرة

أو مرتين .

وفلحت عيني في الصباح .. على صوت الباب يفتح .. وانتدم
« آبي » تنبأل في هدوء .. وقد حمل في يديه صندوقا صغيرا لثمة
بالحقيبة وبالأخرى مجموعة صحف .

وكتت أحس بأنني أفضل حالا .. هلت من جلوس الاحمال التي كانت
تثقلها بالأسس ، ولم أعد أحس أن جسدي يفرص إلى أسفل .
وعشت بأبي بأسبة :
— صباح الخير .

— أهلا سيهر .. ما رايتك في الموعد ؟

— بدعش .. ليك تصافق عليه دائما .

— بل سأتى قبل ذلك .. لقد أخرجني اليوم انتظار الصحف .. لقد
أضلت أن أتي بها إليك .. حتى تتسلى بقراءتها ، لقد أتى بها الساعي
في الثامنة والنصف ، وأتى معها برسالة إليك .

ثم أخرج « آبي » من حقيقته مطروفاً يريد حوى ويد به يده إلى
ثقلها ببساطة :
— أظنها من حمدي .

وكان على أن أبدأ شيئاً من الجهد حتى لا أصبح مرحة وحتى
لا أبدأ يدي لأحتلف الطرف .

وبهذه تسليت رسالتك ، وبشيء من الاتزان والروية وخسبتها
محاربي على الكومودينو ، وتساءلت وأنا أثير إلى الحقيقة التي وصفتها
« آبي » على المتفردة :

— ب هذا ؟

— الريبكورد .. لقد أوصيت عليه صباح الأيس .. وصل بعد
الظهور .. وكنت أبوي أن أملكك بتسجيل ما ستقولينه لي .
— ولماذا لم تفعل ؟

— يبدو لي أنه سيكون لديك ما يفسلك من الحديث .
وتساءلت في دهشة :

— ما هو ؟

— القراءة .

— قراءة ماذا ؟

وأجاب « آبي » ضاحكاً وهو يشير إلى الكومودينو :

— الرسالة .

ونظرت إلى الرسالة بطرف عيني وقلت ادعى الرزانة :

— يمكنك أن تتفكر .

وبسكت آبي ثقلًا وهو يسبك طرف لثني مازحاً :

— أترئبها .. وكفى ادعاء لرزانة .

وجلس « آبي » على المقعد المريح ، وأمسك بالصحف ، ويداً
بمحصها قليلاً :

— سأنشغل منك بقراءة الصحف .. ولا تعبيري موجوداً ،
وأترئبها على مهل .

وبعدت يدي إلى الرسالة ، وكنتي أبدأ يدي لأصايدك ، وتنبئت
لو استطعت أن ألتها أو أصبها إلى صغرى ، وكنتي أحسست بالحياة
من « آبي » ، وأنا أجدد قد تورى وراء الصحيفة المنشورة أعلم
عيني .

وبعدت مرحة وأنا ألتقي عليها كمي .. حتى ألتول استغامي بها .
وأحسست بليلتي لك .. لأجد في كتبك .

كنت أحس بلهفة عليك .. وكنت أحاول أن أبعثك عن تفكيري ..
ومن ألاملي .. حتى لا يفسدني الحبس إليك .

وكتت بعد جئت إلى المستشفى .. أحس بحاجة الممرطة إليك .
وعندما انتفت من الممرط ، وألت على وجه « آبي » .. وأهتز
وراح من الضباب الذي أفرقني ، أحسست بوجهك يخطط برجه
مرحة لم يفتني .

وددت لو طال بقله ولكنه كان أبداً يلفت في الظلام .

حتى في الحلم .. كنت أراه .. متعبدا .. خضع المعلم كالدخان ،
أو السيل .

و كنت أعينه على التجدد فقد كنت أخشى أن يصابف الحاجة على ..
إحساسي بالحرمان .

حتى وصلت رسالتك إلى "

مأخذ طيفك يتجمع في ذهني .. حقيقة جليلة ولصحة .. واهست
ولما أمسك بك في رسالتك .. أنى أصابك ، وثرنو إلى عيبك ،
واسند راسي إلى كتفك .

ويأصابع مرعدة .. فتحت الظرف وأخرجت الوريقات الطويلة ..
لأقرأ بها .

مزيد من الصبر

.. سفير ..

أكتنبا على الورق بعد أن جيمست بها لنفسي بثلثا المرات ، ولما
ارتب الطائرة على وشك التحرك لملى التقط وجهك من وراء إحدى
بواعدها الزجاجية المستديرة .. وأنعمنا بنظري وهي تتسائل وتتسائل
حتى تحظى بك في الفراغ الأزرق الشفاف .

وأعود إلى الفندق في العمل لأجلو إلى نفسي في الصخرة الملتفة
على الوادي الأحمر ، وهساتك الأخيرة ملء أدبي وبمه كنت الصغيرة
ما رلت أحسها في كفى ، وإحساس بالحرمان يحمر نفسي ويعتم الدنيا من
حولى .. وكأنه موجة من موجات الضباب — أو الغطيط — التي تسرى
في الجبل فتترقه في الظلمة .

وكم أكره أن أجعل هذا الحزن الذي يعمرني يتسرب إليك .

كم أكره أن أزعج هذه الثقة التي نبأ بنفسك .. والتي تحتاحين
بها من حزنك الجديدة التي تفوضين غبارها .

ونكفي لا استطيع أن أدمع من هذا العمل الذي يحتم على نفسي
ولما أحلس وحدي .. لأنكرك وأنت تفوضين الجربة وهذا .

وأستل نفسي :

أين أعطى تفوضين هذه التجربة ؟

أثقت أنا الدافع المباشر إليها ؟

وأحس بالصعب الذي يجثم على صدري بزداد تنالا .. وأمود
لأسفل نفسي :

لماذا لم تخض التجربة معا ؟

أبى العدل أن أتركك وحدك تخوضين غمار التجربة المريرة .. بعد
أن أرتبط بصيرتنا وتوحد طريقنا ؟

أي برغم كل ما أحس به من حرط الارتباط بك .. وبأنك قد حيلت
معك في رحلتك بمعنى وتركت لي بعض نفسك .. ورغم إحساسى
الأكيد بأن بعد الشقة لا يمكن أن يعزل أحدنا عن الآخر .. لم ألبى لا أملك
دفع ذلك الإحساس الذى يثقل على نفسى بالذنب .

إحساس بالذنب ، ليس لآتى تركتك تسفرين وحدك ، لما كنت
أملك فى ذلك حيلة ، وما كنت أستطيع إلا الضلوع بالواقع الذى فرضه
على فرضاً بأنصارك على السر وعلى خوض التجربة وحدك .

ولكن إحساسى بالذنب ببعته .. لننى أخفقت فى أن أنقل إليك
حقيقة مشاعرى .. وأفتك بحقيقة موقعك فى نفسى .

وإلا لما أضرت أن تخوض التجربة قبل الارتباط بى ، ولما تصورت
.. أنك لا يمكن أن تكونى سيدة تلبس التى أراها نيك إلا بعد أن تحرى
العملية وتضمنى مسلكك .

أترانى مسئولا .. عن كل هذا الوهم ؟

أجل .. لا حدال فى هذا .

لو أننى نجحت فى نقل بشاعرى إليك .. ولو أنى استطعت
إقناعك بحقيقة موقعك عندى لما كان بك من حاجة إلى أن تعلمى ما فعلت
.. ولأدريتك أن وصفتك فى نفسى شيء معانوى كبير متكامل لا يمكن أن
يعلق بتفاصيل شكلية ، ولا يمكن أن ينقص من قدره .. شيء مادي
مهما بلغ .

وأنا أعتز بتقصيرى فى التعبير عن نفسى .

ولكى ماذا أفعل ولأنا لا أجيد الحديث ، ولم أفرس الحب من قبل ؟

وكانت أتعلم أنه يمكن أن أحس لك بإحساس لكن تعرف أنه موجود
.. دون حاجة منى لجهد التعبير عنه .
أجل .. لقد خلقت هذا دائما .

حلت قلبى من الشغلية بحيث يتم على كل ما به .
وبدا لى .. أنه ليس على سوى أن أحس ، وأترك لك مهمة النقل
اللقى .

ولقد أدبت مهلى على اكمل وجه .

أحسنت لك لأجل الأمانيس ولطيبها وأرقها .. أحسنت بك
بطريقة .. لا أظن من السهل التعبير عنها ، حتى بالكلمة .

كنت أحس بك كالنسيطة الحلوة المبعشة فى يوم خافت ، لو كالشمعة
الشمس فى يوم كتيب قائم .. كلما رايتك أو ذكرتك .. أحسنت
بالراحة والسكينة والإشراق . ونلتكنى رغبة فى حيد الله على نعليه ،
وأنت أهدأها .. إن لم تكونى أجملها ولطيبها ولطها .

وكل شيء نيك جميل .. لفتاك وهيباتك .. نظراتك ونبرات
صوتك ، وأنتسبك الحلوة المعلقة على طرف شفطك .. والذى تتسع
لنكتف من استنك البهش التى تنيب لو قبلتها مينة مينة .

أعجب أن أجزى على قول كل هذا الآن ؟

أم الأعجب أنى لم أكله من قبل ؟

مهما كان الأمر .. ومهما بدا من جرأى .. فمن حلك على فى
وحظك .. وس حلى عليك فى حيرتى وقلقى أن تعمرنى .. كيف
أحببتك .

أحببتك ؟

كيف تركتها تتسرب من لسفى بثل هذه السهولة .. بعد أن
تمرت على لساتى عشرات الأمرات .. وأنا أوشك أن أنقل بها إليك
بعض مشاعرى .. فلا يلبث على يثملها فى خشية وفرد .

فلما حنى بذات تعدين لى شيئا ممزاجا ؟ .. وتغلغلنى فى نفسى موضعما
خاصا ؟

هل ابلح إذا ما قلت لك .. منذ لقيتك ؟ !

منذ سنوات طويلة .. متعباً رايتك لأول مرة وأنا أطوف بكم بمعالم
لدى قبل أن تدخلنى المستشفى .. أحسست باستطبابك .. ومثمة من
صحبك .. مما جعل من التوكل الذى كلمنى به .. عبنى *
رحلة لطيفة .

ونأيت عنى طويلاً بعد ذلك .. فلما التقينا ثانية فى القاهرة ..
مدت لىلكى .. أنك إهدى عجائب حياتى الميزة .

وانفردنا مرة أخرى ، والتقينا من جديد لىلكى أنك العلامة المميزة
الأولى من حياتى .. وفرنسى لى معالم طريق مشرق الأرجاء باهر
الآفاق .. نضمت لى بها أملاً يرسى .. وهذا اسمى لى حقيقته .. فى
حياة لم أحس فيها أملاً ولا وجدت لى فيها هدفاً .. لم كنت أفعل الشئ
لغير نفعه .. كنت أعمل لأجل .. وأكل لأكل ، وأعيش لأعيش ..
لهذا من أبارس كل هذا ، وفى الذهن أبل حيل اتوق إلى لحقيقته .

الفرق بيننا عندما نحب وعندما لا نحب .. هو أننا .. نمارس
حياتنا فى الحلقة الثانية ، ونحن نسيب السعادة مما يستحق السعادة ،
ونأخذ من كل عمل ما يمكن أن يمنحه لنا من نعمة .. أما فى الحالة
الأولى .. تمنح نمارس الحياة فى إحساس دائم بالسعادة .. فلا
قلوبنا فرحة محسها فلا وعى .. نيل كل عمل فى نعمة لأننا نحس أن
وراءه شيئاً بهيجاً ينتظرنا .. تمنى النجى عندما ننام فى فرحة ،
وممتحن فى الصباح على فرحة .. تبدأ مملتنا فى فرحة ، ونتمنى فى
فرحة .

وهكذا أصبحت أمارس حياتى .. بك .. بملك ، ملا أدنى مبالغة
أو تزييد .

انترانى استطعت من قبل أن ألتصق بكل هذا ؟ وأن أؤكد لك
حقيقة موقفك من لى ؟

تطما ؟

وإلا لما تركتني وغررت .. لكى تحوضى غمار تجربة .. تلتينها أفرد
على صحك وضما أثبت فى لى ؟

يا حبيبى .. يا سيده الناس .. فى أى صورة كنت ؟ وعلى أى
شكل أصبحت ؟ !

لشد ما أحس بغضبى من مملتك .. لشد ما أحس بالمرح والاهانة
.. أن تجعلى موقفك لى لى مملكا بشكل مملك .

ومع ذلك لا أفسر أن المملك .

لانى لم أعرف كيف ألتصق بمشاعرى وبموقفك ممدى .

انترانى استطعت الآن ؟

لست أدري .. لقد حاولت جهدى ، وإذا كنت قد عجزت ..
نعمزى أن مشاعرنا أكبر دائماً من قدرتنا على التعبير .

كل ما أرجو ألا تجعلى موقفك من لى .. مجرد شكل .. فهو
أكبر كثيراً من ذلك .. كنت معنى ضخماً كبير .. بملأ حياتى كلها ، ويجعل
مها شيئاً ذا طعم ولون .

إنى أكتب إليك .. لأقول لك ما عجزت عن قوله فى وداعك المبتور
الذى لم أملك إلا أن أكتب فيه على يدك وأؤكد لك أتى معك دائماً ، وأنى
أحبك كما أنت .

ولقد مددت كتابتى إليك بمضى ما لفتنى من ضباب الحزن .. وعسى
ألا أكون قد بدعته عنى الأكل عليك به ، وإلا أكون قد رفعت من كاهلى
من الشيق ما وضعته على كاهلك .

يا حبيبى .. الجميلة .. الشجاعة .. الطيبة .

لم أريد أبداً أن ألقى من عريك .. أو أضف من شجاعتك وروبتك .

ولكنى فقط أردت أن أؤكد لك .. لى أخوض التجربة معك ..
بكل ما أملك من حب لك ، وإحساس بالارتباط بك .

تجارك الله وحقق أملك فى الشقاء .. وجبر خاطر والديك الطيبين

والكرمين .. وأعلمكم إنيما جبيما راضين سألين .
 اكثي إليّ ولو كلمتين .. لتؤكدى لى أنى لم أصابك بكتابتى ..
 إن كنت فعلا .. لم أصابك ... »
 خليفتي !
 كيف تقول هذا : وقد معني من الفرحه والابل والقوة .. ما كنت
 استطيع به أن انطلق من الفرائس بسائى فى الجيس !
 ما أثنى كنت لى حاجة وذاك إلى شيء .. حاجتى إلى كتابك ذلك .
 لقد طويت رسالتك وأغضت عينى ، وقد تلتكى إحساس بسعادة
 مجيبة .

وسميت « أبى » بهنئ لى وقد وضع الصحيفة جثنا .
 — مالك يا سهر ؟
 ونمت عيني وكنت له بلسة :
 — لا شيء .
 — متعة ؟
 — أبدا .
 — لماذا أصبحت عينيك إذا ؟
 وزابت انتسلى اتساعا وهزرت رأسى لى سميت .
 وضحك « أبى » وتساءل لى حيث :
 — سميدة !
 — أجل .
 — من الرسالة ؟
 وهزرت رأسى خاللة وأنا أبسم :
 — من كل شيء .
 وريت « أبى » يدي لى رفق .
 وأرسلت تنهيدة راحة واستطردت أقول :
 — احس أن الدنيا مشرقة من حولى .

ووجدت نفسى من حيث لا أدري استعير تعبيرك الذى تارنت به
 مشاعرا عندما يحب ومتدبا لا نصب وتلت لأبى لى لهجة حالة :
 — كل شيء بيعث لى النفس الرضاء .. احس دائما — من حيث
 لا أدري — أنى أنتظر شيئا جبلا .. لست أدري له ؟ !
 أحقيقة كنت لا أدري ما هو الشيء الجبل الذى احس أنه ينتظرنى
 دائما ؟ !
 أم معنى الهباء من أن أقول لأبى أنك تكس وراء كل هذه الإحاسيس
 انطية الشىء لى نفسى ، وتجعل الدنيا مشرقة من حولى ! ؟
 وامسك « أبى » بىدى وأطلق عليها كفه وكأته يقنى إلييه
 ليقنى عافية الزمن .. وانركت أنه يبدل جهدا ليطرد من رأسه كل
 عواكس الخوف ، ورسم على شفتيه ابتسابة وضع لىها كل ما يملك
 من ضلؤل قتلا :

— كل ما ينتترك جبل يا حبيبتى .. مستشبين .. وتعودين سائلة ،
 وسيحقق الله كل آمالك .
 واستطرد « أبى » يتحدث ملهجة المبحر ويرسل الدعوات على
 طريقة « حبة » قتلا :
 — أنت مخلوقة طيبة .. وتضمن الناسى .. إن الله لن يحذلك أبدا
 .. مستبر التجربة على خير لى شاء الله .
 وترك « أبى » القرفة .. وأضلت أنا التشارف بكتابة إليك .
 وكتبت إليك .. لا كلمتين .. بل صفحتين كليلتين ، وضعت بهما كل
 ما لىلك من تغاؤل ورغبا ، وليلك بك وثقة بالحياة .
 وبرت لىأنا بعد ذلك و « أبى » يحاول جهده أن يحل عنى عبثا
 .. ويفكرته الصراى لى يده يريح منها كل يوم يمر وكأنه يريعه من كاهله
 .. حتى اتبل اليوم المنتظر .. يوم لك الجيس ومعرفة متبعة العملية .
 ولم استطع أن أضع من نفسى الإحساسى بذلك الخوف الذى مدا
 بشرب إلى نفسى .
 لى المرة السابقة كنت أغشى نفسى الحس الذى يشعون به القلب

٥١٧

الذى اطلق على سالى .. كنت اخشى عرفة الاشعة .. واحشى من
ان يمس احد قصى المسية .

كنت محلوئى .. يحاول صبيانة .

ولكن فى هذه المرة .. كنت المحلوف ابعد مدى .. واهيق غورا .

كنت اخشى النتيجة ذاتها .

كنت اسأل نفسى « كيف سامود إليك » ! !

رغم كل ما قلته لى وكتبته إلى .

ورغم لى لى القام بعقوبة حيك .

كنت اطلب إلى ان اعود إليك سلمية .

كنت اريد ان اهدى من الطفرة .. بلا مشد .. وبلا مرج .

وانا اطرق الارض مستقيمتين متساويتين سليبتين ، واسير كما يسير كل

الناس .

كنت اود ان اسير وقرامى فى فراخك .. اتكى إليها فى حنا

ورسفة .. لا اتملق بك لتجرنى وراك جراً .

لا نظها لى نلقة .

فما من إسلان يمكن ان يدرك مشامرى .. إلا إذا كان به مكر

ما بى .

إنسان .. يحب .. ويحس بالقتل .

مهما وثق .. من انه محبوب كما هو ، ومهما احس بأنه محبوب علم

علائقه .

فلا شيء يمكن ان يوقف لهفته على ان يكون مخلوقا كلبا . ولا شيء

يمكن ان يعادل رغبته فى ان يكون اهلا للعب الذى يلقيه .

وهكذا لم استطع ان اهل بينى وبين ذلك القلق والتوتر الذى اخذ

بترديد كلبا غريب مودع لك الجيس ، ولا استطعت ان امنع نفسى من

الإحساس بانى اقف على هالوية واوشك ان اجتاح اخضرنا تنوفه علم

نتيجته هوئى ..

ولم اكى وهدى الذى افوض معركة الانتظار والترقب .

كلى يقب إلى جاني « لى » بكل ما يملك من حدة على السيطرة
على امصفه ومشامره ، و « لى » بكل ما يملك من دموع ودموات .

ومضى اليوم المحدث ثقلا متجلفا .

« لى » يتشاكل بالقرارة وعيناه مملكتان بالباب .

« لى » نيك بالابرين نارة .. وترجع كليها إلى السماء نارة

اخرى .. حتى فتح الباب واتبل الرجل ذو المرولة البيضاء بالقتل فى

يده .

وبدأت عملية القتل .. فلما كما حدث فى المرة السابقة .. وخرج

الرجل بعد ان ترك سالى فى قلب الجيس المشقوق .

وبعد مرحلة اثلث المعرسة القصيرة السريعة الخطوات البرائة

العبين .. وبدأت عملية إحراقى بالدراس من الفرقة للظلى إلى فرقة

الأكسمة .

وايسكت بيد « لى » وسلكته ألا يتركى .. فلما كما لمعت بعد

شبل ستوات .

وسار « لى » وقد أمسك بيدي بجوار الفرائش الذى دفعته المعرسة

والخاريس إلى المصد .

وأجريت الأكسمة ، كما أجريت فى المرة السابقة .

وعندت مرة أخرى إلى الحجرة : لى انتظر الطبيب .

وغلب الطبيب .

وطال عليه ، أو هكذا بدا لنا من فرط ثور اعصابنا وظهنا على

معرفة النتيجة .

وبدأت كتابى لطيفان فى عصابة على ملأه الفرائش .. واتا اكاد

اصرخ « لى الطبيب ! » .

ووقف « لى » يربق النلدة وكأه يحاول ان يقتل الوقت ثم

يستدير فجأة مسما بخص بالباب يفتح لبعده الخلفية أو المعرسة ،

نيساها فى شيق من الطبيب .

وتجيب الممرضة في أسف بأنها لا تعرف ، ولكن من المتوقع أن يأتي في أية لحظة .

ولم أر ماذا تفعل « أبي » ، فقد جعلها « أبي » تجلس في غرفة الانتظار مع بعض الاختباء ، ولكن كنت أدرك .. أي حال يمكن أن تكون عليه من الجزع والضياع .

وحاولت الوسواس أن تتسرب إلى نفسي لتقتنعني أن الطبيب قد نأخى لأنه وجد من الأتسعة أن العملية قد أخفقت فلم ير فائدة من المجيء وأنه لن يلبث حتى يرسل إلينا برأيه مع مساعده .

ولكن نناقض كل القوى من الوسواس ، فالتفتت نفسي أنه من غير المعتول إلا يأتي للمضي .. متى المرة السابقة لم يكتف بغضص صورة الأتسعة .. بل أتى وجس تدبى ومعضها محصاً نلها حتى افتتح تمايل أن العملية قد أخفقت .

وسيلاني هذه المرة .. ليعصص نفسي ، ويؤكد لي أن كل شيء على خير ما يرام ، وأنني أستطيع أن أنهض ، وأن أسير كما يسير الناس .

أجل .. إن الأمل هذه المرة يملأ جوانحي .

في المرة السابقة كنت أحس أن الأمل لا يعنوني .

أشفي ، أو لا أشفي ، كان حنفي سواء .

كل ما كنت أريده هو أن أعود إلى بدئي الأمل المشرق ، وأن أهرب من السباح الأليل التي كانت تطل عليّ من مداخل البيوت ، وتتسرب من متائر النافذة .

إن هذا هو ما كنت أريد في المرة السابقة .. مجرد الخلاص ، على أي حال .

أما اليوم فلما أريد الشفاء .

إنه يعني لي كثيراً .

الشفاء الذي لم أعرف في المرة السابقة .. قيمته وحتواه ، قد بات هذه المرة شيئاً له قيمة وله جدوى .

لقد بات الطريق .. إلى أبل حلو .. من أن تكون مخلوقة كاملة بجوارك .. وإن أكون حقاً - لا وهماً - سيدة الناس .

أجل .. لقد كان الأمل الكبير يملأ نفسي ، ويطرده منها كل الوسواس والمخاوف .

وطرق الباب ، ولم يتحرك « أبي » الذي كان يرتب الفراخ من وراء النافذة .

حيل إليّ أن الطارق ، خالصة أو ممرضة .. من غرط بأبسه من حضور الطبيب .

ودخل الطبيب بقماته الطويلة ، وهاجبيه الثقيلين ، وابنسائه الرقيقة على شفتيه .

وبعده بمساعده بوجهه البشوش ، وملامحه التي تبدو كمالح طفل . وحقق الطبيب برحماً في حرج :

— مساء الخير .

وأقبل عليه « أبي » في لهلة قللاً :

— مساء الخير .. كنا ننتظرك في لهلة .

وريت الطبيب على يدي في رفق .. ثم أقبل على سائلي فرفع النصف الأمل من الجيب ، وأهد بتخصسها في فؤاده ، وأنا أرتب مقام وجهه العليدة .

وبعد برهة سحب النصف الأسفل من الجيب من تحت سائلي ، وأمسك بتدني بجهس ويحاول تحريكها .

وحالت بني الفتاة إلى وجه « أبي » ، فوجدته يحلق في الطبيب مشدوها فافتر القم .. ينتقل للسر من وجهه إلى يديه ومن يديه إلى وجهه .. وكأنه يحاول أن يستشف النتيجة من نظرات عينيه أو لمسائه يده .

وبدا لي كأن فحص الطبيب قد طال دهرًا . قد أمسك بسائلي ، واستقر على المقعد بجوار غرائشي دون أن تبدو منه مائدة تم على شيء ، لا لمرحة ، ولا أمي ، لا لآل ولا يأس .

والخيرا ..
والخيرا جدا .

ترك سائى ، وتنهض واتنا وهو يزوم .. ثم أطلق زفرة قصيرة
من أنفه .. ولحد يطرُق طرف الفراش يتبشّته .. طرقات خفيفة
متوالية .

واحسست بشيء يلتوى فى باطنى .

لقد سميت من وجوم الرجل وزوماته ، وطرقات يده ، ريح خمار
تضرب باليأس .

وقد لى ينبس بكلمة .. هتفت بمسألة فى يأس :
— لم تلح ؟ !

ونظر الطبيب إلى « أبى » وتساءل فى حيرة :
— انتحدث فى الخارج ؟

وكان « أبى » قد أبسك بطرف الفراش وكبته بخفى من التهاوى
وبدا وجهه دائما .. ورم شفتيه ككثما يكتم صراخا فى باطنه .
ورد على الطبيب فى صوت أجش ملء نيرانه الأسى واليأس :
— أيرك .

وهمّ الطبيب بمخاطبة الحجرة يتبعه « أبى » .. واحسست
بنتل يطق على صدرى ويكتم ألفاسى ، وبدأ لى أن خروجهما سيترك
كل شيء من حولى خطايا ، وهتكت بابى متوسلة :
— أبى .

وتوقف « أبى » وبد يده فأبسك يهذى .

وتسائل الطبيب وترك يده على مقبض الباب دون أن يفتحته .

وتسائل « أبى » بكل ما يبلا قلبه من أسى وحزن :

— نعم يا حبيبتى ؟

وعدت أمتف متوسلة :

— أريد أن أعرف كل شيء ! .

واحس الطبيب بما أريد وترك مقبض الباب وفاد إلى ، وأطلق
زفرة ثم من حزن حقيقى .. وقال وهو يرمقنى فى إشفاق :

— قد يكون من الجبر أن تعرفى .. فليس هناك شيء يخفى ..

وقال « أبى » مغلّقا على توله :

— إثنى أصارحها دائما بكل شيء .. إنها شجاعة مؤمنة .

وبد الطبيب يده يتحسس جبينى وشعرى .. وقال فى حزن :

— لقد فشلت هذه المرة أيضا .

وصبت برهة قبل أن يردف فى مزم وإصرار :

— ولكن ما زالت هناك فرصة أخرى .. وسأبدل كل ما أملك لكى

أحقق لك ما تريدين .. لن ادع دائما للآمل مهبأ بلغ من الضالة إلا وطرقتك

.. كل ما أرجوه منك مزيدا من الصبر .

وأطلق « أبى » زفرة يأس ، وهز رأسه ثقلا :

— لا داعى لأن نزعها أكثر من هذا .. لست أظن قواها تحتل مطلبه

أخرى ، إنها تستطيع أن تواصل حياتها على حير حال .

واحس « أبى » وهو يرد على الطبيب أن محاولة إشغامى بمحبة

أخرى شرب من المستحيل ، وإن نحيل عذاب رقدة أخرى شواء

لا يبرح أحد أن يسألنى قبولها .

لقد شعر « أبى » هذه المرة بأنه هو الذى لا يرجو أكثر من ب

يحملنى فى أثرب طائفة ويهود بى إلى شيش .. فتما من اللغنية

بالإياب ، ومن الشفاء بمجرد الحياة .

كان « أبى » أبيل إلى الهروب بى أو إلى التعاة بجلدى .

ولكنى .. لفرط دغشته .. لم أكن كذلك .

كانت قدأ الأمل فى نفسى .. تنحس قدرة على الإصرار والمقاومة ،

والشجاعة أن أخوض غير تجربة ثلاثة .

ونحس الطبيب مقوله خطا انطلق به ، ومنح لى ندا بدا من خلاته

وبش شواء .

كان قوله ما زال يتردد فى المنى :

« ما زالت هناك فرصة أخرى » .

« سأل كل ما أملك لكي أحقق لك ما تريدين » .

« لن أدع بفا لألبل إلا وطرقته » .

« كل ما أرجوه منك مريدا من الصبر » .

لقد قذف لي الرجل بلوح من حطام السفينة الفارقة . سفينة للتجربة .
الفاصلة .

عندئذ يدي في إصرار لتعلق به .

اتركت كنت وراة هذا الإصرار .. والعزم ؟

أجل .. ما في فلك شك .

بعد كل ما كتبت ، وكل ما قلت ، وكل ما أكتكت . من شك فرفني كيا
أنا ، وأني أعتني لديك شيئا معويا كبيرا لا تتقص منه عاة ولا ينال منه
هرج .

بعد كل هذا .. كنت أخص بك تدفعني إلى الإصرار والمقلومة ،
وكذلك نعمت عليّ أن أعود إليك سلبية قاهرة

ونظر إلى « أبي » وكأنه يستمر أن الأيد قوله ، وأنتع الطبيب
بأن لا أريد أن أخوض غير تجربة أخرى .

ونظرت إلى الطبيب ، وكل قوله ما زال يتردد في ألتى .

وهننت به متوسلة وكأني لم أسمع قول أبي :

— أها ما زالت هناك فرصة أخرى ؟

وتال الطبيب مؤكدا في لغة وإيمان :

— أجل .

— أهاك احتفال في أن ألتى ؟

— لو لم يكن هناك احتفال لما قلت لك إنه ما زالت هناك فرصة
أخرى .. ولما جرؤت على أن ألتى على عتبة نافذة .

ونظر « أبي » إلى « في حيرة » ، ولم يجزؤ على أن يسد على « بلب
لبل أأحاول التفاد به ، وسأل الطبيب في شيء من التردد :

— أين الجاز أن تنجح العملية ؟

وابتسم الطبيب ووضع يده على كتف « أبي » في رفق وصداقة
قللا :

— لا يمكن أن ألتى على عملية ليس هناك أي احتفال لاحتفالها ..
أنت تذكر أنني كنت ضد إجراء هذه العملية بالذات ، لأنني أعلم أنها
عملية محدية ، وأنها تحتاج إلى صبر طويل ، وكنت أفضل عليها عملية
تثبت الكاثل .. غنصت شفاه مصبون ، حير من شفاه كليل غير
مضون .. أما وقد اختارناها وصمما عليها ، فسألت كل ما أملك
لأجلها .. لن أترك باب ليل كما قلت لكم إلا وطرقته .

وابتسم الطبيب بيدي يشد عليها بشحما .. واستطرد يقول :

— إني أدرك مشاعرها جيدا .. وسأخوض التجربة إلى جانبها
مثل كواي .. وسأبذل من ألتها كل ما أملك من جهد .

وبلاني قول الطبيب بالثقة .. وأحسست أنه استطاع بإصراره
أن يعمل مرارة العزيمة من بلاني ، وأن يصلب عودي الذي قصصه ضربة
الإحباط الفلانة التي تلقيتها بعد طول تقاؤل .

واستطاع « أبي » أن ينفس عنه قبار العزيمة ، وبه يده يشد على
يد الطبيب بإحساس ميق بالثقة .

وتال له في نبرات ملؤها الثقة والإيمان :

— لن استطوع أن أأمر لك عن شكرى .

وصيت برعة و هو ما زال يطبق يده على كف الرجل .. واستطرد
يقول :

— ليا كانت النتيجة .. لن ألتى موقفك التبل إلى جانبنا .

وعاد الطبيب يربت كتف « أبي » قللا :

— ستكون النتيجة حيرا إن شاء الله .. المسألة تحتاج إلى صبر
.. مزيد من الصبر .

ثم نظر إلى سامته وحول بصره إلى مساعده الذي وقف طوال المدة
يرقب في صمت قتلًا :

— الأفضل ألا تنتظر كثيرا .

وشرد بركة .. ثم عاد يسأل بمساعده :

— ماذا لديها غذا ؟

وهز المساعده رأسه قتلًا :

— لا شيء .

— إذن نجريها غذا .

والتفت إلى « أبي » مضطربًا :

— ما رأيك ؟

— ليرك .

ونظر إلى وريت يدي في رفق قتلًا :

— اتفعا ؟ !

— كما تشاء .

— حسن .. سامطى لواليري لكي يجهز كل شيء .

وقبل أن يتأخر الفسرة .. التفت حوله مضطربًا في شيء من
الدهشة :

— أين أبها ؟

وقال « أبي » متهدأ كأنه تذكر عبثًا جديدًا :

— في حجرة الانتظار .. تنتظر مع بعض الأصدقاء .

وهز الطبيب رأسه وكأنها تذكر الإتهار الذي أصابها في المرة
السابقة منذ ثمان سنوات ؟ وقال لأبي :

— لا دامي لأن تشبها بكل هذا .

وفكر « أبي » بركة ثم أجاب :

— سأقول لها إن النتيجة أن تعرف إلا في اللد .

وتصانعت أنا في حيرة :

— وبماذا نقول لها غذا ؟

— نجبرها أن المسألة تحتاج إلى ميلة إضافية بسيطة .

وتهد الطبيب وحطاً نحو الباب قتلًا :

— كان الله في عوننا .

ولوح لي بيده قبل أن يغلق وراء الباب .. واستخرد يقول

بأسيا :

— سنلتقي غذا .. وكما قلت لك .. مزيد من الصبر هو كل ما نحتاج

إليه .

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

وإرادة وعزم وإصرار .. وأنى كما قال الطبيب .. « لم أترك باباً لأبداً إلا طرقته .. وأنى لم أبطل بزيد من الصبر .. حتى لم تعد من الصبر جدوى » .

وفي غرفة الصليبات أقبل بمساعد الطبيب على « أبى » يسأله الانتصاف قتلاً وهو يمشك :

— لا أظنك تريد المشاركة فى الصليبة .

وسر « أبى » نحو الباب بعد أن شد على يدي بشجماً ، والتفت إلى « قل لى » يخبى وراء الباب ليلقى على « نظرة أخيرة » .. وكله يفرغ نفسه من الحجرة انزعاجاً .

لقد صعدت بمنافسته بعد شمول الضربات .. كسأت نظرائه ثم على الخوف ، وعجزت سيطرته على أعصابه .. أن تخفى جرمه .. ماصر على أن يضعنى فى المصعد ويسير حتى غرفة الصليبات .. ولم يجسر أحد أن يمنعه ، وهم يرون على وجهه علامات الإحمرار على أنه يتبعنى حتى النهاية .

وشككتى حقنة المخدر .

ولم أعرف ماذا حدث .

حتى وجفتنى فى الحجرة مرة أخرى .

وانفتحت من المحذر هذه المرة .. بطريقة تختلف كثيراً عنها فى المرتبتين السابقتين .

كنت فى المرتبتين السابقتين أتبع على إحساس بالراحة والاسترخاء والحلول ، وأنا أحس كالمهاقد انزاح من فوق كاهلى .. عندما أترك فى العملية قد انتهت ، وأرى وجه « أبى » يطل على « بابها » فى حضان ليلتفتى بأن كل شيء قد تم على خير .

ولكننى هذه المرة أثلث لأحس بعمل يهجم على صغرى ويطلق على عتى .. ولم أستطع أن أبصر وجه « أبى » الحبيب بين بثبات الوحوه الصارخة من حولى .

آلام

خلعت ظهر التجربة الثالثة بطريقة مرهقة خاطئة .

على اليوم التالى كل التراض يدفع من إلى المصعد .. وقد أسطقت فى استرخاء وخمول بعد أن حقنت بالمحقنة المهدئة .

وبدا « المشوار » من مرط ما تعودته .. كأنه نرمة .. وأبست بيد « أبى » أشجعه ، وكله المصاب .. وقد صار بجوارى ودخل المصعد معى وتبعنى حتى غرفة الصليبات .

وأستقرت « أبى » فى الاستراحة بعد أن ألتفتها أن عملية بمساعده بسيطة لابد أن تجرى لانتعاش الشفاء .

وكان يلم برأى وسواس مفرغ .. يسألنى عما يمكن أن يحدث لو أحقت التجربة الثالثة ، وكنت أحس به يحذبنى إلى قاع بئر عميقة ، ولا ألت أن أحطم منها وأطوف على السطح قبل أن تحيد أنفاسى .

وكنت المح وحيك بين أوتنة وأخرى يطل على .. وفى صيبي طرات مذاب .. وكنتى بك ظومى على عتلى ، وتساءلت :

« أما استطعت إقتامك بقدرتك فى نفسى بعد كل ما كنتت 11 » .

وأهيس بك إلى أعرف قدرى فى نفسك .. أعرف كل مشارك ، وبعد كل هذا أصر على أن أعود إليك سليمة كنبلة .. لأتلف بجوارك .. كما ينشئ أن أقتد ، وأسير كما ينشئ أن أسير .

ولو أخلفت .. فعندى أنى بذلت كل ما أملك من قدرة وجهد

وأحسست بالآلام نطيمة لا تحطل .. ولم أعرف أين ولا من أين ..
 لم أكن في حالة من الوعي شكتني من التيهيل .
 كنت أحس بأنى معدة دون أن أدري مصدر العذاب ، أهي سائتي
 الممزقة المحطمة .. أم العنابي المكتومة .. أم صدرى المطق ؟ !
 شيء في بنحس يحاول أن يفك من .. أم هي الانسحاب من حولي
 تجثم على " وفوشك أن تفيد للناسي ؟
 وفي شيبوبتي المعذبة رحت أصرخ وأستجد .
 ولم أعرف ماذا قلت بالغبط .
 لم أكن في حال سماعيني على أن أليز بما أرى أو أعي ما أقول ..
 كنت أرى وجه « أبي » مختلطا بوجوه الشباح ممزعة ثقيلة ، واسع
 كلمانه من حلال صرحت وهيمت وطبول تدق ورياح تموي .
 وتبائني « أبي » بعد ذلك بما فعلت .
 كنت أصرخ بأكية سائلة الله لماذا يفعل بي كل هذا وأنا لم أعمل
 به شيئا .

وكنت أصبح به عنقا التقط وجهه ولمد قسمائه العذاب والآلم
 — لماذا تركتكم يفعلون بي هذا ؟ ! لماذا يعذبونني ، دعم يحطون
 الجبس ؟ أريد أن أعود إلى دمشق .
 وتقول صرخاتي المذوية كأنها السيلط تترع ظهري .
 وهذه الآلام برعة و استطعت أن ألتج عيني لأليز وجهه واضحا ..
 وهو يطل على " والدنوع تلاء عينيه ، والمرشة ثقف بجواره تنطليح إلى "
 وجس .
 وسمعتة يقول لها :
 — لا بد أن نضع هذا لهذا العذاب ، لا بد أن نعمل لها شيئا ،
 لو استشرت على هذه الحال ، مسألطب من الطبيب أن يهشم الجبس
 ويدهما تعود إلى دمشق كما هي .
 وأجابت المرشة في رفق :
 — لقد أير الطبيب أن نحتنها بالورلين ،

— أكل يتوقع أن يحدث لها كل هذا ؟
 — أجل .
 — لماذا إذا لا تحطلنها ؟
 — لا أستطيع أن أحتنها حتى تنيق .
 — لقد أمانت .
 — لم تلق بعد .
 وألغلت ألتبع المناقشة وأنا نصف مغمضة .
 وقال « أبي » في دهشة :
 — كل هذا الصراخ ولم تلق بعد ؟
 — إنه حطيان .
 — لقد قتلت كلاما بفهمها .
 وهزت المرشة رأسها غير مصفقة وردت .
 — أترصها في يدها .. لترى أنها لم تلق .
 ولم يقرصني « أبي » في يدي بالعطبع .. بل أخذ يرفنها في رفق
 وهنت بي :
 — مسهر .
 وحاولت جهدي أن أتمالك وأن أجيبه .. بردت بكل ما أملك من
 توى :
 — نعم يا أبي .
 — مالك يا حبيبتي ؟
 وأجبت وأنا أحس بالآلام تمسك بضائتي ثالثة :
 — أريد أن أموت .
 — بعد الشر منك يا حبيبتي .. إنك بغير .
 — أبدا .. لست بغير أبدا .. إني أتعذب ، لا أريد أن أموت .
 ورأيت وجه « أبي » وكأنه بمنصر من الآم مروعة ، وهنت بي وهو
 يهز رأسه في عذاب :
 — إلى متى كل هذا العذاب يا رب .. إلى متى ؟ !

وحاولت أن انتح الأبي . ولكنهم مبهجاني .. لقد روعتني الآم
٦ أبي « ووجدتني أحاول أن أصب به بكل ما أملك من قوة منبهة :
— لا تهزلي يا أبي .. انقسم .

وهر رأسه وخشخشة في صوته تنم على مكان محتق وقتل في لهجة
ملؤها اليأس :
— أبقسم ؟ !

ثم هز رأسه في استسلام ثقلا :

— حاضر يا حبيبي .. سأقسم .

ورسم على شفتيه ابتسامة كلها القناع الضمك .

ونجاة حادثة الآلام .. غمدت الصرخ .

ونظر « أبي » إلى المبرشة متوسلا :

— أؤكد لك أنها لماتت .. أعطيتها الحقنة أرجوك .

ومدت المبرشة يدها إلى « الكومودينو » وتناولت الحقنة فدفعت
إبرتها في ذراعي .

ولم تترك حتى رحت في إغفاءة مرة أخرى .

وأفقت نائمة لأحد نفسي في الحجرة الضيقة الكريمة ، و « أبي » قد

جلس على مقعد محواري وأمسك يدي بلعدي يديه وأمسك رأسه إلى

اليد الأخرى المتكئة على حرف الفراش .

ولمست أتي بت خطايا بالية ، وأن ما بقي مني لم يعد سوى

أعضاء محطية وأشلاء مهتمة .

وعثت بأبي بصوت لا يكاد يخرج من شفتي :

— أنا متعبة .

وراح « أبي » رأسه عن عيني محسرتين ووجه شلعب مجهد

وقال لي :

— مستعرجين يا حبيبي .. كل شيء سينتهي إلى خير .

وهزرت رأسي وأجبت في نفس مرير :

— أي خير ؟ !

— إن الله معنا يا حبيبي .

— لا تكن .. لو كلى معنا لما أصبحت هذه حالنا .

— لا تقول لي هذا .. تيسكي بيهلك .

— لم يعد له وجود .

وحاولت أن أبعث عن « أبي » فلم أجد لها أثرا . تنصطت في

خوف :

— أبي ليس ؟

ورد « أبي » مرفدا :

— في غرفة الانتظار .

— أريد أن أراها .

— حاضر .

— الآن .

ولم يجد « أبي » بدا من مصارعتي بالحقبة ثقلا .

— لقد ذهبوا بها إلى قنيت لتستريح .

— ماذا حدث لها ؟

— نصبت .

— فقط ؟

— وأصببت بتزيف .

وهزرت رأسي فوق الوسادة في ناسي شديد .. وشككتي إهماس

مفكره لكل شيء .

ما فتنها هي و « أبي » يصيهم كل هذا .. وعدت اتصال : لهذا

يفعل الله منا مفضل ؟ !

وقلت لأبي في صوت مختق :

— لن أتزوج .

وربت « أبي » كفي في رفق ولم يجيب .. واستطردت أقول في حقن

مكتوم :

— إن أتزوج حتى لا أكن بأولاد يطمعون في ما فعلت بكم .
والطلق « أبي » زهرة حارة ولاذ بالسمت .. وعند أكمل حديثي
الليء بالبنس والكتنر :

— لن أساعد في استمرار هذه المهرلة المسماة بالحياة .. هل أتى
بنا الله إليها .. لنمضنا كل هذا العذاب !
وأمسك « أبي » بكفي يضغطها برفق قائلا :

— استريحى يا حبيبتي .. إنها بهارب الية لابد أن نمر بها
جميعا .. إنها كما قلت لك شريبة من أرباعنا من الحياة لابد أن نغمسها
عما نحصل عليه من نفع .

ونكل ما بالك من قدرة على التفكير أصحت بصوت خافت بلؤه المارة :
— نحن نضع أكثر مما نأخذ .

وزفر « أبي » زهرة حادة ، وقال هلمسا وكأنه يحدث نفسه :
— شريبة فاحشة .. تجاوزت الأرباح .. ورامس المال .. صفقة
للحياة خاسرة .. خاسرة .. ولعل حساب الأخيرة يتصلنا !

وسمعت صوت الباب ينتج .. ورأيت الممرضة تدخل بمرتبة
الخطا لتقول لأبي هلمسة :
— حان وقت الانصراف .

وأحسست كل شيئا لدغني ولنا أصبح إدار الممرضة لأبي بالانصراف
.. وتشبعت بيده بكل ما بالك من قوة ، وهتكت سارخة وقد نزلتني
إحساس شديد بالشباع والخوف :

— لا تتركى .. أبقى بجوارى .
وانخفضت في نوبة بكاء عفيلة مششجة .

وأحسست بك « أبي » تقص على يدي بشدة حتى يطبس أنه
بات .. ونظر إلى الممرضة بعينيه المعبزين ووجهه الشاحب وملامحه
التي بلؤها الأسى والقنوط وقال بكل ما بالك من قدرة على السيطرة
على أعصابه :

— سألتي بجوارها .

وحيت الممرضة بالرد .. ولكنه تلطحها قائلا :

— لا داعي للمناقشة .. أرى حديث بيننا سينتهي ببذلى ، لمؤدى
على نفسك المناقشة معي ، وأذهب للمناقشة رؤسك وإنعامهم ببذلى
.. لاني قطعنا لتركها .

وهزت الممرضة رأسها ورفعت كتفها وثلت شفتها وأجابته بهدوء
دون أن تحاول الدخول معه في جدل أو مناقشة :
— سأبلغ الرئيسة .. ولتفضل هي ما تلاءم .

ورفعت الممرضة لفترة ثم علقت وبمها رئيسة الممرضات ووراءها
حاشية من المساعدات .
وكان يقاد « أبي » بجوارى قد ملأ نفسه إحساسا عاطفيا ، وجعلني

استرخى وكفى في كفه .
ونظرت الرئيسة إليها .. ورأت علامات الهدوء والاسترخاء على
وجهه فمسكت الممرضة ثقلة :

— الأمطيتها حقنة ، وموريس أخرى ؟

وهزت الممرضة رأسها ثقلة :

— لا .

وتنهتت الرئيسة ونظرت إلى « أبي » ثقلة في هدوء :

— الأولاد لدينا أنه يتوقع مننا أننا أن يبيت أحد مع المرضي ..
ولكني أحس أنك بالنسبة إليها عامل مهدد ، وألك أغنيتهما فعلا من حقنة
موريس أخرى .. وبهذا الاعتبار سادتك تبقي بجوارها على بحوليبي .

وبلا إرادته خرجت مني تنهيدة راحة وعلت شفتي ابشلية شكر
للرئيسة وشددت علي يد « أبي » .

وربشت السيدة الكبيرة ذراعي برفق وحفا ونظرت إلى « أبي »
وقد وقف بجوارى وأنا أمسك بكفه مطمئنة به تعلق الغريق وقد بدا
عليه الإعياء ونظرت إلى المقعد الذي كان يجلس عليه وتساوت ثقلة :

— استمطى طيلة الليل على هذا المقعد ؟

ورد « أبي » ببساطة :

— أجل .

وقلبت السيدة يصرها في اتحاد الثمرة ثم قالت في حيرة :

— آسفة لأن الثمرة شقيقة لا تعشَل مُرافقا آخر .

ورد « أبى » وهو يحس أنه لا يريد من السيدة أكثر من أن تتركه

محوارى :

— الكرسي مريح جدا .

وأبقيت السيدة ثقلة :

— لابد منا ليس منه بد .

ثم التفتت إلى الممرضة واستطرفت تقول :

— أحضرى كرسيًا مفضلا ليهدد عليه سلكيه .. وأحضرى بعض

الوسائد ليريح عليها رأسه .

وانتهجت إلى الباب تاركة الحجرة ووراءها مقبلة الحائشية من

المساعدات والمرضيات .. وبعد برهة أحضرت ممرضة الليل الكرسي

والوسائد .

وسألت « أبى » أن تتصل بالفندق وتنبه السيدة روجة « الاستد

جبل » التي ترمى « أبى » بل تطمئننا على وتخبرها أنهم سمحوا له

بالبقيت متى .

وأعصت يزيد من الطمينة وأنا أجد « أبى » قد استقر محواري

ومدد سلكيه وأسند رأسه وأنا ألقى ملى أن أترك وحيدة مع آلى

وسفوفى ونسقى المنهارة الضائعة .

ولست أدري سبب ذلك التصدع الذى أصلى ليلتذاك والذى

قوض قدرتى على التحمل .. وجعلنى انتهوى أمام المخاوف والآلام

بعيت أجزع كل هذا الحرع من أن أترك وهدى .. ومحيث أخشى

وحدة الليل التى استطعت أن أحتلها وأنا بعد صبة منذ ثمان سنوات .

قد تكون الآلم العلية التى لقيتها ببحرد أن أنفت من المحذر ..

والتي لا أظننى بلغت من الإحساس بها بنيل أن الطبيب نفسه كل

يتوقع من شحتها ما يحتاج إلى حقنة مورفين .

لو يكون صنف المقلوبة الذى أدى إليه طول الرقدة وتوالى التجارب
دون أن أبتغ فترة راحة أو استجمام تكفى من استعادة ليأتنى البنية
والروحية حتى يت تشبه بالجندي الذى ينزل من معركة إلى معركة دون
فترة راحة أو ترفيه حتى ينهار أو يجهن .

قد يكون هذا أو يكون ذاك .. أو يكونا معا ، لو يكون شيئا

آخر لا أعرفه .

ولكن الحال التى وصلت إليها كلفت قوى من قدرتى على الاحتيل

.. على الأمل فى تلك الليلة .. حتى ست من فرط الإعياء والذهب والألم

والخوف .. أشبه بزحاجة رقيقة يمكن أن تعطيها مسة .

وجلس « أبى » بحواري طوال الليل .. ولم أتم وإياه إلا ليليا ،

أغدو لحظة ثم استيقظ لزعمة وأنا أحس أنى أفرق أو أكلل من حلق ..

تألمت بيده من خوف شديد .

واسمع صوته وهو يكاد يلوب من فرط الحب والحنان يحاول طمئنى

وتطمئنى :

— أنا موجود يا حبيبى .. لا تخشى شيئا .. إنك بخير .

وفى إحدى الفترات اللال خلال الليل أحسست بيده تنصب

برفق من يدي .. ووجدته يمس بالوشوف .. فصمت لزعمة :

— إلى أين ؟

— سألته إلى الصلم يا حبيبى .

وأبكت بيده ثقلة فى ذعر :

— لا تذهب .

— إن أغيب أكثر من بضع دقائق .

— قد يصافك أحد ليحركك .

وشحك « أبى » ثقلا :

— إلى لست مضللا .. لقد حصلت على إذن بالبقاء بجوارك .

وتركته يذهب وأنا أحس بغوف شديد ألا يعود ، ولم أحس بالطمينة

حتى فتح الباب وعاد ليستقر بحواري مسكا يدي .

إلى هذا الحد بلغ إلى الإعياء والخوف والكتل .

وقلت لاسي وأنا أطلق هذه أنفسي بها عن الآس :

— لاسي بعتة .. أثمر بالحسن بضمط على سائي ويوشك أن يحطها .

— سيحول كل هذا في الصباح .

— وإذا لم يزل ؟

— سأطلب من الطبيب أن يحطه وأعود بك إلى دمشق في ثول مرساة .

ولم أحسن من قوله الطليقة الواجبة .

كنت على كل ما بيني من الآم .. ما زلت أرجو وأمل .

وكنت أترجح بين رغبتني في الخلاص من الآام .. ورغبتني في حوض الدجربة حتى آخرها .. فسي يدري .. لعلها تكون المتشدة المنتجة .

وماد صوت الرجل الطويل القلابة ، الكثيف الحاجبين يتردد في أذني :

« ما رأيت أميلا مرساة أخرى » .

« لن أترك بلدا لأجل بها سائي إلا طرقتة » .

« كل ما أرجو منك بويذا من الصبر » .

والصبر موير .. موير .

أكد من برارته اللطلة .

ورجعت اليوم .. فاعلمت إعادة طويلة لم استيقظ منها حتى الصباح .

وسمعت مني لأحد الآام قد انتهى .. وأحد نفسي أحسن حالا وأشد جددا ، وأقوى احتيالا .

ونظرت إلى « آس » وانتسبت .

والعصمت ما يمكن أن تطلعه البسمة في نفس آس .

لقد بددت بسحابة الحزن الثقيلة من وجهه .. والعصمت به يتسم أينسالية خفيفة ويمسكني في لفظة :

— كيف حالك الآن ؟

— أفضل كثيرا .

— والآام ؟

— ذهبت .

— الحمد لله .

فلقا بكل ما يملك من إيل باله ، وثقة بيه .. وصبت بهمة يلتقط أنفاسه .. ثم استطرد يقول :

— لم أكن أنصور أن تستمر الحال هكذا .. غير محقول أن سقي طوال مدة الجس في ظل هذه الآام .

وقبل أن أحبه سمعت طرقا على الباب وأقبلت مرساة الصباح تحمل أدوات الاعتسالي .

والفت تحية الصباح في رمق مضائلة :

— كيف حالك ؟

وقبل أن أجيبها .. استطردت تقول :

— تدين أحسن كثيرا ؟

— الحمد لله .

وبدأت ترمج أمطية الفرائس لتعبد ترتبه .. وأخذ « آس » في مصاعفتها .

ولم نكد ترفع اللطاة من سائي حتى لح « آس » حرها في ركبتني بعيدا الجرح في تسبته وسأل المرساة .. بشيرا إلى الجرح :

— ما هذا ؟

ورجعت المرساة كتبتها وهزت رأسها ثقلة :

— لميت لدرى .

وقبلت على الجرح تفحصه ، ثم قالت وهي تسمعه بالكولونيا :

— لابد وأن الركبة قد انحكت في حدار أو في باب المصعد .. وهي
هالطة من غيرة الحمليات .

ومس « أمي » ركبت في إتشفاق وأتم وقد بدت على وجهه من
آيات الجزع والحزن ما لا يستقيم الجرح ، وقال للمرصة :

— كل يجب أن يأخذوا حذرهم وهم يدعونها بالفرش لقد كانت
تحت تأثير المصعد ولا تستطيع أن تصبر من آلامها لتعذرهم .

ومعيت من غرط خشية « أمي » على « جرحه » من إصابته التي
كانت أقرب إلى الخدش منها إلى الجرح .

عجبت من الإنسي .. كيف يحثي على الإنساني من خدش أصاب
ساقه .. في جانب من الصاة .

وفي جنب آخر .. يزيق إنسانا ، وعلى شفاظه إهشامية نشوة ..
والتفصل .

بشنيه خدش في الساق .
ولا يعبأ بالكراب تتناثر ويطون تيفر وجلود تشوى .

يبكي على خدش إنسان .. في جانب .
ويقتل إنسانا .. في جانب آخر .

ولا يدري أن القميل الذي لم يعبأ بقلته .. له من يبكي على خدشه
.. كما يبكي هو على خدش صاحبه .

ومس « أمي » خدش ركبت في خوف شديد وسألني في صوت
بدوب حثا :

— أيؤلك يا حبيبتي ؟
— طيلة .

— سانولي ما دلع مراثك بعد ذلك .. لن أتركك لهم لحظة
واحدة .

ولقد نفذ ما قال بعد ذلك .
سلم بفرج فراشي إلى حجرة الأشعة .. إلا وكان « أمي » قائما
على تحريكه .. خشية أن يمس ركبت حدار أو باب .. حتى لا تحدثش .

ولم تكد المرصة تنتهي من ترتيب الفراش وغسل وجهي ويدي ..
حتى سألت « أمي » أن يطلب لي « أمي » حتى لطائن عليها .

وقبل أن يرفع « أمي » السماعة .. رأيت الباب يفتح وأسررت
« أمي » تدخل صاحبة الوجه ووراءها زوجة الأستاذ « صال » .

وهتعت بها :
— لماذا حضرت ؟

واقبلت على نفسي في لهفة وجزع ودومعها ملء عينيها :
— كيف حالك اليوم يا حبيبتي ؟

ثم التفتت إلى « أمي » متسائلة في إتشفاق :
— كنت أجن مندما أخبروني أنك ستفطر للبيت معها .

وتألت روجة الأستاذ جميل :
— لقد طيأنا المرصة على « سبير » وقالت أن الرئيسة سمعت

لك بالبيت معها .. ولكنها اعتقدت أن شيئا قد حدث .. ولم تتم طيلة
الليل وهي تصر على الحضور إليكم .. ولم يكذب بنفس الصبح حتى أرادت

بلايسها وعادرت الفنشق .. برغم أن الطبيب قد منعها من مغادرة
الفراش .

وسطرت إلى « أمي » وقد أرادت على المقعد في إعياها وأخذت ترمختي
في حزع .. وقلت لها في إتشفاق وخوف :
— ما كان يجب أن تعذري وأنت على هذه الحال .. لقد رأيت

أني بغير وليس بي ما يسبب لك كل هذا القلق .
وأخذت « أمي » تتعمق قلقة :

— الحمد لله .. لقد بزقت ثلثي بصياحك بالأمس .. كنت أحس
أن سكبيا ترق أحشائي وأنا أسمع صرختك .. ولا أعرف ماذا أفعل لك

.. لماذا لا أظفني الله وبريحتي من كل هذا .
وانفمعت « أمي » في توبة بكاء .

وأخذ « أمي » يربت لأراعها في رفق ثلثا :

— انتهينا .. لقد أصبحت على خير حال .. كلنى من هذا الكتاب
لا تزعميهما .

وكفكت « أبى » دمعها وحاولت أن تتماصك وتبتسم .
وقلت لها :

— أظنك قد اطمأنتت على .. مودى الآن إلى الفندق واستريحى من
الفراش .

وأجابت « أبى » فى أنسى :

— لن يحدث لى شئ .. لست بى ما بك .

وقال « أبى » محاولا دفع البسمة إلى شفتينا ، وإثارة حو
من المرح بيننا :

— لا نريد حركة ففلات بين الآلام .. أنت وهى سواء .. نحن
نريد الفلاس من كل هذا .. سنشقى جيبهما إن شاء الله ونعود إلى
بلدنا سالمين .

وقبل أن تجيب « أبى » طرق الباب ، وفطنت الممرضة الصغيرة
للمرصة الخطوات الباسية الوجه ونظرت إلى « أبى » قائلة فى
إشفاق :

— كيف حالك اليوم ؟

وردت « أبى » بأسمة وعلى وجهها علامات الإعياء :

— شكرا .. أفضل من الأمس .

— ما زلت تحتاجين إلى الراحة .

ثم نظرت إلى « أبى » واستطردت تقول مزحة :

— لقد حرق بالأمس ثوابى المستشفى .. ولكننا اضطررنا واحدا
منا .. سنقوم بشربه على التبريش .. إنه طيبذ مطيع .

ورد « أبى » مغلا :

— عندما تكون الممرضة فى مثل هذا الجمال .. يصبح الدرس
شربا من شروب المتعة .

وضحكت الممرضة ومطرت إلى « أبى » وتساطت :

— وتقول هذا لمام زوجتك ؟

وهزت « أبى » رأسها فى غير اكتراث كأنها تسلم لأبى أن يفعل
ما يشاء .. ثم قالت للممرضة مجاملة :

— يا دام يقول الحق .. فلا لوم عليه .

ووجهت الممرضة الحديث إلى « أبى » بمسألة :

— كيف أبصيت الليلة ؟

— على خير حال .

— خير حال على هذا المقعد ؟ غير معقول .

ثم صبت برهة .. واستطردت تتسائل :

— كنت تسأل عن حجرة أكبر من هذه ؟ !

ورد « أبى » فى حماسة :

— أجل .

— لقد ظلت حجرة كبيرة هذا الصباح .. قد تكون أكثر ملامية .

— أعتقد أن ننتقل إليها ؟

— سنواصل بالمكتب حالا وأضربك بالنتيجة .

وأبنت الممرضة لحالة ثم عادت لتقول :

— لقد حجزت الحجرة لكم .. سريحكم كثيرا .. إنها خير من هذا
الصندوق المظلم .. ستكون بمعدة خلال نصف ساعة .

وقبل أن تغادر العرفة التفت إلى « أبى » بمسألة :

— أتعب أن نضع لك فيها فراشا إضافيا ؟

ونظر « أبى » إليها فى دهشة بمسألة :

— أربكن هذا ؟

— طبعاً .. ما صحت قد أخذت الآن بالمبيت ، تستطيع أن تبعى
محاورها حتى تغادر المستشفى .

وتلكنى فرحة شديدة .. وأنا أجد بيت « أبى » قد أصبح أمراً

مقررًا .. والحسنت يأتي إن أثنى من وحدة الليل ووحشته طيلة نلتى
فى المستشفى .

ونظرت إلى « أبى » نظرة فيها فرحة وعتت به :

— سببت محى !

ورد أبى على قائلها :

— طمعا يا حبيبى .

وتلت أمى :

— سببت لنا محك .

ورد أبى :

— سنبتل البيت محك .

ثم وجه القول إلى المرضة التى وقتت تنتظر رده :

— سبريحيها كثيرا أن يبيت أحدها معها .. سلبهم أن يضموا لنا
فراشا إسقاطها .

وهزت المرضة رأسها بأسية .. ثم شادت الفرقة .

وبعد فترة انقلت وبمها بعض الخدم .. لمقل إلى الفرقة الجديدة .

وسار « أبى » بجوارى خشية أن يمس ركبتى جدار أو يخنس سائى

بلمه .. حتى وصلنا إلى الحجرة الجديدة .

وبس حديد بدأت أحس بالتنازل .. وأنا أرى الحجرة النسيحة تنفذ

إليها أشعة الشمس وأرى من خلال نافذتها شجرة كبيرة تهتز فروعها

الخضر فى رقة السام .. لتنهضنى إحساسا بالأمل .. وتبدد من نلقى

الوحشة ، والكآبة ، واليأس .

لامبالاة

مرت بى الأيام فى الحجرة الجديدة النسيحة المشرقة .. تحمل لى

المريد من الأمل والتنازل .. وانتهت الأمى التى أحسست بها تلك الليلة

المروعة . وعادت النسمة إلى السناء من جولى .. وحل توتر الأمص

بعد أن اعتدب الرعدة الجديدة واسترخينا فيها بلا أوجاع ولا آلام .

وبدأنا فترة صبر أخرى .. أو مزيد من الصبر كما سماها الطبيب .

ولم يكن الصبر عسيرا هذه المرة .

وبسأ لأتنا تعودنا عليه من فرط ما بالكترناه .. حتى بلغنا فيه حد

الاحتراب .

أجل .. لقد أصبحنا ملا جالفة ، محترقى صبر .

كنا نقسم الزس خشبة بعد خشبة .. ساعة بعد ساعة .. ويوما

بعد يوم .

وأنا « أبى » جميع أدوات الصبر .. شطرنج .. وبروجكتور

لعرض الأفلام والموسر .. واستأجر لى أفلاما قصيرة .. كتشغلها ذهبا

.. « لوريل وهيردى » و « شارلى تشابلن » و « ميكى ماوس » .. وبعض

أفلام الرحلات الملونة .. واستأجر لى « تيليزيون » .

وبعد كل هذه الأسلحة القتالة للوقت .. وبعد أن نلص الشطرنج

حتى يتصدع « أبى » ، ونرى الأفلام والتيليزيون ونسمع الإشرطة فى

الريكوردر والأسطوانت فى اليك آبه وتشرات الأخبسار فى صوت

الحرب .. بعد الليل غد أوشك على الانتصاف ، ومحاول التحليل على
النوم .. حتى يطرق جفوننا .. ماذا استحمى .. جريماً حراً ..
الفراس ابيرترانكيل ، أو غيرها من الأتراس الموقمة .

وعندما كانت « لحكة » تبدأ جناوشاتها أسفل الحمس .. يصبح النوم
امراً مستحيلاً .. معها بلغت قوة النوم .

ولا يسع « أبى » سوى يرتد إعياء .. ويرانى القلب من لرق إلا أن
يلقى من منحه من النوم .. ويوقد المسباح ويقول لى من صبر حويل
— لا داعى للقلق .. إذا كنت النوم لا يريد أن يقبل .. فلا داعى
له .. دعينا نسمع بعض الأغنيات .

ويأخذ من تشغيل الجريغون أو الريكوردر حتى سام .
وداب صباح أثيل الطبيب وكفى « أبى » يعرض على بعض لوحات
بالفتروس المصري .

ونظر الطبيب إلى « ياسما ثم قال لأبى :
— نجحت تبارا .. لى قتل ألوت . وهو أسوأ ما لى ردة
الجبس .. إنى أرى نفسيها على خير حال .
ورددت شاهكة :

— الردة لم تعد تضاهقنى .
— 'تكرى لوالديك .. لقد معلا ما لم يخطر لى ببال .
ووجه الحديث إلى « أبى » فقال :
— نيت عليك بهمان بعد فك الجبس .. أولها التعلب على أثار

الجبس ،
وواصل أبى :
— والناقة ؟ !
— التعلب على أثار التذليل الذى فعلته بها خلال ردة الحمس .
واستمت « أبى » قائلة :
— خلال الجبس فقط ! .. إنيه يخلها مذ رأت منها المر .

ولجب الطبيب :

— أقصد الإتراس التذليل .

وضحك « أبى » قحلاً .

— لا تحمل معها .. إنها لعنة مائلة .. ولن يمسحها التذليل بها

بلح .

وهز الطبيب رأسه قحلاً :

— أرجو ذلك .

وقبل أن يغادر الغرفة سلكه أبى :

— متى سنك الجبس ؟

ورد الطبيب بضغلاً :

— متى أجرينا العملية ؟ !

ونكر « أبى » التاريخ باليوم والساعة .

ونكر الطبيب برهة ثم قال :

— أفضل أن تبقى مدة أطول .. فلن يضرنا إذا ركدت أسبوعاً
زيادة عما هو مغروض ، ولكن يضرنا كثيراً .. إذا ما نزعنا الجبس
قبل المدة الكافية .

وتنهد « أبى » .. ولم يبد عليه كثر ارتياح .

لن يضر الطبيب أن يبقى من الفراس أسبوعاً أزيد .. ولكن
يضر المتشبثين بحبال الصبر .. الذين يقضون الزس ساعة بعد ساعة
ويوما بعد يوم .. الذين يتوتون إلى معرفة النتيجة أيا كانت .. حتى
يعودوا إلى بلدهم .

ولم يقل « أبى » شيئاً فلم يكن من المعقول أن نستعمل الطبيب بعد
أن قال ما قال .. بل لا أظن أن استعمله يمكن أن يؤدي لاية فائدة .

وعاد الطبيب المحرة .

وتلت لأبى وأنا أرى علامات النجم على وجهه :

— لى لا أتعجل فك الحمس .. لىس هناك حثقة ما يضاقنى .

ولم اكن ابلغ من ثولى .. او احاول مرهفة ابنى .. فقد كنت حقيقة .. لا احس بالمعلقة فى الهوى ، ولا الصيق بن الرعدة .

إحساس مجيب كل يسطر على هذه المرة .

إحساس بالاستسلام وعدم الاكتراث والاسترخاء والانبساط .

لم اعد انتظر النتيجة فى توتر وخوف وقلق .

لقد وطنت ناسى على قبولها ايا كانت .

كل على ان اتمتع بتيه المشوار .. بعد كل ما قطعت .. لم يكن حرر للتبرم او الاستعجال .. كان على ان اسير فى هدوء حتى ابلغ النهاية .

تحدثت يوما .. او نأخرت يوما .. فلابد ان اتمها .

وعند النهاية .. ساجد شيئا ما .

ايا كمال هذا الشيء .. فلابد ان اخذه .. واعود به الى بلدى .. وانسى به تبة مصرى .

وبمثل هذا الشعور المستسلم كنت اضى ايلم رعدتى الأخيرة من المستشفى .. بلا ضيق ولا خشية ولا قلق .

وكذبت رسالتك المستورة الى .. تمنينى على لهننى عليك وحينى اليك .. كنت اجد فيها محطات ظلية فى رحلتى الطويلة .. وكنت احس بك من خلالها .. برهف الحسى .. جميل المشاعر .. رحيم القلب .. رقيق اللمسة .

كنت كلمتك تدل العصب وتوهن للمسير .. تملأ نفسى بالإيمان والفتنة ، وتسعنى قدرة على الصبر والتجدد والتباسك .

ووصلت رسالتك التى معنت بها الى "عقب وصول رسالة" ابنى "إلىكم ، وإلى أياكم فيها بإحفاق الصلابة الأولى ، وإبداءها على الصلابة الثانية .. ووصفكم آلام القيلة المعسرة التى تصيبنها عقب الصلابة .

وبدو لى ان رسالة "ابنى" قد عكست عليكم ما أصابكم خلال تلك الآلية ، وبدو انه لم يكن قد أمكن بعد من الإعياء الذى أصابه وشد

أصابه وروحه نتيجة لما أصابنى تلك الليلة .

فقد كانت رسالتك مليئة بالآلم والصيق .

ولننى فيها لانى أصرت على ان احوض تجربة ثلاثة برعم على ما ظلت لى من رسالتك وانتهى سنى لا اوس بعيك ولا لنى من مشاركتك .

وقلت لى آخرها :

" لماذا كل هذا المند والإصرار منك على حوسى تلك التجارب المريرة النفسية ؟

لماذا تصرين على حوسها وحذك قبل الارتباط بى ؟

لماذا تضعين موضع التاجر .. الذى يتعمد تسليه بصاعة سلبة ذل البشر ؟ !

انك فى حقيقة العلاقة بيننا ؟ .. لماذا تظلمين بهذا الإصرار ؟

انا احب ان يلا نفسك التنازل .. احب الا تلتنا من قلبك دباله الأمل فى الشفاء .

وادعو الله من كل تلبى ان بين عليك بالشفاء ويجعلك سيدة الناس كما تريدين انت لا كما أتوهم انا .

ولكنى اكره ان اعلق ارتباطى بك بهذا الشفاء .

اكره ان تطلق ارتباطنا .. ماى شيء مهما كانت لهنك عليه ورغبك فيه .

ولانى احس اننا قد ارتبطنا فعلا .. وانه ليس هناك شيء يفصم عرا الصلة بيننا .

واكره ان تصرى على حوس هذه التجارب بثل هذا العنف والإلحاح .. بلا أدنى مبرر ولا سبب .

ان مبرنا معا .. طويل .. طويل ، ونستطيع ان نحاول الصلابة .. مرة .. بعد مرة .. ما دام هناك لبل .. وما دام لى مبرنا بقة .

لماذا هذه العجلة وهذا الإلحاح ؟ !

إذا كانت هناك .. كب مثل الطبيب .. نرعى آخر .. فلنحاولها سويا .. وإذا كان هناك بلب للآلم فيها فالى .. فلنطرقه معا .

والمريد من الصبر الذي يطلبه الطبيب .. يكون سهلا إذا ساند
أحبا الآخر .

يا سهير .. يا حبيبتي .. يا سيدة الناس فعلا .. لا وهما .
بحق موقعك عندي .. وموقعي عندك .
بحق مشاعرنا الطبية الجميلة .. كلني من عنادك وإصرارك .
وإذا حدث .. أبعد الله عنك الشر وقتك السود .. أن أخلفت
العملية .. فليكن وتجربة أخرى .
عودي إليّ .. وسنحاول كل شيء معا .

عودي إليّ .. وإلا اضطررت إلى الخضوع إليك وحملك على الرغم
منك في أول طرفة .. ولأعود بك على أي حال كنت .
إن بي من الحنين إليك ما يجعلني أقدم على حياة .
أبعق حبا عودي .. وجنبيني الحبايات .. *
وكل لكليتك وقع السحر في نفسي .
وأحببتها كثيرا .. كثيرا .

لقد حملني أحوس المعركة في آخر أيامها .. صلبة العود قوية
الباس .. ماضية العزم .

لم يشرق إليّ التلق ولا الخوف ولا التهاوي .
كنت أنتظر النتيجة وأنا أقوى منها .

كنت أتمنى بالذي أخفق في عدة امتحانات من أجل الحصول على
شهادة .. وعندما وقف يترقب الامتحان الأخير .. أحس بأنه لم يعد
في حاجة إلى شهادة ، وإن قدره قد تجاوز الشهادة .. وأنه في لم
بحر الانحلال وفي لم يحصل عليها في يتل الإخفاق من شأنه ولن يحط
من تدره .

أجل .. لقد وصلت في النهاية إلى مثل هذا الشعور .

لست أدري .. أين وتوكل في صلاية إلى جاني .. وشكك أزرى
مثل ما تلك من إحساس مخلص ، ومشاعر مرفعة .

لم يزل طول التجربة ومرارتها .. ومن لمط اعتياد الإخفاق ، وممارسة
الباس ؟

على أيه حال .. عندما تجد نفسك أتوبه .. لا تحاول كثيرا أن
سحت من سبب توتنا .

ولقد شعرت في أحوس المعركة في نهايتها .. قوية .. صلبة ..
لا تلق ، ولا توتر ، ولا خوف .. ولم أجد هناك ما يدفعني إلى أن
أصب نفسي في البحث عن السبب .
وانتشرت النهاية .

وحدد لها الطبيب يوما قبل منتصف سبتمبر .

وكنه « أبي » في مفكرته الخراء .. وأخذ يشطب الأيام التي قبله
يوما .. بعد يوم .. حتى أصبح الصبح على اليوم المنتظر ، وكلني
« أبي » ببيت محي تلك الليلة ، واستيقظنا بعد شعاعا من الشمس
سسل من النافذة ليترش أرض الحجرة ، ولعلت نروع الشجرة الكبيرة
تهدا نسمة المباح لتفقد منها قطرات مطر اغتمست به خلال الليل .
وسمعت رترقة عسايفر .. طرقت التي بلحن جبيل .. ينكرني
بمباح نبش .. بالمعاصيفر التي تتوالف على أشجار الحور .

ورأيت وجه « أبي » يتسم لي خلال المرأة وهو يخلق دمه .
وهنمت بي وهو يلمح يفتشني .

— صباح الخير يا حارة .. كيف الحال ؟ !
— الحال طيبة .. سمزج الحبس اليوم ؟

— أجل .

— ومنى مسافر ؟

قلتها وكانني أسلم بفسر على أبة حال .
ورد « أبي » ببساطة .

— عندما يأمر الطبيب .

— ومنى يأمر الطبيب ؟

— بعد انتهاء التدليك ، والتمرين على السور .

— انتظن هذا يأخذ وقتا ؟

— قد يأخذ أسبوعا أو عشرة أيام .. بعد هذه التردد الطويلة لابد أن تتأكد سلفك جيدا .

ولم يحاول أحد منا خلال هذا الحوار .. أن يذكر شيئا عن النتيجة المنتظرة .. وهذا كل منا وكله لا يعلق عليها شيئا ، وأردت أن أؤكد من أن هذا هو إحساس « أبي » بصراحة .

بعدت أواميل الحديث ثلثة بعد فترة صمت اتجه « أبي » خلالها إلى الحوض ليفسح مكانة الجلوس :

— لا نريد أن نبقى هنا طويلا بعد عك اللصص .

— لن نبقى يوما بعد أن يأخذ لنا الطبيب .

— استيقظ وحملنا على إلفن الطبيب ؟

— طبعا .. إنه هو الذي سهرنا بدي قدرتك على السير بعد هذه الفترة الطويلة .

وصعدت برهة ثم قلت لي شيء من الفرد :

— ولكننا سنرحل على أية حال .

— ماذا نعتين ؟

— أعني سواء أفتقت العملية أم نجحت .

ونظر إلى « أبي » وهو لا يدرك بالضبط القصد من السؤال ..

الطلب به لمرسة أخرى .. أم أصر على الرحيل ؟

وانترب منى وهو يهبط نفعه من الكولونيا .. وقال لي فؤدة :

— سملعل كل ما نريدن .

وبغير تكرير قلت له على الفور :

— أريد العودة .

— سنعود بمجرد أن تستطيع السير .

وانتقلت الممرسة .. وبدأت عملية الاتصال وترتيب الفراش .

وحضرت « أبي » بعد برهة تحمل الفيارات والصحف والرسائل .

ولم أكد أنأقول الإنظار وأمر يسرى عبر الجرائد .. حتى أقتل

معرض الجيس يتعمه الطويل .. وتبقى الجس يوفرا علينا بشقة التلق والانتظار .

ومسحت إلى غربة الأشمة بصحبي « لي » ، وأجريت الأشمة كما اعتدنا في المرات السابقة .. ثم عدت ثنية إلى الغرمة .

وبدأتا تنتظر الطبيب .

وتلك تدرك جيدا بشقة الانتظار في تلك اللحظات .

مها قلت لك من تجلدي وقوي .

وبها قلت لك من إحساس معكم الإكثار والاستسلام واللامبالاة .

وبها حدثتكم عن قدرتك على شد أظري .. وصلب عودي .

ملا لظن كل هذا بمجرد نفا على تلك اللحظات ..

أي نعم .. لم تكن تهمي النتيجة .

وأي نعم .. كنت أعرف أنني مائة .. مائة .

وأي نعم .. كنت أعرف أن ارتباطي بك .. لن يلمسه شيء .

ولكن تلك كله لم يمع من إحساس بالوقوف في نهاية التجربة ..

بعد طول مرارة صبر .. لانتظر نتيجة صبري خلال تلك الأيام الطويلة

الفاسية .. واللبالي الوحشة التي حنتني بها المردد وعجزني النوم

واستعصى اصطفاؤه على المتفكير والمتوكل .

أجل لم تكن هناك من وسيلة لأمر إحساس التوتر والقلق والرهبة

الذي يشد أعضا حبيعا ، ونحن نحس في انتظار الطبيب .. ليتول

كلمته .

وطال الانتظار .. وازداد التوتر .

والرجل لا يحضر .

طلعت فيبته عن كل مرة .. حتى أجهل الليل .. وأخذ الزوار

يتسبون .. دون أن يحضر .

واستعمل « لي » بالمرسة والريسة ونق الطبيب من العيادة

ممن أن نأثر له على أثر .

وكان علينا أن نقضى ليلة مريرة .

لماذا لم يأت الطبيب ؟

لماذا تركني في قالب الجبس المشقوق .. دون أن يحضر كخمسى ؟
وعانت الوسواس طح على .. لا بد أنه لم يجد عادة .
إذا لماذا لم يحضر ليخبرني بذلك ؟
لعله خجل .

ولماذا يخبّل وهو طبيب .. معرض للإخفاق والتجاع ؟ لماذا لم
يحصّر كما حصر كل مرة ليخبرنا أنه يأسف لأن العملية قد أخفقت ؟
وعدت أجيب على سؤالتي :

لعله يكره أن يرى برارة الإخفاق على وجوهنا بعد أن منحنا أملا .
ونتنا ليلتنا في شقي وثقور وثقل .

واسمح الصبح ليلتنا بزيدا من قلق الانتظار .
وفي الظهيرة أتبل طبيب آخر لا نعرفه .

لم يقبل الطبيب الكبير .. ولا بمساعدة .. وإتينا لقبل رجل غريب
.. لم نره من قبل .

وقال لنا إنه يعمل بمساعدة الطبيب مثل مساعدته الذي يتسمى احاربه
معيدا عن لندن .. وأن الطبيب سيأتي في المساء وحاولنا أن نسأله عن
النتيجة فقال إنه لا يعرف شيئا .

وتستطيع أن تدرك الحرج الذي ملأ نفوسنا .

لا بد أن العملية أخفقت .. وأن كليهما خجل من الحضور .
ولكن أين هذا يتصرف أطباء يستولون ؟

ولم يكذب يتصرف الطبيب الحبيب حتى ضرب « أبى » كما يكذب
فانلا في شقيق :

.. هذا شيء لا يحتمل .. إنه استهزأ .. لماذا لا يحضر أحدهم ليقول
لنا إن العملية أفلتت وريحنا .

ورغمت « أبى » كليهما إلى السماء داعية في لهجة بتوسلة :

— يارب .. لطيفك يارب .

والخيرا .

وأخيرا حذا .

أقبل الطبيب .. وعلى شحمته إيسلته الرقيقة المعبودة .

ولم يكن لأحد من القدرة على أن يرد له إيسلته .

ولمحت الرجل تمهينا غسائل شاحكا :

— فست عليكم .. أرى على وجوهكم عيوبا شديدا .. معكم حق ؟

ولم يرد عليه أحد .

وأقبل الرجل برع الحمس من سائتي .. وهو يقول في لهجة
مرحة :

— دعونا نرى .. لعلنا نرد الإيسلية إلى شفاكم .. إلى أكثر
تناؤلا هذه المرة .

وأخذ الرجل يجس سائتي وقدمي و .. ورغما من الجبس وأخذ
يحرك بمصلي .

ثم أمسك أصابع قدمي وسألتني :

— حركي أصابعك .

وحاولت أن أحرك أصابع قدمي فخلصت بآلم شديد في مفاصلي
مصرحت .

وعلى شحمتي الرجل إيسلية واسعة وعاد يسألتني :

— حركي أصابعك .

.. لا أستطيع .

— لماذا ؟ !

— مفاصلي يؤلمني .

وعاد الرجل يجس قدمي ويسألتني :

— انتشرين هنا ؟

— أجل .

— وهنا ؟

— أجل .

وأطلق الرجل تهديداً طويلة تنم عن الإحساس بالراحة والتفت إلى
أبي وأمي قائلًا :

— أخيرا .

ثم شد على يد « أبي » مهتًا وقال لامي :

— تهنتني الحارة .

وكان « أمي » ينظر إليه محلق العينين فامر الفم ، وهو يسأل :

— لنجعت يا دكتور ؟ !

— أجل .

واصبرت الصبوح من عيسى « أمي » .. وانفطمت في موبة بكاء
وصحك الطبيب قائلًا لها :

— كنت أنظني سأعيد الإصليّة إلى شفتيك .

ورلمت بسرري إلى الطبيب وقلت له غير مصحفة :

— ألقا نجعت ؟

— لست أشي الحال يحتل المراح أو الشك .. إما أن تكون

تجعت أو أهفت ، وعندما قلت إنها نجعت .. فلما أمتي أنها نجعت

ولم أجد في كلمة الرجل « نجعت » التعبير الكافي من الحدث المصح

محدث أقول له :

— أعني هل ساستطيع السير ؟

— طبعًا .

— بلا مشد ؟

وصحك الرجل وأجابني في هدوء وصبر :

— أنظنين أننا قد فعلنا كل هذا لكي نتجح من منحك القدرة على

السير بشدة ؟

ومدت أسأل غير مصحفة :

— أعني .. هل أسير .. ككل الناس ؟

— طبعًا .

— بلا .. بلا ..

واتم الرجل تولى مؤكدا :

— بلا مرج .

ثم أتم قوله شامكا :

— مستصيرين كلمة فتاة .. رشيقة .. أكيفة .. لائقة . أليس هذا

ما تريدين ؟

وأطلقت تهديداً طويلة ، وحاولت جهدي أن أبطح خبطة توشك أن

تطرح من عيني وقلت له في صوت خافت :

— شكرا .

وريت الرجل يدي في حضان قفلا :

— لقد ملوتني معرك وصبرك .. لنا مسجد لأتلى جنتك لك

ما تريدين .

وتهد « أبي » ويد يده ثقبه ليشد على يد الدكتور وقد بدأ يدرك

حقيقة ما حدث :

— إنك يا دكتور .. إنك ككثيرا .. إنني أب « وأنت تعرف

تبه الأبناء .. وتعرف تهبة ما أصبحت إلى من جيل .

وريت الرجل كلف « أبي » قفلا في إخلاص :

— لا داعي للشكر .. لقد أدركت بشامرك من لحظة أن أفتيت

على هذه العملية .. أدركت بشامرك وأنا أراك تعرف من الحالة أكثر

من طبيب .. ولست أبالغ عندما أقول لك إنني أشعر مسعادة حقيقية ..

لتجاح العملية .. إنها فوق كل شيء معركة انتصرنا فيها .. انتصر فيها

الإيمان بكل ما يملك من مشاعر طيبة .. وثقة بنفسه وإيمان بالله .

والتفت الرجل إلى وقد وفقت المبرسة بجوارى تعمل قلب الجبس

وقال :

— ما زالت أملك مترة شاقة .. لتغلب على كثر الجبس ..

سأطلب من مبرسة التخليك أن تقوم لك بليزنت المملوبة حتى تعود

إلى الفصل مرونته ، وستطيك الوقوف والسير .. مستعدين أولا

يحكمزين ثم تحاولين السير بالحصا .. وعندما تحسبين أنك في غير
حاجة إليها .. ستسعين .. كما يسير الياق .. انتفنا .. ؟

وهزرت رأسي وقلت :

— أجل .

وقسائل أبي :

— كم من الزمن ستحتاج إلى هذا الثوبين ؟

— أسبوعا أو أكثر قليلا .

ونظر إلى قنلا :

— الأمر يتوقف على إرادتك وقدرتك على التحمل ، ولكنه لن يكون
سهلا .

ورد « أبي » بتهدئة :

— كل شيء يهون .. ما دأبت العيلة قد نجحت .

وتركنا الرجل والنصف ، ومرت بنا فترة وجوم .. ينظر بعضا إلى
بعض غير مصدقين .

ولغيرنا أجمل « أبي » ليضمني إليه في حرارة قنلا :

— مبارك يا سهر .. مبارك يا حبيبتي .

ورنمت « أمي » وجهها إلى سقف الحجرة موجهة الحديث إلى
أبي :

— يا رب .. أنت كبير يا رب .. يا رب نصنعك على كل شيء .

واقبلت على نفسي إليها ودبوعها — كالمعاد — على خديها .

وقلت لها ضاحكة :

— علام الكاء ؟

وهزرت رأسها كالمشجوعة قنلا :

— كل يصدق هذا ؟

وعادت تحدث أمة مرة أخرى منظره إلى السقف :

— يا أنت كريم يارب .

واقعدت المعرشة تسمع سائلي « بالآثير » لتزيل عنها أكثر الجبس

وقد كبتها قشرة وبنت محبرة ككتها قد أصيبت بهرق .

ويدأت بعد ذلك فترة التخليك والتحرير على السير .. ولم يكن

الطبيب ببالعا عندما قال لي أنها فترة شاقة تحتاج إلى إرادة وقوة

نحبل .. لقد أحسست كلئ مسلي تكسر من المفصل في كل مرة أحاول

تحريكه .

وعندما حبلت من الترش أول مرة لأقف مستندة إلى المعكزين

بمساعدة ممرضة للعلاج الطبيعي .. أحسست بغثيان ودارت الدنيا

من حولي .. وكنت انهوى على الأرض لولا أن أسندني « أبي » الذي

كن يلقه بلاسقا لي .

ويدأت بعد ذلك الثوبين على السير بالمعكزين .. في ممر المستشفى

.. وكنت أحجل في أول الأمر أن أسير أمام الناس خشية السقوط ، ولكني

رويدا رويدا بدأت أتعود السير بهما .. حتى أخفى من العسير أن

أسير بصريها .

ويدأت بعد ذلك مرحلة السير بالحصا .

وكانت المستشفى على أن أبقي تحت الرقابة الطبية بشمة أمام آخر .

واستقر بي المقام في الفندق .

وأحسست سرور من الحرية وأنا انتقل على عساي في حجرات

الجباج ، وأطل من النافذة .. وأخرج في مرمة الأجرة إلى المستشفى

.. ثم أتجول في شوارع لندن وأمر بكل ما رأيته ، وأجلس في « هايد

پارك » أمام المرانتيقا لأرغب الفوارب تضر الماء .. والناس يهرهون

على الشاطئ .. أو يستقون على النحل تحت الأشجار .. وس

حولهم بدت زهور الثيوبوب بالوانها الرائحة .

وأخيرا انتهت مرحلة التخليك والتحرير ، وذهبت إلى عيادة الطبيب

مع « أبي » . وقام لمحض سائلي ثم أذن لي بالرحيل .

وحل يوم الرحيل ووجدت نمسي استقر على محمد الطفرة لعلقي

في من السماء معلقة إليك ، وقد شليت ثيابا ، وأصبحت أستطيع أن

أهتق أمك في ، وأن تكون كما تريضي .. سيدة الناس .

في انتظار الفجر

انطلقت من الطائرة وكنتها تنسج لي في صدر الكون طريقا لرحب
من صفحة السماء والشرق من وهج الشمس ، وكل الوقت تبيل العروب
وميلتي لندس وبدلونها والنهر اللئوي في ملهها قد أخذت تتساعد
وتتصايل ، ورقعة الأرض الخضراء المنيقة قد ازداد انساعها وبهتت
معالمها حتى حجبها كل السحاب المتفثرة أسفلنا .. وبنت أئمة
الشمس طلقة من صفحة السماء لا تقبدها سحب ولا يكسر سوءها
خلال .

وانطلقت آمالي كاشعة الشمس .. ملا قيود ولا حدود ، كنتك
.. وأمسك إلي .. وأعود معك لمرتع في ربوع الأرض ، في العوطة .
وفي سع يردي ، والعين الخضراء .. وفي لسان الجبل .. وأعود
ملك في الطائرة إلى لندن .. لنشهد معا مرة أخرى .. المعالم التي رلناها
سويا أول مرة في الشتاء .. بحليدها ويردها .. ووجهها القائم المكهر .
وفي الصيف بارزها الخضراء ، ووجهها المشرق الناسم .

وبددت يدي لتحمس سائي ، ملا يشد يثقلها ويغرق بها الأرض ،
وحركت نفسي بالحداء الحديد الأنيق الذي اشتره لي أمي .. والدي
لم يخلني القدر في لبسه كما خللني أول مرة .

لتراني .. أصبحت مبددة النفس ! !

سأقول دائما أنني لكونها .. من أجلك .

لي أخلدك أبدا .

لقد بحثت لشقاء كثيرة في حياتي .

انشاء كثيرة ! ! لماذا لا أتصفك وأقول إنك منعني الحياة ذاتها .

وحضني لبي من انطلاقي إليك .. عندما سمعته يقول :

— أرجو أن تكون البرقة التي أرسلتها إلي خالك قد وصلت .

وخرت « لي » رأسها قذلة في غير اكتراث :

— تصل لو لا تصل .. المهم أن تصل نحن .

— سنصل إن شاء الله ونجد كل شيء على خير حال .

وقلت « لي » بتسائلة :

— سصل في منتصف الليل .

ورد أبي ثقلا :

— تبذل ذلك لي شاء الله .

وتقر حياي إلى المطار .. ورحت أتصوره ببناء الجديد الأنيق ..

وأتصورك مقف بين المستقلين ملوحا لي بيديك .

تري كيف ألتفك ! !

أعدو إليك وأمسك إلي ! !

والناسي ! !

الأثارب والأصفاء الذين سيكونون في انتظارنا .

ماذا يقولون ! !

بل أنت تفسك .. لماذا تظن بي ! !

لي قمسي ما حرؤت أن أمله .. أنني أسمعك رأسي ذات مرة إلى

كنتك في العوطة .

سأشد على يدك في حرارة .

ثم أمسك بعد ذلك .. في أول غرصة .

ولكن هل سذلتي لاستقبلي ! !

بالمطبخ سنأكل .. مسخّر خالتي * حسن * .. مسخّر حسن
« نادية » .. وتضرب نادية .

وغير معقول أن تسع اثني ثلاثة ولا تحضر لاستقبالي عندما أصل .
ونجاة أحرف من الدهر انحراف حادة .. كذلك التي تنحرف إليها
الأدعان عندما تحاول العبث بنا والمصغرية بنا .
ووجدتني أسأل نفسي في انحراف ذهني :
أترانا سنعمل معاً ؟ !

لقد شئت « أبي » عندما تحدث « أبي » من البرهة « نصل أو لا نصل »
.. المهم أن نصل نحن .. « أترى هناك احتمال ألا نصل ؟
ولم ؟ ! ! !

بين يوم وآخر نسمع من طائرة تعطلت أو احترقت ، ولعل كل
من بها .. ليست طائرنا طائرة ؟ !
وراح ذهني يتلعب الطائرة وهي مضطربة .
ونظرت من النافذة ، لأرى الظلام قد خيم ، ولعلت لها أحمر يخرج
من جناح الطائرة .

وأصابني خوف شديد .
أترى جناح الطائرة يحترق ؟
وتنادى الطائرة لا يعري ؟ .. والمضيئة لا تعري ؟ .. والركاب
لا يعرفون ؟ لا أحد يعرف سوى ؟
غير معقول .

وإذا حدث ؟ أليس من الغير أن أتبه إلى ذلك ؟
٧ . ٧ . لا داعي لهذه الحماقة .. لابد أن يكون هذا شيئاً طبيعياً ،
ولعل علي « أبي » وقلت متسائلة في غير الكراث :
— هناك لهب ينطلق من جناح الطائرة .
ويدت الدهشة علي « أبي » ثم بد رأسه إلى النافذة ليرى ما تشير
إليه ثم قال ضاحكاً :
— هذا مثل الطائرات النفاثة .

— لماذا لم أراه من قبل ؟

— لأنك لم تسفرى ليلاً قبل هذا .

وكل مليّ أن لطش وأعدا .. ولكن الذهن العليل عاد يتابع
الطائرة في سقوطها .. ورايت نفسي في ماء البحر لصرع الموج ..
حتى أقرب شاطئه .

وأنصت بك سيمبل إليك ما سقوط الطائرة .
ثم نأ إقتلدي سليمة .

ولم ألت حتى نمتت من رأسي كل هذه المخاضات .. والنفس
إلى « أبي » أخرى إلى حديث ينقضي من انحراف ذهني إلى الأسفل
السحيقة .

قلت لأبي :

— عندما نصل تريد أن تقضي بضعة أيام في الشوطة .

— إن شاء الله .. ستكون وحدة لاستقبالنا عندما نصل .. لقد
أعدوا إصلاح العريشة .. وبناء الحجرة والحلم .

وتصلت أبي في دهشة :

— متى فعلوا هذا ؟

— لقد أبرتهم به قبل أن أسافر .

— ألم أفل لك لا داعي لعمله .

— وضجكت .. ففصلت كي :

— أكنت ترمين أنه عمل هذا ؟

— أجل .. لقد انتقنا عليه قبل أن نأسف .

— وكنا لا نحسب لي ؟

— مستعجبين به عندما قرينه قد تم .

وهزت أبي رأسها وشهدت ، وهي تقول في أسهل :

— أحياناً لا لزوم لها .

ورد لي تلالاً في خليط من البعد والمراح :

— سمعتناج إليها عندما تزوج سفير .

ونظرت إلى « أبي » وأنا أصابع ضاحكة :

— لم يكن هذا هو الاتفاق .

— ولكنه سيكون النتيجة .

وبمسألة غير أبي محري الحديث مسلحاً :

— ما هي أخبار حدي ؟

وبرغم أنه لم يربط بين الموضوعين ربطاً جليلاً .. فقد أحس كل منا .. أن الموضوعين يتم أحدهما الآخر .. الزواج .. وانت .. وأما عندما يطرق موضوع رواحي .. لا يبرز في الصورة غيرك .. وملأني إحساس بالارتياح والسعادة .. وأنا أحس بأننا معا .. بتلك اللحظة .

وأجبت « أبي » بنفس التسلسلة التي وجه بها السؤال :

— على خير حال .

وعندنا إلى الصمت .. وأغض « أبي » عينيه .. وعدت لأخلق من الفائدة في الفراغ الأسود الذي لا يبدو منه غير لمس اليد اللهب الحارح من الصحاح .

وبذات المرحلة الأخيرة من الرحلة .. بعد أن غادرت روما .

ولقد كل منا إلى الصمت .. صمت التوم .. أو صمت شروم الذهب .. حتى أحدث الطائرة لتتربس في حبس .

وسمعا صوت المصيبة تقول :

— بعد بضعة دقائق سنهبط في مطار جنيف .

ثم استرسلت في تعليقاتها المعتادة من شد الحزام ، وترك التدخين وشيئاتها بأن يكون قد استمتعا مرحلة سعيدة ولن تعود مرة أخرى للظهور على خطوط الشركة .

وأخذت الطائرة في الهبوط ولما انقرا الفاتحة وأحسنا بطرقات المجل على الأرض ثم وقف المحرك .

وبرمى اسلكت تنهيدة طويلة حارة وحسنت حادثة الله .

أخيراً .. معنا .

وتركت حدي يسترخي في المقعد .

كنت أبلغ لثني درجات التوتر العصبي .. في لحظة الرحيل ،

ولحظة الوصول .

انفَس الصعداء عندما تطلق الطائرة في الجو ، وأحس بها تسري في السماء .

وانفَس الصعداء ثلثة عندما أحس بها قد استقرت في على الأرض .

ومكثنا الأزيمة وتركنا المقاعد وحسنا الأحبال من فوق الزنوف .

وسار « أبي » أمينا ، وقد ملق على كتفه إحدى حقائب الطيران

وحمل في يديه حقيقتين أخريين وسرت سمعه انوكا على المصا وورائي

« أبي » .

وحسنا درج الطائرة وأنا أحاول أن أختطف نظرات إلى مبنى المطار

وسرنا وراء المصنعة ثلثنا الظلمة ، واجتزنا ملب جناح القلائص حتى

تتقوى إحصاءات المحرك والجوازات .

واتنمى إليها « حسن » يرحب بنا في حرارة ، ووراء نادية وخلفتي

حسنة وملي .

وانتهت غرة الترحيب بكل ما فيها من ضووع ولشواق .

وأحسست بخدال شديد .. وأنا لا أجد وجهك بين المستقبليين ،

ولم أستطع في حماسة الوصول وفرحة اللقاء .. أن أسأل منك .. حتى

لا أدع لشاعر الحبيبة والخدال والفضيل والثلث التي ملأت نفسي ، وأنا

لا أراك جسم .. سبيلا إلى ظهري أو تصرفاتي .. ورعت القاهم بحماسة

وفرحة وكثلي لا لتفقد شيئاً .

وحسنا على بعض المقاعد ربما ينتهي « حسن » من تخلص

إحصاءات الوصول ، ودار الحديث بقطعا ، سؤال من هنا وجواب

من هناك .

قلت خالتي للمرة العاشرة وهي تريت ظهري في حضان :
— جدا ه على السلامة يا حبيبتي .. الف حمد الله على السلامة ..
فلوينا كانت معكم في كل لحظة .

واحبست في لهجة « خالتي » نوحا من الاستسلام الذي احس به
دائما في لهجة « امي » ، ورايت في وجهها علامات حزال وشحوب ، لم
تكن تبدو عليها من قبل .

لم ار في عينها الحساسة والقوة واليقظة التي كنت اراها دائما
واحبست ان بها شيئا ، وسألتها عن زوجها قذلة :

— كيف حاله عبي ؟

واطلقت زفرة ضيق واجابت :

— لا يريد ان يبق من الصعبة .. بلذ تركتونا ونحن في حال
لا يعلم بها إلا الله .

وصمتت برهة ثم ارفعت قذلة :

— ايس لدينا ما يبعث على الرضاء سوى مودتك بالسلامة .

وقلت اهاول ان اسرى عنها وانا مشغولة بفيضك .. منبهة إلى
سماع اهليارك :

— لا تضيقى حيا يا خالتي .. كل شيء سينتهي إلى خير حال .

وهزت راسها قذلة في حيرة :

— كيف ؟

ولم استطع ان اتول لها كيف ، او على الاصح لم اجسر لما كنت
ارى هناك سبيلا إلى إتهام الامر بالنسبة لهم على خسر حال ..
إلا بالرضاء بالواقع .. ولكي ثم احد ان الامر يسكن ان يكون مقبولا لديهم
بمثل هذه السهولة .. وانا احس ما في حديثها من مرارة وصيق .

ونصبت لم تغير مجرى الحديث ، وظلمت على ان بخبرني احد عنك
.. ونظرت إلى اخذك « نادية » استغيت بها .

واحبست لى « نادية » ولم تزل اكثر من الحيلة التي اخذت اصيق
بها نرعا :

— حمد الله على سلامتك .

ومعدت نادية تقول :

— لقد اتينا إلى المطار بعد ان انتهى مهرجان الفجر .. لقد الفى
« حسان » حديثا من البحري .. وكان المروض ان يحضر « حدى »
المهرجان ثم يأتى معنا إلى المطار حسب اتفاقنا عندما حدثنا في التليفون
وسألنا عن موعد حضورك .

وصمتت « نادية » ووجدتني أسأها مسطرة :

— ولماذا لم يحضر ؟

— لست ادرى لماذا اخره .. لقد وعد بالحضور من الجبهة في
الساعة السابعة مساء إلى مسرح المعرض .. كان يجب عليه ان
متحدث في التليفون إذا كان قد وجد ان ...

واقبل « حسان » بعد ان انتهى من إجراءات الجبرك .. وكلى قد
استمع إلى جيلة « نادية » الأخيرة ففلمها قذلا :

— إنه لم يجزم مستطاعته العودة في السابعة .. لقد قل إنه
سيحاول ان يستأنس الليلة لكي يحضر لاستقبالها معنا في المطار فإذا
لم يستطع فسيحضر في الفجر .

وهكذا استطعت ان اعرف منك شيئا .. عرفت انك كنت تنوى
الحضور ، ولم تستطع ، وانك ستحضر في الفجر .

وان على ان انتظر حتى مطلع الفجر لكي الذك ، أو احدثك إياك .
كل على ان اصبر حتى ينتهي الليل ، وننتشع الظلام .

مرة أخرى .. مزيدا من الصبر .

والذي منحنى الصبر حتى انتهى ليل يلى .. وانتشع ظلام
تماسني ومضى .. لم يستطع عليه ان يمتحنى الصبر بضع ساعات
اخر .. حتى يشرق الفجر .. والى بك .. واخبرك انى عدت إياك
.. ملء نفسي الابل والحب والتفة والإيمان .. وإلى موالفة على
ما سألتني إياه ، برحة بالارتباط بك حتى آخر العمر .

ونهبنا لثغارة المطار وركبت عربة حسان مع ناعية وسلمى ..
وسالت سلمى من حالها وحال أسرنا وحال الكلية وحال البلد كلها .

وضحكت سلمى قليلة :

— لا شيء أكثر مما أرسلته لك في رسالتي الأخيرة .. ريفس
ما زال يبحث من زوجة .. وأحنى عزة .. ما زالت مسافطة على
الوحدة وعلى الحكم .. وشكيب أضحى صديقا لها بحكم حصومتهم
للوحدة وبحكم تعاونهم في إطلاق الإشاعات والنشيع بالحكم .. وأبي
مخوجس من حالة الفلاني التي تسود البلد .. نتيجة التوتر الذي حدث بين
المشير والسراج .

ورد « حسان » وهو يتجه بالعمرة نحو الطريق إلى دمشق :

— لقد استقل السراج وانتهت المشكلة .

وتسلطت في دهشة وقد اثبتاني إحساسى على من الموقف يرمث
على الطائفة والإرشاح :

— استقل .. متى .. وكيف ؟

وقال حسان شارحا :

— بعد التنظيم الأخير الذي عهد جهاز الحكم في الجمهورية كلها
.. في وزارة واحدة .. أحس السراج بأنه أبعد عن السلطان .. ووجد
نفسه في القاهرة لا يفعل شيئا بعد أن كان يحكم سوريا كلها .
وقالت ناعية بتسائلة :

— كيف ؟ .. ألم يكن نائب رئيس الجمهورية للشئون الداخلية
كيفية نواب رئيس الجمهورية الذين حددت لكل مهم اختصاصاته ؟

— المفروض هذا .. ولكنه .. كما تقول التشتتات — لم يحس أنه
يسارس سلطة فعلية في القاهرة .. وأنه حاول الحصول على بعض
البيانات من وزارة الداخلية . فلم يفلح . وأنه عندما أحس بهذا ..
أخذ نفسه وحضر إلى دمشق .. وجئنا أوراثة من المجلس التنفيذي ..

ومن الداخلية .. واستقر في مكتبه بغير الاتحاد القومي .. فقللا إنه إذا
كان لم يعد بعد رئيسا للمجلس التنفيذي .. أو وريثا للداخلية ، فهو
ما زال أينا على الاتحاد القومي .. وأنه ليس هناك ما يحول دون
ممارسته لصلته في الاتحاد .

ووجدت نفسي أتلطع حسان مستمرة :

— من الذي يعمل في وزارة الداخلية هنا ؟

— لا أحد .

— كيف ؟

— لأن كل الوزراء في مصر .

— ألا يوجد وزراء هنا ؟

— جهاز الحكم بوجد هنا وهناك .. والمفروض أن تستقر الوزارة

كلها لناعية لشمر في مصر ، وأربعة لشمر في دمشق .

— وخلال الأمانة لشمر التي تقضيها الوزارة في القاهرة من الذي

يستقر في الوزارات هنا في دمشق ؟

وربح « حسان » كتبه دون أن يجيب .

وعندت أسأل مستطردة :

— وخلال الأمانة الأربعة التي تستقر فيها الوزارات في دمشق

.. من الذي يدير شئون الوزارات في القاهرة ؟

وقال حسان :

— المفروض أن يكون بقر الحكم المركزي لناعية لشمر في القاهرة

وأربعة في دمشق .. ولي تحكم الجمهورية ثلثي العام من القاهرة وثلثه

من دمشق .

ولم انتزع نابا .. فقد كنت أحس أن الناس في دمشق أو في

القاهرة لا يمكن أن يحسوا أن مصالحهم تنضوي بوزارة بلا وزير في

مناها .. وأن لناعية لشمر في القاهرة وأربعة في دمشق ستترك

الناس حيارى وهم يرون الوزارات عندهم بلا وزراء .

واستطرد حسان يقول وهو يحس بحيرى :

— لقد كان هناك اتجاه يرى أن كل إقليم يجب أن يعامل حسب ظروفه الخاصة .. وأن ما يطبق على مصر لا يصبح تطبيقه على سوريا .. وأن الأوضاع في سوريا غير ما هي مصر .. ومستوى المعيشة في مصر هناك .. ولكن الاتجاه الأخير يرى أننا جمهورية واحدة ونسب واحد وأن الطريقة بين الإقليمين بدعوى أن لكل إقليم ظروفه وأوضاعه أمر لا يتفق مع أسلوب الوحدة ، وأن الوحدة يجب أن تنطبق عليها بالنسبة حدودها وأنه يجب ألا تكون هناك أية تفرقة بين إقليميهما .

وصفت حسبل برهة .. بذكر ماذا كان يقول عندما تناطعته وسألته أنكره بما أنشئ إليه حديثه :

— بلغا حدث بعد أن استقر السراج في مكتبه في الاتحاد القومي ؛ بدأ القوم يبينه وبين المشير الذي وصل إلى دمشق لتعيين أسلوب الحكم ، بداء بإصدار قرار لا يقضى على أي فرد إلا بأمر النيابة ، كما بدأ عملية إلغاء المكتب الثاني من قبله ، وقيل إن السراج رد على قرار عدم القضاء على أي فرد إلا بأمر النيابة بأن هذا « شرار » له وأنه لم يقضى على من قضى عليهم إلا لأمر البلد وأن المعتقلين لا يريدون على تسخير ، كما حاول ضباط المكتب الثاني ألا يسلطوا أمر الملك فهدس المكتب الثاني بقوات الجيش وأعلق ، وقد قيل إن المكتب الثاني قد سبق أن قدم تقارير ضد ضباط القيادة وأسمهم مقلاتر ، كما قيل إن الصراع بين المكتب الثاني والمخابرات العسكرية صراع قديم .

وصفت حسبل وزاد إحساسه بتفائق فحدث اتصال :

— وماذا حدث بعد ذلك ؟

— بدأ السراج يبرز على عطفه في الاتحاد القومي على المطلق الشمس بالاحتياج للأعضاء ، وزعم البعض أنه نفى مسئولياته عن القوانين الاشتراكية . وشبعت الخصوم أيضاً أحصوا به من بؤابر الفراع .. وتظاهروا بتأييد السراج رغم معضهم له واعتباره المسئول الأول عن كل شيء .. وبدأت الأموال تنقل بين الطرفين بطريقة زادت حوة الخلاف ، ووضح الخلاف في كهيئة أسفاب اللجان التمهيدية للاتحاد القومي ،

مستراج يحاول تنفيذ قرار موجود لم يصدر أمر بإجرائه ، والمشير يحاول تنفيذ قرار جديد كلف بتنفيذه .. حتى تمام الطرفين على السفر إلى مصر لغرض الخلاف ، ولكن الخلاف استعصى نفسه ، وأمر السراج على الاستقالة فلم يكن هناك بد من قبولها .. وعاد المشير إلى دمشق ومعهم السراج بعد أن قبلت استقالته .

وصفت حسبل ولم استطع أن أضع نفسي من أن يتسلل إليهما إحساس بالحواف .. خوف جهنم .. من ظلمة تطبق على البلد وضباب يحجم في أرجائه يجعل الرؤية خطيرة .. ويهلا الإنسان شعوراً بأنه لا يرى من أيامه القليلة أبعد من أمته . ولم يزل بين الحواف ملولاً ..

لم يزل في أكثر من بقية الطريق .. حتى وقعت العربة أمام باب البيت ووجدتني بمساحة الطرد من ذهني كل تفكير سياسي لألقى عبثه وبشكلاته على أصحابها والمسؤولين عن حلها .

ومكنت نفسي مشامري الفاصة التي تدفقت في حرارة وأنا ألقه أمام البيت أرهب الشجرة الضخمة المتعالية ، وأشم عبق الياسمين المتسلقة إلى نكدة حجرتي وأرقب دمشق بأضوائها المتلألئة أسفل الجبل ، وأرى « حافلة » تتدفع من باب البيت لتضئني في لفة إلى حجرها وهي تشج بكلمة وتتمتع بأحوال غير مبهومة .. خليط من الدعوات وآيات القرآن .

وسرت إلى الباب بنكدة بشفة على ذراع « أبي » وقد تركت العنقا حائبا وتنبئت لو أقبلت على « ساعتي لثرائي كيب أسير ، بلا بشد .. ولا مصا .. ولا عرج .. مشية بخزنة ثالثة .. رغم ما بي من إجهاد السفر .

لو تلك اثبت لاستبالي !

أن تستطيع أبدا أن تصور مقدار لغتي على لغتك .

لقد كنت أحق الناس برؤيتي .. وأنا أعدل عليكم بعد تجزيتي المريعة الشائعة .. سلبية الحسد مخزنة الخطأ مرغوة الهامة .

لقد فعلت ما فعلت من اجلك .

اجل .. لا حدال من ذلك ..

اقولها بلا حرج بعد ان اجتزت التجربة بنجاح .

فعلت ما فعلت لكي انسى ذلك حينئذ الطويلة .. متكاثرة معك ..

لا اشعر لحظة ماني حبل عليك .. ولا اشعر لحظة بالي بشاعرك بها

مسحة من مطب أو شقطة أو رثاء .

وعدت اسائل نفسي في شوق وثنا لعمد السلم .

« لماذا لم قلت ؟ »

وحاول الدهر ان يحرف سحابة الى الشكوك المريعة ، ليذكرني

بمعينك ليلة رماني نادية .

اتراعه بحركة اخرى مع اليهود ؟

ونفيت الخاطر عن ذهني في سرعة وهزم .

مير معقول .

لو ان هناك معركة لعرفنا .

ولكننا لم نعرف في المرة السابقة .

ولكنك تحدثت هذه المرة لتخبرهم بانك قائم في الساعة او في

الفجر .. وفي المرة السابقة لم تستطيع التحدث اصلا .

ولكن هل تحدثت حقيقة ام اتهم محاولون طمأنتي بإحدى الاكاذيب ؟

وانت في مديته وهي سمر باب البهو ورائي وقتلت لها في شكك :

— احقيقة تحدثت حدي ؟

— اجل .

وماذا قال ؟

— قال إنه سيحاول ان يأتي في الساعة السابقة ليدهب معنا الى

المطار . لماذا لم يسمع فسيحانر النجمة في ساعة متأخرة من الليل

ليصل إلينا في ضوء الفجر .

وكان مليء ان انتظر حتى ضوء الفجر .

ولكن كيف اراك في الفجر ! ؟

مير معقول ان ثلثي إلينا من الجبهة راسا .. لتوقفنا في المعر .

ليتك تفعل .

ليتك ملك الجرافة على ان تصل مع الجمر لتطرق بابنا .

إذا لو جدتني افتح الباب لك والذاك بين ذراعي .

ولكنك ان تفعل .

انا اعرف حياتك .. ستذهب إلى بيتكم .. بيت حسبي ونادية

الحديد في برمانه .. حيث يعيش والذك وحيث ترل أنت في إحارتك .

اترى سمحتلني من التلويون ؟

على الاقل افعل هذا .

دعني اسبح صوتك .. إذا كان حياؤك ودورك بينمناك من إغلائنا .

دعني اسبح صوتك عندما تصل .

لا نحش ان نثلي احدا .. فسامح التلويون بحواري لأرد عليك

بجرد ان يلق الجرس .

ولماذا لا احبك لنا ؟

عندما يصيح الليل .. وتنفثع الظلمة .. وتتسلل حيوط الفجر من

البازدة ساربع الساعة والليليك .

وإذا كنت لم تصل بعد . ؟

ارجع اليك .. وبقية أهل الدار .. ليظنوا أنك المتحدث وان شينا

تد وقع .

حاشا ان افعل هذا .

احسر نادية .. ان تسالك ان تطلب من التلويون بجرد ان تصل ؟

مد تكون باتيه عندما تصل !

هل احسر ان اسألك ان تسهر حتى تصل ؟

حس المحر !

بماذا تقول علي .. محتوثة ؟

لماذا لم تحضر لتريحي من كل هذا ؟

تنتدم موكبه .. سهام أتواره ورماح أشسته .. في ثغة ، وحرم وإصرار .

هذه المشود المسية المتلاصقة .. التي تنتشر على طول الأماق
لن تجسر على مقاومة زحفها .

لن تجسر حتى على الوقوف لانتظارها .

أطراف السهام وأسنة الرماح ، ستجعلها تنكس على عقبيها مدعيرة
ساحرة . مبرولة بتمطرة .. ستجعل من انسحابها هروبا .. ومن
هزيمتها اندحارا .

أتت آت مع قرص الشمس .

أتت مع انتصار النور .

أتت في أعقاب الليل .

ليل . كلال ليل .. لأبد له من آخر .

www.mlazna.com

^RAYAHEEN^

أندا تخذلتني عندما انطفئ عليك وانتوق إلى لثافتك .

ولكن لماذا انطلق ؟

مرغبتك لم تلت .. بما في ذلك شك ..

وستأتي فعدا .

لماذا لا تنتظر إذا ؟

مريدا من الصبر .. مزيدا من الصبر .

أندا سينتهي الليل .. وستشرق الشمس .

أجل ستأتي فعدا .. فيما من ليل هناك بلا آخر .

ليل باسي الطويل قد أنتفى .. ولم تنق إلا ساعات على ليل تصير

.. عمرة في يد الشمس المخبلة من وراء الأماق .

وهي آتية آتية .. بشرقة مخرقة .

ووتنت في الشرقة أعب نسبات الليل في صدري .. تختلط فيها

أنفاس الباسيين بكناس دمشق .

دمشق الحبيبة .. الطيبة .. المظففة .. المنعملة كالطلل ..

إذا فرح نهته .. وإذا نالهم صرخ .

دمشق التي تتفعل ولا تؤذي .. تطرب ولا تخدش .. نخدش

ولا تجرح .. وتجرح .. لتفقد الجراح .. لا قتل ولا سطل .

وودنت في وقتي لو شملت أشجار السرور .. وبصحت وجهي

على صفحة بردي .

وحاوز بصري المدينة النائمة إلى الأماق الشرقي .

وراء الحد الشاحب الفاصل بين السماء وقباب المدينة وأطراف

الشجر .. يظفي قرص الشمس .

ما زال بعيدا .

ولكنه يقترب .

— الو .. حدى ؟

وسمعت صوت أختك « نادية » تجيبني :

— أنا نادية يا سيهر .. مثلسة إذا كنت قد لبتلتكم .

ولم أكن فى حال تسح بالدخول فى مناقشة اعتذارها . لمحت
اتسائل بسرعة :

— أين حدى ؟

وردت « نادية » فى تردد :

— حدى .. لم يصل بعد .

— قم بتحدث فى التليفون ؟

— كلا .. ولكن ...

— لكن ماذا ؟

— إتنا سمع صوت طلعت آكية بن تلحية استراحة المشير .

وتسألت فى دهشة :

— وبإذا يعنى هذا ؟

— يقال إنه قد حدث انقلاب وإن الدبليات تحلصر تيادة الأركان

وبيت المشير .. ولست أعرف أين يمكن أن يكون « حدى » .

وعلى الاتصال صوتها .. وضعت يرها صبت .. ثم سمعت

صوت حسان فى المباحة بهتة قللا :

— لا دامى للحواف يا سيهر .. إتنا لم نتبين بعد حقيقة ما حدث .

ولا ما هو المقصود به .

— وحدى ؟

— لعله لم يأت من الجبهة بعد .. وقد يكون فى الطريق إلينا ..

على أية حال سلهاول الاتصال ببعض الخسلط لعلى أعرف حقيقة

ما حدث .. وسنتنظر بدء الإذاعة .. فلا شك أنها ستوضح لنا حقيقة

ما حدث .. على أية حال لا دامى للتلقا .. لست أظن هناك شيئا

جددا .

ليل طويل

معت ليلنى الأولى أنتظر ضوء المجر .. والتليفون يحوار الوصفه
.. لعل أولى ربائه تحيل إلى "صوتك" ، وأسلمنى عهد الرحلة - وصحب
اللقاء ، وتوتر الأعصاب فى انتظار لثائك ، إلى حائط مشوش مسطرب
من الأحلام ، كنت فيها القاسم المشترك الأعظم ، أفكر بها رقتنى فى
المستشفى بلدى وقد أهدفت العلية الأخيرة ، وأنت نقب حواري مرحوح
أن أعود إلى دمشق ولنا أمر على إجراء عملية أخرى .. ثم رأيت
محبلى على حواد وتنطلق فى إلى المعاء ، ولنا فى سعادى العامرة
أخشى أن تسقط من حلق وأنت تؤكد لى أن السحاب يستنما ، حرمت
كثيرة رابتها فى أحلام ليلنى تلك .. طيلة بالابل والخوف . والرحام
والباس .. وكان آخرها ما رأيت من إلتناك على "فى تظلل لا يرد أن"
بوقوف وهو يحبك مبعدا عنى ، وأنت تلوح لى ميفك ولنا أخرى
للحاق بك .

وليتلنى من طمى الكلب ونين .. خلقتك برهة ونين اجراسى
المحطة التى كتب أودعك فيها - وضعت يضع ثوان وأنا أحاول أن أسمع
النوم من حمى وأفكر أين أكون حتى أدركت أنى فى حجرى ولز الرين
ومين استيقون فمعت بدى أربع السامه إلى أنى فى لهمه وأنا أتوقع
سباع صوتك .. هاتفة فى فرحة شديدة

وكان « أبى » قد اتبل وهو يهز رأسه مستغلا :

— ماذا هناك ؟ !

وسميه مسامحة التنبؤون وأنا أحس بصوتي تكاد تفتته العمرات .. وتند سري إلى نفسي خوف شديد .

بلذا قد خبا لنا القدر وراء ذلك الليل الذى تلبى شمسك أن تشرق ؟
هذه المثلثات التى سمعت عند بيت المثير .. بلذا تعنى ؟

اعتلنا ؟ !

من ؟ !

وعد من ؟ !

وأين أنت من هذا الشبح الكتيب الذى يطل علينا فى اعقاب ليل .
يتلف على رحيله .. ليطمس مجره .. ويحجب شمسك ؟ !

أبعد كل هذا الذى تاسيته ؟ !

بعد الصبر الطويل ، والآلام المبرحة ، وبعد أن قصت إليك ..
لم نفسي الأمل .. لم لك يدى فى إيمان وثقة .. فإذا بالظلمة والشغب
تدول بين وبينك .. ولا أعرف أين أنت .. من هذا الليل الطويل الكتيب
الذى لا يهدأ أن ينتهى .

ولكن لماذا كل هذا الجزع والبأس ؟ !

بلذا يحول بينك وبين المجد ؟ !

على الانقلاب الأحمق لو وقع .. على مبلغ به الحماة .. أن
يمس وحدتنا المتدسة ، التى أبرجت فيها فمائلنا .

ذلك أنت بالأذات قد أبرجت بضم إخوانك السوريين على أرضنا ..
فى القوافض .. أن يحسر أحد من هؤلاء الحقنى أن يمسك .. وفى

أرضنا يمسك .. الذى جعل من أرضنا أرضك .. وس ذلك كما .
أهل .. أيا كان صاحب الانقلاب ، وأيا كان هدفه على يحسر بحق

أن يمس وحدتنا .. التى منحنا الاستقرار والثروة ، والقدرة على
النماء .

لقد كانت الوحدة ، مرغبا الأمل فى حياتنا ، ما أحسست أن أحدا

من السخطين .. قد جرؤ مرة واحدة خلال مسطحة على أن يجد فى
عندنا وسيلة للخلاص .

حتى « روح حائلى » فى تشد حالات مسطحة على التوائين
الاشتراكية ، لم يجرؤ على مس الوحدة .

ولكن .. من وراء الانقلاب ؟ !

أفراه السراج ؟ قد يكون الصيق تلمعه إلى الفيلم به .

أهكذا .. ويهده السرعة ؟ !

لا أظن .. غير محقول .

أم قراهم الشيوعيون ؟ !

وسرى إلى نفسي الخوف من جفهد .

إننا لا نستطيع أن نأبهم ، وهم يكرهون للوحدة .. ما فى ذلك
شكك .

اتراهم البعثيون ؟ .. وازداد بى الخوف .. ألم ينتهبوا هم أيضا
على الوحدة ؟ !

وايسكت بالراديو .. أدير الماشر يمتة ويسرة لعلى التخط إذاعة
تنبئنى بحتبة ما حدثك .

ولكنى لم أسمع سوى صغير وخوشاء .

وكانت الساعة لم تتجاوز الظلمة .. وواعد الإذاعة لا يبدأ
تبل السليمة .

ولم أجد فى نفسي القدرة على الصبر حتى يعين موعد الإذاعة
.. ودعت إلى الشرقة وحاولت أن أستطلع حقيقة ما حدث .. وتطلعت

بمبنى فوحت المدينة نائمة ، ترتعب فى أرجائها أضواء آخر الليل ،
ولامتات ، ثليون تقوى وتنطفئ فى رتابة ، وأشجار السرو تلو فى الألق

مع المآذن والقباب ، وعربات تدرى بين آونة وأخرى .
لم أسمع صوت طلائع ، ولا أحسست فى المدينة التالية حركة

غير طيمنية ، وشبهت انداس المسح تتساعد حفنة من الباسينية
المعلقة على التلدة تحيلها إلى نسمة رطبة لتضائى يفتنا مار كل شيء

هادىء فى المدينة ، وتؤكد لى أن كل ما سمعته تصورات وأوهام .
ومعنت من الشرقة لأجد « لى » قد استيقظت وعليت بن « لى »
ما حدث ، وبدت عليها علامات التلقق والجزع .
وقلت أطمئنها :

— لاد ولن هناك شيء ..

وردت « لى » بلهجة مهومة :

— والطلقات التى سمعت ! !

— قد تكون منارة للجيش قريبة من المدينة .

وأردف « لى » يقول :

— جائز .. جائز جدا .

ثم سميت برهة واستطرد يقول :

— لا أظن مائلا يتر وتوع انقلاب نيا كان .. لقد دفنا طعم

الاستقرار .. وليس هناك ما يملو لعدة مرة أخرى .

وأصممت بمزيد من الطمئنة لقول « لى » . ومعنت أهرق مؤشر

الراديو لاكتظ صوتا يمنحنى المزيد من الطمئنة .

ولم أسع سوى الصغير .. وبعضى المصطفت الأجنبية .

وقالت لى كفى :

— أتنبهى إلى فراشك لتضريعى .. إلك لم تشلى سوى بضع

سماعات .

ولم يكن من المعلوم أن يترقب النوم عيني وأنا لا أعرف أين أنت ..

وهزئت رأسى وقلت لاسى :

— أبس لى رغبة فى النوم .

ثم رمحت ساعة التيقون أطلب « حسان » أو « نادية » لعلنى

أحدا ما يطمئننى عليك .

ورد على « حسان » مسألته فى لهفة :

— ما الأخبار ؟

وأجاب حسان :

— لا شيء .

— وحيدى ! !

— لم يصل بعد .

— ألا تستطيع الاتصال به فى الجبهة ! !

وعنت « حسان » فى دهشة :

— حبة ! لا يجب ؟

— بلطفينون ! !

— الظاهر أنه ليس لديك فكرة .

— عن أى شيء ! !

— عن الانقلاب .

— ولكنى لم أر له اثرا .. لقد نظرت من الشرقة فبدأ كل شيء

طبعيا .. المدينة هائلة .. وليس هناك أية انفجارات .

— لقد رايت بنفسى الدبيلات تميط بقيادة الأركان .

وعنت لى جزع :

— حقيقة ! !

— طبعاً .

— وما العمل !

— لا شيء .. لا شيء سوى الانتظار .

— وحيدى ! !

— لست أظن هناك ما يهدده .. سيكون آتيا مهما كانت الظروف .

— ولكن

وترددت برهة .. ولم أعرف كيف أعبر من نفشى عليك .. وعلى

معرفة أخبارك .. وصيت برهة ، ثم عدت أقول :

— ولكن .. كيف نطمئن عليه ! !

— سنتنظر حتى الصباح .. متيقين لنا كل شيء .

حتى الصباح ! !

— مسير تقول إلى انقلاباً قد حدث .. والديابات تعاصر قيادة الأركان .

ثم وجهت « سلمى » الحديث إلى « فتلة » :

— رياض سيحدثك يا مسير .

وسبعت صوت « رياض » يتسائل في دهشة شديدة :

— خير يا مسير .. ماذا حدث ؟

— انقلاب .

— أو القلة أنت ؟

— حسبي يؤكد أنه رأى الديابات بعينه .

— عجيبة !!

وتقبل أن يستمرسل في الحديث سألته في لهلة .

— ألا تستطيع أن تعرف شيئاً عن حيدى ؟

وتسائل رياض في سرود :

— حيدى ؟

وأجبت في شبه توسل :

— أجل .. كان المتوقع أن يأتى ليس في السابعة حتى يذهب معهم

للثلاث في المطار وقال إذا لم يتمكن فسيأتى قرب الفجر .. وحتى

الآن لم يصل !!

وصبت برهة التعتت أنفاسي .. ثم عدت اتسائل :

— ألا تستطيع أن تسأل عنه ؟

ورد « رياض » مؤكداً :

— طبعاً .. سأنزل حالا وأذهب إلى قيادة الفرقة لأسأل لك عنه .

وصبت « رياض » برهة .. ثم استنرد بكل ما يملك من إيمان :

— لا تنلقى عليه أبداً .. إنه واحد منا .. ليس هو وحده .. كل

المصريين منا .. لقد امتزجت تمازنا على أرضنا .. أن يستطيع أحد بها

سابت مواباه .. أن يترك هذه الحقبة .. سألهم إلى هناك وسارد

عليك .. لا تنلقى أبداً .. مع السلامة .

كيف انتظر حتى الصباح .. وأنا لا أعرف منك شيئاً .. أين أنت ؟ .. وكيف أنت ؟ !

وخطر لي أن اطلب « سلمى » .. فلهل رياض يستطيع أن يتسائل

معي .

واندرت القرص .. ومضت بدة دون أن يجيب أحد .. لقد كانوا

نياباً ولا شك .. لم يعلم أحد منهم شيئاً عن الانقلاب .

وكنت أعيذ السبابة إلى مكاتها عنيا سبعت صوت « سلمى » ترد

على وهي نصف نائمة :

— آلو ..

— أنا مسير يا سلمى .

وبدا الجزع في صوت « سلمى » وهي تتسائل :

— خير يا مسير ؟

— لقد وقع انقلاب في البلد والديابات تعاصر قيادة الأركان وبيت

المسير .

وردت « سلمى » في دهشة شديدة تنفخ التوم من عينيها :

— ماذا تقولين ؟ .. انقلاب ؟ .. غير معقول ..

— هذا هو ما حدث .. لقد رأى « حسان » الديابات بعينه .

— ولكن من الذي يفعل هذا ؟ ولصلحة من ؟

— لا أعرف شيئاً .. ولقد كان المتوقع أن يصل « حيدى » من

العبهة في الفجر .. ولكنه لم يصل حتى الآن .. ولا أحد يعرف عنه

شيئاً .

وردت « سلمى » تحاول طمأنتي :

— لعله في الطريق .. أو لعله لم يستطيع الاستئذان .

— وكيف نعرف ؟

واحبست أن لهذا بجوار « سلمى » يسألها عما حدث ، لقد سمعتها

توجه الحديث إليه فتلة :

وتنازلت « سلمى » السماعة لتقول لى مطمئنة :

« لا تقلقى يا سهير .. كل شيء سينتهى إلى خير .. وسأنى إريك بمجرد أن يطلع النهار » .

ووسعت السماعة وجلست أنظر .. ويدى على مؤشر الراديو ..
وسر الوقت بطيئاً مبتغلاً حتى دقت السماعة .. وبدأ صوت المذيع
يقول لى هدوء :

« أيتها المستمعون الكرام .. ستمصحبون إلى تلاوة من آى الذكر الحكيم » .

لم علا صوت المقرئ .. لىأتى بالمطربة والأمان .

أجل ..

لقد بدت الإذاعة طبيعية .

لا صياح ولا ضجيج ..

لم يكن هناك انقلاب .. إذن كل ما قاله « جمال » وهم لى وهم .
وقلت لأبى وأنا أبتمس :

« لا يبدو هناك شيء غير طبيعي ! »

كانت تلاوة المقرئ .. كأنها يد تربت ظهري لى رفق وحنان .
وانتهى المقرئ من التلاوة .

ومضت فترة صمت ، وانخلت أرعد السمح لى أصبح ما يركد
الطابينة التى يأتى بها صوت المقرئ .

ولكنى عوجلنت بما يقبىه اللطبة .

لقد علا صوت يصرخ لى مصيبة بالغة :

لى صباح هذا اليوم تلم جيشكم الذى كل دائما وسيعبى لى
دعابة وطنية راسحة لى الحفاظ على أرض الوطن وسلايته وحريته
وكرابته .. قام لإزالة الفساد والمظالم ، ورد الحقوق الشرعية للشعب
.. وإئنا نعلن أن هذه الانتفاضة الوطنية لا صلة لها بشخص أو بشئة
معينة ، وإئنا مى حركة هدفها تصحيح الأوضاع غير الشرعية .

« أيتها الشعب العربى .. لى بجيشك مقباً لقوياء يعون الله وتوته
.. إئنا قد طرقتا كل باب فى إصلاح الفساد قبل أن يتفجر فلم نجد
وسيلة لتحرير من المسمطين واتشاع طريق الحرية والقوة سبلاً ..
لكنى تعدد للشعب حريته ، وللجيش كرابته ، وأن مرعى معد اليوم
لرأية العروبة بفرا إلا هلبات النصر .. وهذه دماؤنا — نكتب بها لئنا
قد وئينا العهد وأئنا الميثاق إلا كراباً — والله أكبر والحرمة للعرب .

للقادة الثورية العربية العليا للوفات المسلحة
وأصابعى من مجرد الصوت الصارح المعسى إحساسى بال شينا
يلتوى لى ملأنى : ولم استطع أن أنهم ماذا يعنى البيان .. وبماذا
يريد .. أى فساد ذلك الذى يرسم لى إزالته ، وأى طغيان ذلك الذى
يهدف إلى الخلاص منه ، وأى حقوق يريد ردها إلى الشعب !

لم استطع أن أعرف من صلح البيان ولا ماذا يريد . كلنى بيئنا
مهيماً .. عصياً .. يصرخ .. دون أن يفهم من صراخه نوه ..
ولكن كل واضحا أنه ضربة لى صميم الوحدة .. وأنه يحز لكل
خسومها .. محقق لمؤامراتهم ضدنا .

واشدت قللى عليك .. ولم أعتل الانتظار لى استسلام وأنا أحمل
مصحرك .. ولم ألق الانتظار حتى تصل « سلمى » فنهضت واقفة لى
خيل ثقالة لأبى على مسبح من لى :

« أريد أن أذهب إلى سلمى . »

وشال « أبى » لى شوه من الدهشة :

« لماذا ؟ »

وأزدرجت ريقى وأنا لا أعرف كيف أجيبه ... ونصايلت « لى »
مستكرة :

« تخرجين والبلد لى هذه الحال ! ! »

« لا أظن هناك شينا لى الطريق إلى بيئنا . »

ولم يصعب على « أبى » أن يدرك حقيقة ما بى من قلق وجزع ،
ووجعته ببساطة يؤيدنى قتلاً وهو يتجه إلى حجرته .

— آتى معك لا وصلك .

واحتحت « أبى » سلحة :

— لا يمكن أن تخرجنا من هذه الظروف .

ولجب « أبى » من هدوء :

— إذا وجدت ما يلف من طريقنا .. سنعود .

واستكت بالظلمون وطلبت « سلمى » ولم تكد تسمع صوتى حتى
عظمت خالفة :

— سأتى إليك يا سهير .

— بل سأتى أنا .

— ولكنى على أمة النزول .

— ليس لديك حرية وقد لا تحدين وسيلة للتواصلات . سيوصلنى
أبى إليك حالا .

وانتظرت أن تقول شيئا من « رياس » ولكنها لم تقل أكثر من .

— سأنتظرك إذن .

ولم أحد بدا من سؤالها :

— وما أخبر ريانى ؟

— لم يأت بعد .

— والحالة عندكم ؟ !

— لا شيء غير ماضى .. سوى بعض حريات الجيش التى تشرق من
الطريق . وديابة ألحها تنكب أمام بنى مسلحة الهاتف .

ووشعت السباعية .. بيزيد من الضيق .. وسرعد من الخوف عليك
ثم هبطت وأبى إلى الحرية .

وسارت بنا العربية من المنحدر حتى بلغنا طريق برماتة منحعب إلى
بيت « سلمى » قرب السلحة على نهر بردى دون أن نعتصنا عتبة ،
ولم يد من الطريق شيء غريب .. لا شيء أكثر من مائة الصباح وتجمعت
العمال عند محطات الأتوبيس .

وأوصلنى « أبى » حتى باب شقة « سلمى » ثم ودمنى قتلا :

— عندما تريدن العودة .. لتلاينى من البيت .

ولحت « حزة » وقد ارتدت ملابسها وبنت على وجهها علامات
الفرحة والتكلم وقالت لسلمى وهى تهبط السلم :

— سأنيب طول اليوم .. لدينا اجتماع فى الحزب .. لقد جاء

الفرج .. وحلت النهاية .. أخيرا ! ..

ولم ترد عليها « سلمى » وقالت وهى تضى « أبى » وتسلقه
الدخول :

— ستقتول سهير الغداه بحى .

— كما تريد .

ونظرت إلى « سلمى » مؤكدة :

— ستقتين حتى الغداه ؟

ولم تكن بنى رغبة فى الارشاد بأى شيء يحول بينى وبينك .. كل
ما كنت أريد هو أن أعرف أين أنت وكيف أراك ؟

ولجبت « سلمى » من تردد :

— سنرى ماذا يحدث خلال اليوم ، حسب الظروف .

واذركت « سلمى » مدى قلبنى واضطرابى ، فاجلست وهى تفسح
لى الطريق :

— كما تريدن .. تعالى .. سيكون كل شيء على ما يرام إن شاء
الله .

ودخلت إلى حجرة « سلمى » ... ولخنا نصت إلى الراديو من
لحظة وثق .. من انتشار مزيد من الأنباء .. وأدائنا موزعة بين رنات
التليفون ، ورنين جرس الباب ، لعل شيئا منها يصل إلينا نيا منك .

واسمير الراديو يطلق صرخاته الموسيقية .. حتى توقف فجأة
وأعلن المذيع من البلاغ رقم (٢) .

وانطلق الصوت السارخ يلو للبهان ،

واست ربه بكل حوارحى .. على أنهم ما وراءه .. ومن وراءه .

ولكنى لم أجد فيه سوى الاتواء والتفليل .

عند وجه نداءه إلى الشعب العربي المكناح في سوريا ومصر ،
وأدعى أن الشعب العربي المكناح في سوريا ومصر قد قام مكنالا على
الله بحركه عربية ثورية لحق المتبردين الذين ضربوا الوحدة العربية
المقدسة في الصميم .. وبمسلمة منح النداء لأصحابه صفه الشعب
العربي المكناح ليس في سوريا وحدها بل وفي مصر أيضا ، وعدد
لنفسه هدف حالية الوحدة من متردين ضربوها في الصميم .

والحسبت بعيري من الفهم ، وأنا أشعر أن أصحاب النبل هم
أول المتبردين الذين ضربوا الوحدة في الصميم بحركتهم تلك .. وإن
معدتهم باسم الشعب المكناح في سوريا ومصر أمر يشعر بل المتحدث
يستهن بدرجة المستمع على التفكير .

واستطرد البيان .. في جملة البراقة .. المبهوسة .. المستغفلة
.. حتى بدا يلوح منه .. ما يكتشف الريف من وجهه الحقيقي .. المستتر
وراء أتبعة التضييل .. عندما حبل على القارات الاشتراكية بوصفها :
« قارات مستعنة ثورية » والثورة منها براء .. قرارات ظاهرها فيه
الرحمة وباطنها فيه العذاب .

والحسبت كان الجلبة قد سلطت الضوء فجأة على شيح يحاول
التسلل والاستئثار ، واخذت أستمع إلى بقية البيان بغير وعي .. وقد
ملئت العار في ذهني .

ونكرت قول « زوج خالتي » .. « إن الحال لا يمكن أن يستمر
على ما هو » .

والحسبت أن هذا الانقلاب الذي يهدف على القرارات التي ظاهرها
الرحمة وباطنها العذاب .

لا بد وأن يكون قد بنح أصحاب شركات الاستغلال والاحتكار الرحمة
وأزال عنهم العذاب .

وسمعت « أبا سلمى » يمز رأسه وقد انتهى من الإصفاء إلى البيان
فقال :

— مطوها بابلك .. من أجل أنبامهم تطوها بابلك .. الله يجازيهم
.. ولا يبارك لهم .

ووجدت ذهني يقفز طويلا إلى الماضي البعيد .. يوم عيد ميلادي
حين لمست بالشلل .. عندما ولد مشروع ضم شركة « زوج خالتي »
إلى بقية الشركات من أجل القضاء على المنافسة وممارسة الاحتكار
والاستغلال والتحكم في الأسعار والأرباح ، وكيف أصبح بشفة أفراد
يملكون معظم تجارة البلد ويتحكمون فيها .. وكيف أمرضوا نفوذهم على
الحكم .. وكيف كانت خالتي نفسها .. قبل الوحدة .. لا يستمعني
عليها أبى لدى الحكم .

وعجبت أن تقوم انتفاضة .. لتعيد إلى بشفة أفراد حقهم في
الاحتكار والاستغلال والسيطرة .

مجيئ كيف تقوم انتفاضة على الشعب لقتل منه امتلاكه لكل بلد
وكل قومته .

وبدا لي من مجهول الانتفاضة .. أن تكون من بين برقيات مؤيديها
.. برقية من شركة « زوج خالتي » .. الشركة التي كانت منذ سنوات
لشبان الاحتكار والسيطرة .

وانتهى البيان الفاضح .. الفاضح لحقيقة الحركة .. الكاشف
للدافع لها .. وثقالت الصرخات الموسيقية والأناشيد العسكرية .

وازداد بي القلق .. وأنا لا أعرف شيئا عن مصيرك بعد ..
والحسبت بالأصوات الصاخبة في الراديو تعظم أصابعي ، وسمعت
« سلمى » يدها تدبر مؤشرها بلطف من محطات آخر الإذاعة .. وسمعت
إذاعة الأردن تهلل للحركة .. ثم إسرائيل .. ففكر أتباعها بلسرعة
وشجاعة .

والحسبت بشيء يضيء في قلبي .

أبتل هذه السهولة تهون سوريا العزيزة .. على أصحاب
الانقلاب ؟ ! أبتل هذه السهولة ينقلونها إلى جانب إسرائيل ؟
واستشرت « سلمى » تدبر المؤشر .. حتى وصل إلى صوت

العرب .. وبخست للمرة قبل ان يطو صوت « الرئيس عبد الناصر »
 يدع بيته الأول من دار الإذاعة ، في برارة ليلية .. لحصنت بها من
 قبل في صوته وهو يدع لتسحب القوات المصرية من صحراء سيناء
 محافظة على كيان الجيش .. خلال العدوان الآثم على القنال .

وانتهت الخطبة وأنا انصت إليها بكل جوارحي .

واخذ يتردد في ذهني قول الرجل الكبير في إصرار :

« لن اعلن أبدا بأي حال من الأحوال اني انتهر هذه الفرصة بعد
 المتاعب التي قبلتها لإعلان حل الجمهورية العربية المتحدة لنا مسئول
 من هذه الجمهورية بن القابض على أسوار ، وأنا مسئول عن الأهداف
 التي املتونها والتي قبلت تحقيقها بمسئول .. مسئول عن الوحدة
 العربية ، ومن دعوة القومية العربية .. لن انتهر هذه الفرصة واتول
 لنحل عنى هذه المتاعب وأعلن حل الجمهورية العربية المتحدة ابدا » ..

سيور .. سيور .. هذا الرجل .

ووجدت نفسي أقول في غيظ :

« اتعذب بها في وجههم ولرح نفسك » .

وقبل أن أسترسل في أفكارى العصبية الثائرة ..

حق جرس الباب .

ولفتت « سلمى » إني لتفتح .

وأقبل « رياض » وقد بدأ التحيم على وجهه .. ولكنه لم يكذب يراني
 حتى كسا وجهه بانفسلية ترحيب خائلا :

« أهلا سيهر .. لقد اتيت لأحدثك عن حيدى .

— خيب حله !

— سيهر .

— وأين هو ؟

— في رئاسة الفرقة .. بحى المزرعة .. لقد اتيت من منده حالا .

— ولماذا لم يات .. ؟

وبدت على وجه « رياض » علامات الحيرة .. وقال مترددا :

— لم يات .. لان .. لان .. لانهم مشغولون .

وقلت في شيق وعصبية :

— كيف ؟ ! قل الحقيقة ! !

— لأؤكد لك انه بحير .. وهو في رئاسة الفرقة .

— لماذا إن لم يحضر ! !

— لانه لا يستطيع بمبادرة رئاسة الفرقة في هذه الظروف .

— لماذا لم يتحدث في التلفزيون ؟

— لانه .. لانه لا يستطيع .

ونفضت في عصبية شديدة متجهة نحو الباب وأنا أقول :

— سادس أنا لرؤيته إذا .

وقفر « رياض » ممسكا بذراعى ثقلا في حيرة وهو يحاول طمئنتي :

— اهتدى يا سيهر .. لقد قلت لك إنه بخسير .. ويجب أن

تصدقني .

— لن أهدأ حتى أراه أو أسمع صوته .

ثم أردت صالحة :

— لماذا لا يحلني ! !

وأجاب « رياض » وهو يزعم شيق :

— لانه محتل .. مع بقية الضباط المصريين .

وصحت التماس في دهشة غير مصدقة :

— حيدى محتل .. لماذا ! ! لانه حارب في الجبهة معكم جننا

إلى جنب ! ! لان ساءه سالت على أرضنا .. من أجلنا جميعا !

وردد « رياض » وهو يحس بشيء من الخجل :

— لا تأخذى الأمر هكذا يا سيهر .. إنها تصرفات خرقاء من بقعة

الأفراد .

وصحت والدموع تظفر من عيني :

— إنها سمة في جبيننا .. إنه عار يلحقه بنا هؤلاء الفونة .

وايسكت بي « سلمى » تحاول تهدئتي قلقة :

— اجلسي يا سهير .. هذه قصرات مؤقتة .. سنتهي بلا جدال .
وجئست على المتحد وأنا أحاول أن اثباتك ، وسألت « ريمس »
مخالفة :

— قل ماذا حدث له ؟ !

— لقد وصل من الجبهة في الساعة الرابعة صباحا هو وأحد زملائه ، واتجه إلى بيتنا في طريق مرملة ، عندما سمع صوت طلقات في اتجاه استراحة المشير ، فأتجه بالعبوة مع رفيقه إلى الاستراحة فلم يسطع ، إذ وجد الطريق مغلقة بإحدى الدبابات .. وأمس بشيء من الدهشة ، واتجه إلى قيادة الأركان فوجد التوليد مضمينة ورأى الدبابات تحيط بها ومدافعها موجهة إياها .. فاحس أن القيادة محاصرة وعندما هم بالاعتزال منها وجهت إليه إحدى الدبابات مدافعها ، فلم يجد بدا من التراجع ، وذهب إلى مقر قيادة فرقته في المزرعة ، فوجد هناك رائدا سوريا من رئاسة الفرقة يسأله عن الموقف فقال له : « شرموا هون » فدخل معه المكتب هو ورفيقه وعاد السؤال من حقيقة الموقف فاجابهما بأن الصباط مطلوبون للتجمع في القيادة ، فاهتراأ بأنهما وصلا من الجبهة حالا ، وأنهما يريدان فرصة للاستراحة وإبدال الثياب ، فقال لهما سيسأل عما إذا كان هذا ممكنا ثم تركهما وأعلق الباب بالمفتاح .. فأنكر حدى أن الأمر ليس من البساطة كما يتصوران .. وأنه لا بد أن يكون هناك شيء عند المصريين .

وعبرت ريمس .. وأثقت أسأله لكي يكمل حديثه :

— وماذا حدث بعد ذلك ؟

— لا شيء . أشهر اعتقال الصباط المصريين في المبنى . وقد استطعت أن ألقاه ، وكان « مقدم » من ضباط الحركة قد حاول أن يسوقه هو وإخوانه بالرشاشات إلى المطبخ مبالغة في الاعتناء .. ولكننا ثرنا عليه واضطررنا لإعادتهم إلى المكتب والمحافظة على كرامتهم .
وتسألنا في ضيق :

— ولماذا يحاول اعتقالهم ؟ !

— لأسباب خاصة ، لا تستحق أبدا كل هذا الإهتمام . لقد كان هذا « الخدم » نثرا على الصباط المصريين لأنه « مقدم » لم تكن له عربة .. و « ثقيب » مصري يستعمل عربة .. وفلت له من الجائر أن تكون العربة للتمسب وليست للربة .. وآخر غصن لأن الصباط الذين سمون في مصر لا يحسون اختصاصات .. وقد سمعنا من البعض أنهم سمحوا اختصاصات ولكنهم لم يحاولوا تأديتها .. وآخر نثر .. لأن تصرفات بعض الصباط المصريين .. كانت سيئة في دمشق .. ونسوا أن كتيبة المظلات السورية ضرت حتى مصر المنيذة بأكله .. ولم يحتج أحد إلى اتساع القاهرة ينتج إساءات الضباط السوريين .. وسيق دمشق يبرر إساءات الضباط المصريين .

ووجدت « أبا سفي » يئنخ من أنه يظهر من مظاهر الدهشة والاحتجاج وتساؤل قائلا :

— يحالون الزكام يقطع الأنف .. يشلون التهاب لوز الوحدة يقطع رقبته .. ما أمثلهم .. وأحكم رأيهم .. والله لو أصبحت أسلوبهم الحكيم لطلعت لك منذ عشرات السنين .

ومدحت يد الرجل المجور ثمث بالواجب .. لتصبحنا البلاغ رقم ٢ :
« إن القيادة العربية الثورية العليا للقوات المسلحة تعلى للشعب العربي في سوريا أنها مسيطرة تماما على الموقف وهي واثقة كل الثقة من أن الشعب القومي سيجتاز محاطة ثابة على إخوانه المصريين وأنه يعاملهم بأحسن ما يعامل به الأخ إخوان من كرم وعنفية ووفاء » .

وصحت في غيظ دون أن استمع إلى بقية الليل وأنا أحس أنه نوع من الإيحاء بتكليب الشعب على المصريين :

— حرام أن يقولوا مصري وسوري . ليس من السخيرة أن الذين بسوقوا الصباط بالرشاشات .. هم الذين يحفرون الشعب السوري من الاعتداء على المصريين .. إن الشعب السوري لا يمكن أبدا أن يفكر في الاعتداء على المصريين .. إنهم يحاولون الإساءة إلى الشعب السوري بكل ما يتولون ويفعلون .

المجورة تستط وتترق بواسطة المظاهرات العبر . . التي سير كنها
ترق منظمة من الجنود .

ووجدت نفس أسقل « سلبى » فى دهشة حقيقية :

— لمسلحة من يثار شعور الخصومة . . بين السوريين والمصريين ؟
وهزت « سلبى » رأسها حائرة .

وسمعت لهاها يهيب وهو يقف ورائها :

— لمسلحة كل من كرموا وحدتنا . . لمسلحة الذين حاربوها خلال
الأعوام الثلاثة . . لمسلحة إسرائيل التي اقترعها وجود جيش عربى
يطبق عليها كالكفاية . . لمسلحة ملوك الرجعية الذين ترجمهم العدالة
الاجتماعية التي تطبقها الوحدة وتسد بها عليهم شعوبهم . . لمسلحة
الاستعمار الذى فشل فى مقاومة الوحدة باتحاداته المفتحة . . وحكابه
الرجعيين . . لمسلحة الشيوعيين الذين طارت الوحدة هزيمهم . .
لمسلحة حكام البعثين الذين خست الوحدة على نفوذهم . . إن المسألة
قد تعدت أصحاب الشركات الاحتكارية . . لقد قلبت الضباط السلفيون
كرة الانقلاب والتقطها المونورون من النائم ، والتقطها من هؤلاء هؤلاء
. . أعداء الوحدة الحقيقيين . . والله وحده يعلم مصير هذا البلد
المسكين . . بين كل هؤلاء . . انظروا . . وكفى منظر مؤنية .

وتركنا الشرفة . . وعامدنا الاستماع إلى سلسلة البلاغات المتتالية .
وبدأت تدور فى البلاغات لهجة الخوف من إفلات الزمام .

لقد أزعج البلاغ السادس أن قيادة الانتفاضة تشكر المواطنين على
إظهار مشاعرهم لتأييد حركتها وتطلب منهم الهدوء والكف عن مظاهر
التأييد الجماهيرية لئلا يفسح المجال أمام مسخفين أو انتهازيين يحاولون
الإساءة إلى قضية الحركة . . وهدفت القيادة بالضرب بيد من حديد
على كل من يحاول الاستغلال أو الإساءة .

وفى البلاغ السابع قبيل الساعة الواحدة عانت القيادة شائكة
الشعب الخلود إلى السكينة والهدوء . . مؤكدة أنها ستستع كل محاولة

لامساومة

لم يكد ينتهى البلاغ الاحق الذى طلب فيه الانقلاب من الشعب
السورى المحافظة على ارواح المصريين . . حتى تماثلت من الطريق
اصوات هتافات .

ونهبت « سلبى » إلى الشرفة لترقب الطريق لدرى أولى مظاهرات
الانقلاب . . بمظاهرة محدودة العدد . . بدت فى الطريق كئنها زحلم
على محطة أوتوبيس تحمل العلم السورى ، وتهت هتافات مضادة
للوحدة والمصريين .

واخسست نالسى يبالأ تلبى . . وأنا أحس كان هذا تعيد عجلة
التطور إلى الوراء . . وتدنمنا التهورى عبر التاريخ .

وتنهبا بادرة أخرى . . لمحت بها « شكيب » . . أولعت هتافاتها
. . هتافة أمراء . . وطبيعة بدمريها . . كانت تترق علم الوحدة وتنب
الجمهورية العربية المتحدة . . وتهت هتافات مضادة لرئيسها ، ثم
تتوج هتافاتها بهتاف بنفم . . « عاش الشعب السورى عاش . .
قيادة خالد بكداش » .

ولم أطلق النظر إلى بنية المظاهرات المندرة . . وأنا أحس كئنها
مسكين يجر به الانقلاب رقية سوريا .

وهبت بالعودة عندما أصرت لامتلت الحرائد المصرية فى الصلوة

للإخلال بالأمس ، وطلبت وقد الفيلام بالمظاهرات والتجمعات فيها كانت غلبتها .

وبعد نصف ساعة صدر البلاغ الثامن بأن القيادة أمرت للقوات بمقع كل تجمع أو تظاهر فوراً .

وكان « رياضي » قد خرج للإلتحاق بوحدة العسكرية ، ولم يجد حولي من يستطيع طمأنئي عليك .. وأنا أحس أن قلتي عليك بزداد ، فقلت لسلي :

— لتستطيعين الإتصال برياض ؟

— أجل .

— اطلبي لي .

وقبل أن تنقضي لتغير ترمس التليفون .. ملا صوت المذيع قائلا :

« أبها الإخوة المواطنين .. إليكم البلاغ رقم (٩)

وأرعدت القننى وإحساس ملباسي بملأ نفسي ..

واستطرد المذيع يقول :

— إن القيادة العربية الثورية للقوات المسلحة التي دعمها الشعور بالوقوف على وحدة الصف العربي وحماستها للثورة العربية وتأييدها ودفاعها عن مقوماتها ، تعلن للشعب العربي الكريم أنها لا تنوي المس بما أحرزته الثورة العربية من انتصارات ، وتعلن أنها لمست عناصر مخربة انتهائية تريد الإساءة لقويتنا ، فقبلت بحركتها المدمرة تلبية لرغبة الشعب العربي وآبائه وأعدائه ، وأنها عرضت نفسها الجيش وأعدائه على سيادة المشير نائب رئيس الجمهورية والقائد العام للقوات واتخذ الإجراءات المناسبة لصالح وحدة وقوة القوات المسلحة والجمهورية العربية المتحدة ، وقد عانت الأمور العسكرية إلى محارها الطبيعى امتدادا على ثقتها بحكمة القائد العام للقوات المسلحة وقائد الجيش الأول اللذين يحتفلان أهداف القوات المسلحة والجمهورية العربية المتحدة .

وتعلن الذعول وأنا أستمع إلى البيان .. ورغم ما في البيان من

تناقض وتعبط وهو يبدأ باسم القيادة العربية الثورية التي أكدت في أيامها السابقة أنها ثارت لتقضي على إساءة الطغاة والمستعمرين الذين سلطهم الشعب العربي الأبي من سوريا كل مقدراته والتي انتهت — على حد قولها — الطغمة الفاسدة بأنها تصدر بين الحين والحين قرارات ، تظاهرها الرحمة وعلتها العذاب .

هذه القيادة الآسية الثورية التي أكدت كل ذلك في بيئاتها السابقة والتي تسمى حركتها بملركة .. تؤكد في بيئاتها هذا أنها لا تنوي المس بما أحرزته الثورة العربية من انتصارات ، اعتقد أن أهمها القرارات الاستراتيجية التي سبق أن وصفها بأنها قرارات تظاهرها الرحمة وعلتها العذاب .. ثم تقول إنها عرضت قضية الجيش على سيادة المشير نائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة والقائد العام للقوات المسلحة ، وأن الأمور العسكرية قد عادت إلى مجراها الطبيعى امتدادا على ثقتها بحكمة القائد العام .

كيف ستق محرد وعود قيادة ثورية يصدر باسمها البيان مع وجود قائد عام للقوات المسلحة يوثق بحكمته ؟

وبح ذلك لم أترك لنفسي فرصة للتفكير فيها خواء البيان من تناقض ظاهر غير مفهوم .. فقد هزنى نشوة سماع اسم الجمهورية العربية المتحدة بتردد مرة أخرى .. وأحسست أنه مهما كان ملبس من تناقض فهو يعنى في مضمونه الجبل .. انتكاس الحركة وانسلاخ الانقلاب .. واستقرار الوحدة .. وبعد كل هذا .. إطلاق سراحك .. وعودتك إلى .. لقراني كيف أصبحت .. ولتنطلق بما لي طريق الحياة المشترك لننطق ألقينا وأملنا .

ونهضت أدل « سلي » والدمع في عيني وأنا احتف بها :

— انتهينا يا سلي .. أنزلت الغمة .

وسمعت أبها يهتف من أعماقه :

— الحمد لله .. لك الحمد يا رب .. كانت تجربة قصيرة ولكنها

مرة .. اللهم لا تندها .

وأبستك بيد « سلمى » وصحت بها قللة :

— هيا بنا .

— إلى أين ؟

— إلى بيت « حسن » .. كان واجباً علينا أن نذهب من قبل لام
جدي لطلبنا والاطمئنان عليها .. ولكن شغلنا المفاجأة .. وكنا
نحن في حاجة إلى من يطلبنا .. هيا بنا .

وكان من البديهي أن يتحده دهنى .. أول ما يتجه .. إلى محاولة
لقتلك .. وكان المكمل الطيبير المروى أن نذهب إليه بعد انتهاء
امتلاك هو بيت « حسن » وناديه « .. حيث تكلمت في عطلتك .

لقد كل واجباً على أن أذهب بعد أن سمعت أثناء الانقلاب إلى
هناك .. ولكن لفتني على سماع أخبارك ، وبقية أن « رئيس »
بحكم مركزه كمنشط هو أكثر الناس على الاتصال بك ومعرفة أخبارك ..
جعلني أوجه إلى بيت « سلمى » .

وكما قلت لسلمى .. كل حالي من القلق والجزع أبحث على طلب
الطبياتية .. منه على إعطائها .

وهكذا لم أكد أسمع ثبات حركة الانقلاب حتى اندمعت إليك .. ولأنه
أنت صاحبك في بيت « حسن » .

وسألتى سلمى :

— أخبر أباك أننا سنذهب إلى بيت « حسن » ؟

— تخبره من هناك .

— قد يفضل أن يرسل لنا الحرية ؟

— لا داعي لإضاعة الوقت في الانتظار .

— ففشي أن يكون الطريق ...

— لا تخشى شيئاً .. لقد حدثت الجبال .. هيا بنا .

وجررتها من يدها في عجلة .. كنت أحس أن الدقيق التي تمر بي
قبل أن ألتقي شعبة من عمري .

وهبطنا الدراج إلى الطريق .. لنجد مظاهرة ضخمة تتدفق من

ناحية مبنى البريد سائرة بجوار فندق « مسيراميس » عبر كوبري
الساحة متجهة إلى ميدان السبع بحرات .

ورأينا أعلام الجمهورية العربية المتحدة ترافق نوتها وصور رئيسها
تتلوها .. والتهنئات القوية بالوحدة تنطلق في حماس جنوني .

وبلأى الإحساس بالارتياح ، وأنا أسمع صوت الشعب الحقيقي
ينطلق في قوة وعنف .. ليسوا اثر التهاني المسبوبة للبطولات
المجيدة .

وعبرنا الساحة متجهين إلى طريق « برمكة » .. حيث بيت
« حسن » .. ولقيتنا « نادية » بالهلب ، وقد بدت الفرحة على وجهها
وصبغت إليها والدموع في عينها قللة :

— الحمد لله .. فحة وزالت .. كل شيء يمكن إخماله إلا روان
الوحدة .

وأجبتها في إيمان :

— لقد بذلنا من أجلها الكثير ، وحققنا بها الكثير .

— وحرام أن نضيعها من أجل أخطاء تحدث في كل أسرة .

— إذا كان البعض قد أساء التصرف .. فليس من العسير علاج
أخطائه ووقفه إساءته .

ولمحت « بك » تقبل علينا .. وقد بدأ على وجهها الإعياء وكانت
ألمرة الأولى التي أراها بعد عودتي ، وكان المروى أن أراها وإليك
هذا الصباح لولا الأحداث المفاجئة التي جرفتنا .

وعشيتي إلى صديها في حنان ولطف .. قللة في لهجة لا تخلو
من الأسى :

— عبد الله على السلامة يا حبيبتي .. الله حيد الله على السلامة
.. لم نغارق تفكيرنا لحظة واحدة .. كان جدي يطلب مني أن أدمو
لك بالشفاء وبالعودة سائلة .. وما كنت أظنني في حاجة إلى طلبه ..

بما نسيتك مرة واحدة في صلواتي .

ونظرت « أمك » إلى « مادية » واستطردت والنوع في عينها .
— كم كان « حدي » يتلطف على لقاك .. كان بعد المسامحة في
انتظارك .. وكان يقول لي .. عندما تأتي سفير ، سامبل كذا ..
وكذا .. كل شيء كان يؤجله حتى تأتي سفير .. ويشاء القدر أن
تأتي فلا يحدثه .

وقالت « مادية » وهي تحاول أن تزيل جو الأسى الذي انتاعه
أمك :

— سيأتي « حدي » .. وسيلقاها .. وسيلقانا كل ما يريدان .
وسألت « أمك » في تشكك :

— متى سيأتي ؟

وردت سلمى :

— بين لحظة وأخرى .. لقد انتهى كل شيء .. وعاد الأمر إلى
طبيعته .

وجلسنا في البهو المظلم على الشرفة .. بعد أن احترت « أمي »
أني ذهبت إلى بيتكم .. وثلت إلى سألني حتى تحضر .. ووعدتني
بالمحضور هي وأبي بعد الغداء .

وبدا الوقت يمر ، ونص تحاول أن تنطق بالحديث .. وكل منا
يحاول أن يخفي قلقه .. وأسامنا لحظة بالباب .. مرحة لكل وقع
خطا على الفرج .. أو صيحة بوق في الطريق .. أو رنين حرس
بالباب .

وكننت أول من التفتحت صوت عربة تنقل في الطريق ، فاندفعت
بغير وعي إلى الشرفة .. فوجدت عربة « حسان » تنقل بالباب ..
ومددت يدي لارتب باب العربة .. لعني أراك قاتنا مع « حسان » ،
ولكني وجدته بهيوط وحده .. ويتجه إلى الباب مساعدا إلينا .

وأقبل علينا « حسان » .. ولم يكن وجهه مريحا .. لم تكن تشو
عليه نمرجه الانتصار .. ولم أشك في أنه مبهود من غرط انفعالات اليوم
الحافل .. وقالت أسقله وهو يرتقي على أهد المقاعد :

— ما الأخبار ؟

وهز كتفيه ثقلا :

— كما سمعتموها في الإذاعة .

وسألت « مادية » بتحديد أكثر :

— ما أخبار حدي ؟

— المبروش أن يأتي .

وثلت في قلق :

— ولكنه لم يأت .

وبدت على وجه « حسان » علامات الحيرة والفسق ، ولم يحب

.. واستطردت ثقلا :

— ألا نستطيع أن نسأل عنه في الهاتفون ؟

وقال « حسان » .. دون حماسة :

— نجرب .

ثم أبسك بالهاتفون بدير القرس ويربح الساعة .. وكرر العملية

بضع مرات ثقلا :

— مرة بشغول ، ومرة لا يجيب أحد .

وتسألت « أمك » في صوتها الخافت المصنم :

— ولكن لماذا لم يأت ؟

وهز « حسان » رأسه في حيرة ثقلا :

— قد يكون لديه عمل .

— عمل .. أي عمل هذا ؟

ورعد « حسان » يهز رأسه .. وقال في صوت خافت كأنه يحدث

نفسه :

— أشياء تبعث على الحيرة !

وتسألت « مادية » :

— كيف ؟

ورد « حسان » بنفس اللهجة :

— العمليات ما زالت نضج بقيادة الأركلى .. وببيت المشير محاسن .. والإداعة وثيقة المرافق .. كل شيء على ما كان منذ الصباح .
وقالت « سلمى » فى دهشة :
— ولكن البيان الأخير قال إن الأمور العسكرية عادت إلى محارها الطبيعي .

ورد « حسان » فى عصبية قللا :
— كذب .. لقد رأيت كل شيء على ما هو .
وقالت « نادية » فى لهجة واقعة :
— ربما احتاج إلغاء الإجراءات العسكرية إلى وقت .
ولمحت أنا مؤكدة :

— ربما تكون الإجراءات العسكرية منخدة الآن من قبل القيادة العامة للقوات المسلحة ؟

وأطرق « حسان » قللا :
— حشر .. معقول جدا .
وقالت سلمى :

— لقد كان النيل واضحا .. إن كل شيء قد انتهى .. وإن تصابها العيش قد عرست على المشير الذى تفهم حقيقتها واتخذ الإجراءات المناسبة لها .
ورد حسان :

— إذا كانت المسألة كلها مطلقه بمستكلات العيش .. طبعاً كل هذا الصحيح .. الذى أوكلت له بطيح بالوحدة بتكليفها .. ثم إن رأس الحركة .. هو مدير مكتب المشير يوضح ثقته .. لماذا لم يحاول عرضها على المشير من قبل والوصول إلى حل لها ؟
ومست « حسان » برهة ثم استطرد بقول فى اشتزاز :

— رائحة العذر والخيانة تنوح من الحركة .. لا شيء فيها يبعث على الطمأنينة .. وهى تصمم بعض عناصر لا يمكن أن نعتك على الثقة أو الاحترام .

وعتت « نادية » قللة فى دهشة :
— على أية حال لقد انتهت .

وتنهد « حسان » قللا :

— أجل انتهت .. لو استمرت لكنت كثرية .

ورحنا نقتل الوقت بالحديث .. والتقى بزداد بنا .. وقالت أبك وميها معلقة بالساعة وهى تطلق تنهيدة أسى وجرن :

— لم يأت حيدى بعد .. الا تهيمون للطعام ؟

وقال حسان :

— ليست لى قلبية للأكل .

وردت فى شرود :

— لنتنظر حتى يأتى حيدى .

وردت أبك فى حيرة :

— من يعلم متى سيأتى ؟

وردت « سلمى » يدها إلى الظيئون قللة :

— سأحاول أن أسأل عن ريلس .

وأدارت القرس وسألت عن أخيها فلم تجده .. وأدارت رقبا آخر فرد عليها صوت سألته :

— الرائد ريلس موجود ؟

انتظرت برهة ثم تساطت فى لهفة :

— ريلس .. كنت أبحث عنك فى كل مكان .. نريد أن نطيش على حيدى .. أنا أعدك من بيتهم ، وكلنا ظفون عليه .

وكفحت « سلمى » نصت إلى حديث « ريلس » وترد بهيبتات ونحن من حولها نتطلع إليها فى لهفة حتى انتهت الحديث قللة :

— حسن .. إذا حصلت على أية معلومات اتصل بنا هنا .

ثم أبلته رقم الظيئون ووضعت الساعة والتفت إلينا قللة :

— كان يحاول الاتصال بنا .. لقد تلى حيدى وهو على خير حال .

.. لقد اعتذروا إليهم عن كل ما حدث .. وأدعوا لي : لإجراء الذي
اتخذ معهم كل لصالحهم .. لأجل حياتهم من اعتداء الشعب .
وتلكم الصيق .. من الاعتداء الكاذب .. وصحت في عيظ .

— يريرون حياتهم من اعتداء الشعب ؟! .. يستوتونهم إلى المطابخ
بالرشاشات .. ويدعون حياتهم .. يا هذا الكذب الحثير ؟! لماذا
يفترون كل هذا الإعتراء ؟

وقالت « سلمى » في هدوء :

— هكذا قالوا يا سهر .. ولا داعي لأن نشور لكل خيانة يرتكبونها ..
لأن أن يبرروا حياتهم .. على أبة حال لقد اعتذروا إليهم وتقدموا
إليهم الشاي ، واكربوا ولفحتهم .

وتسائلت « أمك » وهي تلمت في لهفة :

— ولماذا لم يلت ؟

وصحت أنا في دهشة :

— أجل لماذا لم يطلعوا سراهم ؟

وبدت الحيرة على وجه « سلمى » .. وقالت بتردد :

— لقد أبغواهم نفره .. تاليلين لأن هذا مجرد إجراء تحفظي .

وهر « حسان » رأسه واطلق من أنفه زمرة ساخرة ، وتال مشيتلا
في ملرارة :

— إجراء تحفظي ؟ .. بعد أن انتهى كل شيء . يستمر اعتقال
الضباط المصريين كل إجراء تحفظي ؟

وتسائلت « نادبة » وقد لغرت لهاها :

— تحفظي من أجل من ؟

وهرزت رأس في حيرة وأنا لا أكاد أنهم يا يحدث . وتسائلت :

قاللة :

— محيبة .. كيف تترك الأمور في يد القائد العالم للقوات المسلحة
.. في الوقت الذي تعاصر القيادة .. ويستمر اعتقال المساند
المصريين ؟

وكانت « سلمى » تكترها هودوا وتللا لعاجليت :

— إنتهاء هذه الإجراءات يحتاج إلى وقت .. لا داعي أبدا للقلق ..
كل شيء سينتهي إلى خير .. لقد أكد لي رياض أنه رأى حيدى وأنه
على خير حال ، ولابد أن يعود إلينا اليوم .

وتنهت « أمك » قاللة :

— رينا يسمع منك .

ثم التمنت إلينا مستطردة في هزم :

— انهضوا للطعام .

ثم وحثت القول إلى « حسان » وهي ترى الفردد على وجهه :

— انهض وكل .. إنك يا زلت على لهم بطنك .. ثم .

والنفسا حول المقدة .. وكانت الساعة تدلقت الرابعة ، وأزرد
كل بما لتعبات في محاولة للأكل حتى نريح لك .. وعادنا حجرة الطعام
.. واسترحنا في البهو .. انظرنا معلقة بالساعة .. وأسبامنا مطلة
بالطريق .

وحولت « نادبة » أن تعدد سحلة الصمت اللاتية التي تحطم
عليها .. تبعت يدها إلى الراديو بجوارها وأدارته .

واتطلقت أصوات الموسيقى العسكرية والانشيد الحباسية .

وقال « حسان لنادبة » في صيق :

— أغلنى الراديو .

وقبل أن تبد يدها لإغلاق الراديو صمت الموسيقى .

وأرغمت « نادبة » سمها بطريقة لا إرادية قبل أن تدبر الكناج
لتنقله .

وقدت الساعة خمس دقائق .. واطلق صوت المديع بصرح في
مصيبة :

« هنا فيلق .. »

أبها الإخوة المواطنين .. إليكم البلاغ رقم ١٠ .

واصمست شيء بلقوى في أعمالى .. وأنا أصبح كلية البلاغ .

واستطرد المذبح يصيح :

« إلى القيادة الثورية العربية للثورات المسلحة تمثل للشعب العربي أنها لدى اتصالها بالمشير عبد الحكيم عامر وعدّها بالقضاء على الانتهازيين والمخرس بما دعاها لإدائه بلاعها رتم ٩ ، ولكن ما لبث المشير أن تكاد بوعده .. لذلك وحرسا من القيادة الثورية على انتصارات الشعب العربي والثوية العربية ، تطعن للشعب اعتصار بلاعها رتم ٩ لأفيا ، وهي تطعن أنها وضعت يدها على كافة الأمور ، وتعاقد الله والوطن على حماية الأمة وحماية حقوقها والصلط على كرايتها ، والقيادة الثورية لها من سمة وعلى الشعب عدم السماح للمأجورين والانتهازيين أن يرددها أن يندسوا بين سمومه ، فالحركة للشعب وإلى الشعب » .

وعصت صوت المذبح .. وانطلقت المرحلات الموسيقية وهم عليها صمت ثقل كليب قاتل .
كانت المفاجأة مذهلة .

فبرغم ما كل بطومونا من تشكك وقن .. إلا أننا لم نصور قط أن العكس يمكن أن تتم .. ويمل هذه السرعة والمفاجأة .
وانطلقت من صفر « حسل » زفرة حارة وأخذ بطرق بعصبة على المنضدة .

وكأنت « أبك » أول من تكلمت ثالثة في سموت ملؤء الأسمى والحرى :

— يا رب لطفك يا رب .. اللهم ارحمه .. واطفه به .
ومرر كل ما من من خوف عليك وشوق إليك .. ننت تطمت لهدء
« أبك » سماعة قلبي .. ووجدت نفسي بخير وهي تنهض لأشعها إلى صدرى ثالثة :

— لا تحض شيئا يا حائلى .. انتم فى أميتنا .. وفى تلويتنا ..
لن يجسر أحد على مسكم .

وهزت « أبك » رأسها وهي تربت ظهرى فى خزان :
— اهرى يا حبيبتى .. اهرى .. ولكنى نعط أود على أن أراه .

وردت سلمى :

— سقرينه يا خائلى .. لا تفشى عليه أبدا .

وهزت « أبك » رأسها فى إيمان ثالثة :

— أنا لا أفشى عليه .. الذى نجاء من أمدائه .. ينجيته من اصغقله .

ولصانى من قولها ما يشه الاختلاق .

وحبست فمى .. وحاولت أن استبد من شعلى قوة ، ولأى أبعت فى نفس « أبك » الطيبانة .. وأنا فى تشد العانة إليها .

وقلت « أبك » فى حياصة :

— لا يمكن أن تتحكم هذه المسألة فى الشعب .. لا يمكن أن يتركهم يخطون مثله .. ويضيعون مكانه .

وأرشف « حسل » مؤكدا قولى :

— فى اللاتقية لم تسلم لهم ، وحلب ما زالت تتهداهم فى إدامتها باسم الجمهورية العربية المتحدة .. لن يقبل الشعب السورى أبدا أن يوضع فى جانب إسرائيل .. لن يقبل أبدا هذا التفضيل والمعث والإفترء .. لن يقبل أن يعود التفقرى .

ودنى حرس الطيفون ، ورجعت « نادية » السماعة بتسئلة :

— كور .. أهلا عسى .. أجل موجودة .

ثم حدث يدها إلى السماعة ثالثة :

— ليا .. يا سهير .

وتناولات السماعة سمعت صوت « لى » بتسائل :

— الرسل لك العرية ؟

— ألا تنوى المجيء ؟

— لا أظننا مستطبع . خالك حفيظة وزوجها هنا ؛ يستحسن

أن تعفري أنت .

— إتنا تجلس مع خائلى لم حدى .

— احضروها معكم .. هاتى نادية وحسان .. وتعلقوا بحسن
هنا .. سارسل لك الحرية حالا .. مع السلاية .
ولم يترك « اى » لى فرصة الرد . فقلت له : « مع السلاية »
ووضعت السماعة والتفت إليهم قائلا :
— اى يريدنا ان نذهب إليهم .. هيا بنا يا خلتي .
واحبت لك :
— أفضل البقاء هنا .
ونهرى « حسان » برئت ظهرها بحضرت قائلا :
— دعينا نذهب يا اى .. سنجلس كلنا معا .. يؤنس بعضنا بعضا
.. هيا بنا .. سننتهى كل شيء إلى خير إن شاء الله .
وبعد بضعة دقائق وصلت العربية .. ونزلنا فيها جميعا ولوصلنا
« سلى » إلى بيتنا بعد ان وعدت بالاتصال بنا إذا ظلت اى نيا من
« ريفس » .. ثم اتجهنا إلى بيتنا .
ومى الطريق اذار « حسان » راديو العربية .. وسمعا المذيع البلاغ
الثاني عشر قائلا : « إن المشير عبد الحكيم عامر غادر البلاد إلى القاهرة »
الخامسة والثلاث عشرة إلى القاهرة » .
وسادنا الوجوم ، ولم يعلق احدا بكلمة .. حتى وصلنا إلى البيت
والثلاثين دقائق وزوجها .
وبدت « حاتى » حذرة في إبداء مشاعرها .. او على الاصح كانت
بشاعرها خيطا متعلقا بخارجها بين مصلحة زوجها المرتبطة ببدء
الحركة .. وبين إحساسها الاصيل بالحق والصالح العام .. وارتباطها
الوثيق مع المصريين .. قبل الوحدة وبمدها .. وبجلها الطبيعي لصر ..
ولكل ما يوثق أوامر الوحدة .. وتغيرت لشاعرها الخاصة الناعمة
من ارتباط اسرتها بأسرة مصرية ، وانماج اسرتها بزواج أمتها من
« نادية » .. وارتباطى أنا بك .
ولم يكن زوجها كذلك .. فقد كثر ارتباطه بالحركة اكيدا .. بعد
وضوح اتجاهها ضد القوانين الاشتراكية .

ولم يكن هناك يد من أن تدور المناقشة بين الطرفين .. طسرن
الانقلاب الرسمى الذى يظه « زوج خاتى » .. والطرف التقنى الذى
يظه حسان وأنا ونادية .
وقال « زوج حاتى » وهو يهر رأسه على ثقة :
— كل لابد ان يحدث هذا .. لم يكن من المفول أن تستمر هذه
القوانين الظالمة .
ورد « حسان » بمصيبة :
— لم تكن قوانين غلظة .. لقد وضعت من أجل تحقيق العدالة
الاجتماعية والمساواة .. وضعت من أجل القضاء على الاحتكار
والاستغلال .. وضعت من أجل حق المواطن العادى .. الضاليل
والدلاج .
— هذا كلام خطب وصحف .. وقاه .
— بل هذه حقائق تعرضها أنت يا اى .. تعرف تحكيكم فى الاسماء
.. تعرف الازياع الضخمية التى تحتفلونها نون أن يملك أحد ممتلكاتكم
او مزارعتكم .. تعرف سيطرتكم على جهاز الحكم لهما بعض .
— لقد اتفقا بأولنا بشروعات لخدمة البلد .
— بل وضعت البلد فى خدمة لواءكم .. البنوك الأجنبية او البنوك
التي تتحكمون فيها كانت تحول من البنك المركزى من أموال الشعب
والعكوة .
— اكان يستدعى ذلك أخذ أموالنا ؟
— ولم لا ؟ ! إذا كنتم تأخذون أموال الشعب .. فليدأ لا يأخذ
الشعب لأموالكم ؟
— على أية حال .. سيمود كل شيء إلى ما كان عليه .. لقد حاولنا
بالقوى فلم يقد القويق .
— اكان يحتم عليكم إذا ان تقضوا على البلد كلها .. أن تقضوا
على الوحدة .. وتطعنوها فى الصميم ؟

— لم تكن تريد أبدا أن تنضم على الوحدة . لقد قلنا في كل ما تريد هو إنشاء القوانين الاشتراكية ، وكان الضابط لا يريدون أكثر من حل مشكلاتهم .. وأن يكون رمل الجيش السوري في أيدي السوريين لا في أيدي المصريين .. ولقد قلوا هذا للفتك العلم .

وتسائل في دهشة ولهفة :

— وبماذا قال لهم ؟

— قال إنه على استعداد تام لحل مشكلات الجيش السوري بما يرضي الضابط السوريين ويحافظ على كبري الجيش .. ووجه اللوم إلى أحد قواد الحركة الذي يعمل مديرا لمكتبه أنه كان مسئولا عن هذه المشكلات .. فلماذا لم يعرضها عليه أو يعمل على حلها وهو مدير مكتبه .. أما عن القوانين الاشتراكية فقال إنه لا يستطيع مناقشتهم فيها .. وإلى أية مشكلات خاصة بها لا بد من عرضها على سيادة الرئيس .

وتسائل « هسان » وكثفه بظلم الرد سلما :

— وبماذا كان رأي سيادة الرئيس ؟

— قال إنه يرفض المساومة .. فكان على الحركة أن تستمر .

ورد « هسان » وهو يهز رأسه في دهشة :

— طبعا يرفض .. ماذا كنتم تظنون المسألة ؟ تجارة ؟ يعطيتكم الشركات ويأخذ الحكم ؟ إنها مبادئ يا أبي .. إلى للرجل مبادئ وأصفاة .. إنه يريد أن يمنح مال الشعب للشعب .. يريد أن يحقق له العدالة والمساواة .. ويريد منه الاحتكار والاستئثار والسيطرة .. إن الحكم وسيلة لتطبيق مبادئ وتحقيق مثل .. وليست المبادئ والمثل وسيلة للوصول إلى الحكم .. حتى تعوز المساومة فيها .

ورد الرجل ضاحكا في سخرية :

— دعه يطبق المبادئ والمثل في بلده .. نحن سنقتل ما تريد في

بلدنا .

— اتهم من ؟ حنة من أصحاب رؤوس الأموال .. تعلمون في البلد ما تريدون .. والشعب ؟ والناس ؟ .. كل هؤلاء الناس لا قيمة لهم ؟ .. الفلاح الذي أخذ الأرض .. والمعلم الذي شارك في المصنع .. سيترككم تعلمون ما تريدون ؟

— لا تعلم منهم .. سيتبعهم بما يرضيهم ويمسكهم .

— ليست المسألة بنحنا .. ولكننا حتى .

— حتى لو منح ، سبها كما تشاء . لقد استقر الأمر لنا .

— انتم واهبون يا أبي .. لم يستمر لكم الأمر .. لقد امتنظتكم هيبة الضباط لصالحكم ، وسيستفكم أعداء الوطن الحقيقيون لصالحهم .. إن المسألة أكبر مما تتصور يا أبي .. منذ أن قبلت الوحدة والاستعمار وبلوك الرجعية وإسرائيل قد طاش سوابهم .. وأعديتهم الشيوعية متخفا أطارت للوحدة الحزب الشيوعي وقضت على آمالهم في السيطرة .. وراحوا جميعا يحاولون قضم ظهر الوحدة .. ندعوا بالإنقاذ العربي الذي تمت عليه ثورة العراق ، وحاولوا تثبيت حكم « شمعون » ففضت عليه ثورة لبنان .. وراح الاستعمار والشيوعية يتعاونان في العراق على استئصال « ناسم » والقضاء على القومية العربية وعزل العراق .. وتآمر بلوك الرجعية في أول الأمر للقضاء على الوحدة بقتلها والافتعال ، ولغفوها جميعا .. حتى أقيمتم انتم بكتلتكم وماسكم لتقتلوا لهم رأس الفحشية .. لفظة سامة .. لثمت يا أبي يا معلم ! في وزيركم أكبر مما تتصورون ويتصور الضابط .

وهز الرجل رأسه ضاحكا في سخرية وهو يقول :

— لا عليك .. لقد عادت حقولنا إلينا وانتهى الأمر .. عندما تراثنا

انت وزعنا على الشعب .

— أرجو ألا أمشي حتى أراثها .. أرجو أن توزعها القوانين ..

فلا لننتهي احتجت إليها أو سلعناج إليها .

— لقد عليك .. وكسوتك بنحنا .

— سيكون التعليم حقا لكل مواطن .. ولا تظننى كنت أحتاج لكسى .. إلى كل هذه الأموال .. وكل هذا الاستغلال والاحتكار .

ومد « حسان » يده يفتح الراديو وهو يقول :

— سيلقى الرئيس جمال عبد الناصر خطابا في الساعة السابعة .
دعونا نسمعه .

وجلسنا نستمع إلى الحديث في إتصفت .

وانتهى الحديث وصوته يتردد في لنى :

« ايها الإخوة المواطنون .. إلى الرئيس منطق المسلومة .. إلى
التضال مندبا تتدخل إليه المسلمات بلفظ كل قداسته .. إن الجمهورية
العربية المتحدة لم تتم على المسلومة وإنما قُلت على المبدأ » .

مها طال

عليت في الأيلام القلائل الناقبة ما وقع لك .

كم تشعر بالخجل وأنا أردد .. الخجل من أن ينسب إلى شعب
سوريا ما حدث في ذلك الأيلام .

ولكنى أعرف أن الشعب السوري براء مما حدث .

وأنه هو نفسه أخذ غمرا في هذه الأيلام السود .. وبضت عصابة
الانقلاب التي راحت تتحدث باسمه في الإذاعة تقضى على كل المثل التي
تبعث على الاحترام والفتنة وتندبت باسمه على كل ما يثير الكثراد
والاحتكار .

عليت أنك تظن والضيابط المصريون في جنح الليل .. محلين
كاسري اليهود في لوريات مخلفة وأنه الذي يكمن في منبر من الصاج في
محسكر « التقدم » الخامس بالإكسار على بعد « كيلومترات من دمشق » .

وعليت أنك بتيتم ثلاثة إيلام بملابسكم بلا طعام إلا ما استطعتم
ابتغاه من ككتين المحسكر بحيث كان يحصل الضابط على نصف
ستدويته في اليوم .. وكنتم تذهبون إلى دورات المياه التي تبعد
نصف كيلومتر من المحسكر .. والمسلكر الحراس يوجهون بنخلهم
بالسوتكى إلى ظهوركم في غفوتكم وروحتكم .

ولارت ثقرتكم على هذه المعللة غير الأدبية .. وطالبتم أن تعملوا

معاملة الآدميين ، أسرى أو معتقلين أو مسلمين أو أي وضع آدمي يتقبله العرف الدولي وكان رد ضباط الحركة الشقيقة الذين انقلوا سوريا ومرويتا وأديبينا .. أنكم تتناصون مرتبنا تبلغ الألف ليرة في الشهر ، وأنكم تستطيعون شراء طعامكم .. وتجاهلوا أنه لا يوجد مكان لشراء الطعام أو سبيل إليه .

وأخيرا .. وانتوا على صرف الطعام إليكم .. يرغل في قروان كبير ويصل ولبنه بلا صحاف ولا اقوات للأكل .. وفي نفس المنبر الذي احتشدتم للتوم نبه .. وبلا فرصة لاستعلم أو فيلر .

ولم أستطع أن أفرك .. سبب تلك المعاملة .. أهي حقد دفين من بعض المحتالين المبرورين .. ثم هي خطة مدبرة لتيفين المصريين في السوريين حتى يسدوا السبيل على أي احتمال لعودة الوحدة !

عندما انصور كيف عولمتم أحسن بيجيني يندى خجلا ، وأحسن بآجيني تنوارى حياء .. وأحسن بشيء يتولى في بالطني ومزلة تسرى في حلقى .

ليس من أجلك وحده .. تملكى هذا الشعور .. وأنا اعرف كيف قاتلت في أرضنا .. وكيف جرحت .. وامترج ديك بترابنا .

ليس من أجلك وحده .. أستشع ما حدث .. ولكن من أجلك جميعا .

كم وددت لو كانت هذه الطغمة أكثر آدمية ، ولشد رجولة .. وإن يعاملوكم ما دابوا قد أسروا على أن يجهلوا منكم خصوصا .. بمعاملة الشرهات للصومانية .

ولكن لماذا يكونون شرهات في خصوصيتكم ، وهم لم يكونوا شرهات في أي شيء .. حتى في انقلابهم .. قبض بعضهم شنه من الخراج !

وفي الفراء انهم الكثيرة .. التي راوحوا يطلونها في الإذاعة الواحدة بعد الأخرى .. عن الاستعمار المصري .. والفرقة المصرية ، وسرقة الذهب ، والأسلحة .

وراحوا يلتفتون أسبابا للصومانية ، وللصليب .. حتى نثال

رمسيس المصنوع من آلاف المئين .. كان منييا لأنهم .. وانخذوا من موافق الشرف .. مصادر للافتراء والتشنوع .. جعلوا من المائة وعشرين جنديا من المظلات التي لم يستطع « الرئيس عبد الناصر » وقهم عندما علم باستيلاء الحركة على اللاذقية وحلب ، وأمرهم بالتسليم بلا مقاومة ، جعلوا منهم غزوا بالمظلات ليجد عن آخره .. وأدعوا أنهم يحلون ملايين تكويرات المزيعة .

وسمنا بعد ذلك في خطبة « الرئيس » أنه لبر برسال قوات لنجدة حلبية حلب واللاذقية ، ولكنه عندما علم باستيلاء الحركة عليها .. أمر القوات بالعودة حتى يتجنب سفك الدماء .

وشكلت الوزارة في اليوم التالي للانقلاب برئاسة حنلي شركة الاحتكار .. وبدأ وجه الحركة الكريه .. انتماليا .. رجما .. ينقش على كل مكاتب الشعب ، وانتصارات الوحدة .

ورحل شعراء العرب وأدباءهم المشتركون في مهرجان الشعر .. كالأسرى يحيط بهم الحراس .

وسمنا اننا صميس يندى لها الجبين خجلا .. عن ترحيل المصريين .. سمعنا كيف أعطيت الأوامر لحراس الحدود لضيقتهم وتعذيبهم ، وسمعنا عن أم طلبت ماء لتستنع اللبن لرضعها بعد رحلة عشرين ساعة ، فمنعه منها الحراس لأن الأوامر لديهم أن يضلوا المرحلين قدر ما استطاعوا .. وسمعنا كيف نثر الشعب السوري في كل مكان على الحراس ، وأكرم المصريين بكل ما يملك من جهد ومال .

وهكذا بدأت الأمور تتطور في الأيام القلائل التالية . وأحسن الشعب بحقيقة ما يدور حوله .

أعيدت الشركات والبنوك إلى أصحابها ريعوس الأموال ، وانتزع الإقطاعيون أراضيهم بالصلاح من أيدي الفلاحين ، وأقبلت على « حنيلة » تبتنى بأكية بان « اشاعا » شرب وطرد من الأرض التي تسلمها .. وأنه سيأتي إلى دمشق لعله يجد عملا .

واعترف سوريا خليط عجيب من الدول .. ينسب بوضوح من

الاتجاه المراد دفع سوريا إليه .. اعترفت بها إيران صديقة إسرائيل ،
وتركيا لعبة الأمريكان في تهديتنا ، وحكومة تشيخ كاي شك الطريدة ،
وحكومة جواتيمالا التي يسمونها حكومة شركة الفواكه الأمريكية .

خليط مجيب من الحكومات الطريدة والعميلة والخفنة قد يد يد
لتأييد الحركة في سوريا ومن ورائها .. إسرائيل نهال سعيدة بوجهنا
الأسود الجديد .

كيف أصف مشاعري لك وأنا أرى الليل الذي انتظرت رحيله قد
ازداد ظلمة .. وأرى الفجر الذي أوشك أن يطل قد ازداد نلما .

وانت .. الشجاع الذي أضاء طريقي .. وملأني ثقة بالدنيا ، وجعل
لحياتي قيمة .

أنت الذي منحني القدرة على الصبر والعزم والإصرار حتى تغلبت
على كل ما بين من نقص ، وعدت إليك .. سلبية قليلة انتح نرامى
للدنيا ، وكنتي أود أن أحضن كل ما بها .

أنت يا منيع الأمل ، والضوء في حياتي .

ملئي في قياحب سجن .. تحرك والسلاح في ظهرك .. كالجرم
أو كالمخلف !

أنت الذي أرتقت دماء على أرضنا ، ودماء تلك الفرحة بتفسيحك ،
والإيمان بوطنك العربي ، والفتنة في إخوانك السوريين الذين يقتلون
إلى جوارك .. تؤخذ من خط القتل .. أسيرا .. بين أمتلاكك ..
لا بين أعدائك . وفي سجن يسلط عليك السلاح ، الذي كان يجب أن
يصوب إلى مفوك ، لا عليك .

أنت في سجنك الصغير ، وبلادي في سجنه الكبير .

وإذا ما تردد ما تردده إسرائيل ، من اعتداءات حقيرة وتضليل
مثير .

والأمامي قد عادت نعال من الشقوق ، فلتهم ما تستطيع الذهاب
من بلد استباحه حكاية .

إلى متى ! !

وإلى أين المصير ! !

والشعب مأخوذ .. مذلول .. ضائع بين الإبليل والاكاذيب .
يسلب منه كل ما أعطى .. وهو بكلم .. لا يسمع من حوله
إلا أصوات غريبة عنه وعن مشاعره .

وأخسست أن صوتنا لابد أن يرتفع ليقول الحق .. ليسبر من
الحاسيس الشعب الصائقة ، ولعلم من إرادته وساطت نفسي :

لماذا لا يفعل هؤلاء الناس شيئا ! !

لماذا لا يصبحون ويصرخون ، ويعبرون عما يحسون ! !

ونكت أجلس في حجرتي أصبح يبصر في ظلمات الليل وريح
الخريف الباردة تسري في أوراق الشجر .

ولم يجيني أحد .

وعدت أسأل نفسي :

ولماذا لا أصبح أنا ! !

ومن يسبح صوتي !

أنا وكل صاحبتي وأصحابي .. في الكلية .

— كيف ! !

من أين نبدأ .. وكيف نلتقي ! !

نلتقي في الكلية ، ونتجه من هناك .. إلى الإذاعة .. ومنها نسمع
أصواتنا للعالم كله .. نسمع له صوت الشعب الحقيقي .. الشعب
السوري الابن الحر .. الشعب السوري ذي الوجه العربي الأصيل ..
الذي لا يمكن أن يلتقي بالاستعمار .. لا يمكن أن نهال له إسرائيل .

وحدثت حسان من فكرتي .. فقال لي بلقة :

— امسيري يا مسير .. لا تلقى أننا مستسلمون ولكن المسألة تحتاج
إلى وقت وتدبير .. لا تلقى أن السوري الحر يغلب على أمره .

ولم يرحني قول حسان ..

لم يهدي ثورتى .. واتدافى .. لم أكن أستطيع صبرا ..

فقد صونا .. الكثير .

حتى ضلعت بالعير .. وكنت أشعر أني .. لها أن تعمل شيئا .
أو اختنق .

وقلت لسلمى الطيبة .. فذهلت في أول الأمر .. ولكنها لم تنك
إلا موافقتي متعيا رأت إصراري .

وبدأت الاتصال .. بكل من نستطيع الاتصال به من الزميلات
والزملاء .

وفي الموعد المحدد التقينا أيلم الكلية .

ولم أكن أنصوّر أن مثل هذا العدد يمكن أن يتجمع بمثل هذه
السرعة .. لقد انتشر تباً نجسنا من زميلة إلى زميلة ومن صديق إلى
صديق .

وبلأني التجمع لحسبنا عبقاً بالقوة ، ورنعت إحدى الزميلات
علم الجمهورية العربية المتحدة .. فلحقنا حيلة .

وتحركات المظاهرة إلى مبنى الإذاعة تتعالى هتافاتنا المذوية بالوحدة
وبعد الناصر ، وبالاشتراكية ، والعدالة .. وبكل المثل الطيبة .

وازدادت المظاهرة تضخماً ، والناس يتسبون إليها في الطريق .

وكانت المظاهرة بحاجة لحكام الرجعية .. لم يفتقروا لها حتى
وصلنا إلى دار الإذاعة ، وكانت الديبالت ترابط حولها .

ونشطت المظاهرة برهة .. ولكني اندفعت أتقدم بلا وجل .. كنت
قد عزمت على أن أتخطى كل ما أمامي ، لكن أسمع صوي للملم ..

لكني أعرف الصوت الحقيقي للشعب السوري .

وهم بعض جنود الشرطة الذين أحضرتهم إحدى العربات بمحاولة
تشتيت المظاهرة .. ولكنهم ضاعوا في غمارها .

ورحت أتقدم نحو الديبالت إلى باب الإذاعة ، ورأيت المدافع في
برجها تستدير نحوي .. ولم أشعر بالخوف .. ربما لأنني لم أدر بخلاقي

أن المدافع يمكن أن يطلق على .. أنا الفتاة العزلاء .

وربما لأن الحماسة أعمقني عن كل خطر .

لقد رحت أتقدم مباشرة وعلم الجمهورية في يدي .

وأطلق النفع .

سمعت صوت طلقات بتلقية .

وسمعت الصيحات تتعالى .. والناس يتدافعون في دهر شديد .

ورحت التلوم ، ولتقدم .

وأنا امرء بلبه حنجرتي .

حتى أحسست بصوتي يتجسب .. وأحسست أن فمي لا يستطيع أن
يخفى ، ونهاويت على الأرض .. اختلطت المزيقات لأبى ، وأنظلم الطريق

في وجهي .. ولم أعد لأشعر بشيء .

والفت لا أجد نفسي في المستشفى .

لا تعزّن يا حبيبتي إذا قلت لك أنني عنت مرة أخرى تعيدة الغرائس .
هذه المرة بكفنا للسلفين .

لقد أصابت الرصاصه جاني ، وبست العمود للفري ، وأحدثت
في ما تقصوه سحبة للنفخ الشوكي .

وأنبؤوني بأنني أصبت بشلل مؤقت .. ولكنوا لي أنني سأبدا منه .

الأمل الحريضي يملأ قلبي .

برغم كل ما أصبني .

وما أصبلك .

أحس بلهفة شديدة عليك ، ولا أفر كيف الفاك .. وأنت أسير
في سجنك وأنا مقعدة في فراشي .

ولكني مع ذلك لا أحس بالقياس .

شكلي مؤقت .

وعرفنا إلى حين .

أسمع صوت « عبد الناصر » ينسلك من الراديو .

البرقيات يسمعه خطمة .

صوت متهدج خزين .. ملؤه الجراح ، يهتف في أسي .. وكان
العبرات تطرف منه :

« وإلى لائق .. نفس ثقتي بالله .. أن هذه التجربة لن تكون
الآخرة .. وإنما كتبت تجربة عملية رائدة ، استندنا منها الكثير .. »
وخفت الصوت فلم أجد السمع .

ومدت أرمي لثني حتى استطعت أن ألتقط قوله :

« وإلى لائق في حمية الوحدة بين شعوب الأمة العربية ثقتي
بالحياة .. وثقتي بطلوع الفجر بعد الليل مهما طُل .. »
واحسست بعبرتين تسليان من مقلتي .

وتركتهما تسليان .. عليهما تشفقان ذلك الاختناق الذي احسست
به في حلقى .

وبضت برهة وأنا أحملي في رعدة النساء التي بدت من التلذذة ،
تتلاحق فيها السحب ، ويهتز وراءها الورق والفصون .

وأطلقت من صدرى زهرة حلرة .. واسترخيت في فراشي وبضيت
مع الأيام لاجتر ذكراك في صبر واثابة .

عجيبة هذه الحياة !

تدفعنا حتى القمة ، ثم تترك بنا راجعة إلى السفح .

منذما وقفت أرتب المدينة الثالثة ليلة وصولي من النافذة ، واستعمل
ظهور الفجر ، وطلوع الشمس التي ستحيك لي .. في الصباح .

كنت أحس أنني ألق على حافة الأمل فوق قمة الحياة .

وكنت أرى الشمس .. التي لم تشرق .. من وراء الأمل أراها قبل
أن تطلع .

أراها برغم الظلمات .

وماذا يفصلني عنها الآن ؟

مزيد من الظلمات ؟

ومنى حالت الظلمات .. مهما تكاثمت .. بيننا وبين غروب النور ،
وانتظار الفجر ؟

لينال الليل .. لتصفد ريحه ، ولتغلب ظلماته .

منى كان الليل بلا آخر .

منى كانت الظلمة بلا فجر .

مرة ثانية يا حبيبى ألق منك على حافة الأمل .. على قمة الحياة .

أمد لك يدي ، وأنا واثقة أنك مقبل مع مطلع الفجر . آت مع مشرق
اتشمس .

بهما طال البعد .. وشق المزار .. مهما ضربت أيدي الفرقة
بيننا .

فراخنا .. إلى لقاء .

وانتصالي .. إلى وحدة .

ورحيلك .. إلى عودة .

لن ادع اليأس أبدا يتسلل إلى نفسي .. سكتهم من رقتي ..
وستقبل من بعدك ، لنلتقي .. لنسير جنباً إلى جنب في طريق مشرق ..
مزدھر .. لا ينطفئ نوره .. ولا يأنل زهره .

سينتهي الليل يا حبيبى .. ونقبل مع الفجر .. لتجدني أعتف
باسمك .. وأمد فراخي لأفكك بأسمة وأبلى بجوارك كما أردني ..
.. سيادة الناس .. يا سيد الناس .



(كِت)

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^